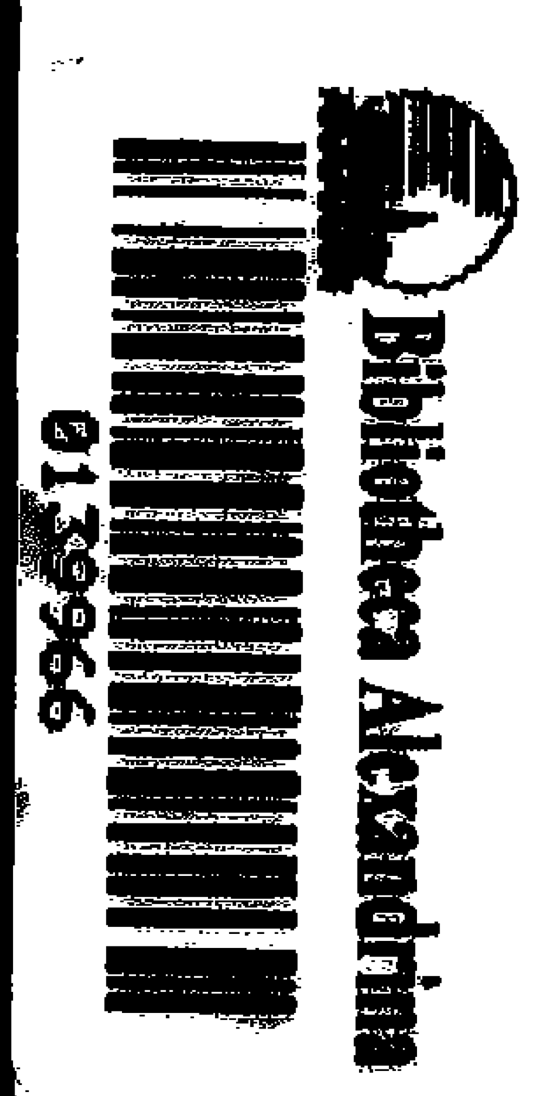
الدكتور يحيى بوعزيز

أعلام الفكر والثقافة

في الجزائر المحروسة

الجزء الثاني





الدكتور يحيى بوعزيز

أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة

الجزء الثاني



الطبعة الأولى

1995

© دار الغرب الإسلامي
ص . ب . 5787-113 بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

قصة هذا الكتاب طريفة وتستوجب الوقوف عندها، وقد أعددناه في جزئين اثنين لكل منهما قصته وحكايته.

الجزء الأول: أعددناه في الأصل ليكون الجزء الأول من الجزئين اللذين خصصناهما لدراسة الثورة المسلحة في الولاية الثالثة من الولايات الست للثورة الجزائرية 1954 ـ 1962. ولكن ما أفرزته ديمقراطية أكتوبر 1988 من الدعوة للائكية الدولة، وأمازيغية اللغة والثقافة، دفعنا لنجعله كتاباً مستقلاً بذاته ليكون أحسن رد وجواب مفحم للذين يريدون الشر للإسلام واللغة والثقافة العربية الإسلامية في هذه البلاد التي أنجبت وما تزال تنجب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أبطالاً، وعظماء، ومفكرين مبدعين في جميع التخصصات تجاوزت سمعتهم ومكانتهم وتأثيرهم رقعة الجزائر وبلدان المغرب والأندلس، إلى بلدان الشرق العربي الإسلامي وآسيا الوسطى، ومجاهل إفريقيا وجنوب أوروبا. وتركوا بصماتهم على كل جوانب الحياة الحضارية، وعمل الكثير منهم بصمت ورحلوا عن هذه الدنيا بصمت وكانوا بحق جنود الخفاء.

وهذا ما دعانا إلى تخصيص هذا السفر لاستعراض تراجم وسير بعضهم في هذه الرقعة الجغرافية الواسعة التي نشأت عليها الدولة الحمادية بشرق الجزائر من القرن التاسع إلى نهاية القرن العشرين الحالي، ما دام من الصعب الترجمة لجميعهم، وعلى المستوى الوطني لأن ذلك يتطلب جهوداً جماعية،

ومجلدات عدة وإمكانات مادية معتبرة غير متاحة لنا. وما لا يعمل كله لا يهمل بعضه كما يقول المثل السائر.

وليس هذا العمل بالأمر الغريب، فقد سبقنا إلى مثله بعض العلماء فيما مضى، فأرخ أحمد الغبريني لعلماء بجاية في كتابه: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية[1]، وأرخ ابن مريم لعلماء تلمسان في كتابه: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان[2]، وأرخ محمد الحفناوي لكثير من العلماء والصلحاء في كتابه: تعريف الخلف برجال السلف[3]، كما أرخ قبلهم ابن صعد التلمساني لكثير من العلماء والصلحاء في كتابه: النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب، وكتابه: روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين الذي استخرجه من الأول[4]، وأرخ آخرون غيرهم لا مجال لذكرهم هنا.

وقد بذلنا جهوداً مضنية في جمع مادة هذا الجزء خاصة بالنسبة لسير العلماء المحدثين والمعاصرين، فاعتمدنا على المراسلات، والاتصالات المباشرة، والمعرفة الشخصية. فكتب لنا البعض سيرهم وتراجمهم بأقلامهم، وأمدنا البعض بسير من يعرفونهم شخصياً أو لديهم معلومات موثوق منها. وترجمنا نحن لمن نعرفهم شخصياً وغادروا هذه الدنيا، واستعنا بمن يعرفهم كذلك ليكون العمل كاملاً أو قريباً من الكمال. أما الذين لا نملك عنهم معلومات كافية فقد اكتفينا بإيراد أسمائهم، ومواطنهم في انتظار استيفاء

---

(1) حقق هذا الكتاب ونشره ابن أبي شنب بالجزائر عام 1910 وأعاد نشره المرحوم رابح بونار عام 1974 م.

(2) حقق هذا الكتاب ونشره ابن أبي شنب عام 1908 وأعاد سحبه ديوان المطبوعات الجامعية عام 1986 م.

(3) نشر هذا الكتاب بالجزائر عام 1906 وأعادت سحبه مؤسسة الرسالة والمكتبة العتقة بتونس عام 1982 م.

(4) كتاب النجم الثاقب ما يزال مخطوطاً في المكتبات العامة والخاصة، وروضة النسرين حققناه نحن وقدمناه للطبع والنشر لدى مؤسسة: دار الغرب الإسلامي لصاحبه الفاضل الحبيب اللمسي.

المعلومات المطلوبة مستقبلاً إن شاء الله، ولشحذ الهمم الأخرى لتبحث عنها وتدرس حياتها الفكرية والثقافية.

وخلال هذا استعرضنا المؤسسات العلمية والتربوية في المنطقة مثل الزوايا، والمدارس، والمعاهد، والمساجد، والمعمرات، التي كان لها دور رائد وأساسي في تكوين هذا الحشد من العلماء، والمفكرين، والمثقفين، خاصة في الفترة الاستعمارية الأوروبية التي امتدت من 1830 إلى 1962، وتعتبر من أحلك وأظلم فترات تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر.

الجزء الثاني: أعددناه منذ مطلع الثمانينات واستعرضنا فيه سير عدد من العلماء الكبار في مدينة تلمسان ووهران، ومعسكر الذين أنجبتهم عائلات علمية ذات باع في الفكر والثقافة، على مستوى العالم العربي الإسلامي غربه وشرقه. وتعثر طبعه في المؤسسة الوطنية للكتاب لأسباب بيروقراطية نأسف لها. وجاءت المناسبة ليضم إلى هذا السفر ونكون بذلك قد جمعنا بين عمل الغبريني وابن مريم. وابن صعد، والحفناوي وآخرين.

إن التاريخ الفكري والثقافي لأية أمة، هو المقياس الأساسي والأداة الفعالة لوزن وقياس مدى نهضتها، ورقيها، وتقدمها، ومدى مشاركتها في تشييد الحضارة الإنسانية المحلية والعالمية. وما قدمناه نحن في هذين الجزئين من أعلام الجزائر يؤكد أصالة وعراقة حضارة الجزائر، ويثبت المشاركة الفعالة للشعب الجزائري المؤمن والمسلم، والمجاهد، في إثراء وإخصاب الحضارة العربية الإسلامية مشرقاً ومغرباً.

وهو ما يجب على الأجيال الصاعدة أن تعرفه، وتطلع عليه لترى ما أنجزه الأجداد، وما بذلوه من جهود جبارة عبر التاريخ وفي كل مجالات الحياة لتعيش هي اليوم حرة مكرمة ومستقلة وفخورة بماضيها، وحاضرها، ومستقبلها.

فباسم الله وعونه نقدم للمكتبة التاريخية هذا الجهد المتواضع من سير الأجداد تحت عنوان: «أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة» بجزئيه عن شرق البلاد وغربها.

ونقدم شكرنا وتقديرنا للأخ الفاضل الحبيب اللمسي، وداره العامرة، دار الغرب الإسلامي التي تولت طبعه ونشره.

والله يوفقنا إلى ما فيه الخير والصلاح والفلاح.

وهران، جمال الدين
الجمعـة { 18 ذو القعدة 1414 هـ
29 أبريل 1994 م

د. يحيى بوعزيز
معهد التاريخ
جامعة وهران
(الجزائر)

تمهيد

لقد شهدت تلمسان في العصر الإسلامي الوسيط حياة فكرية رائدة، وحركة تنوير واسعة للعلوم والمعارف الإسلامية المختلفة امتد تأثيرها وإشعاعاتها إلى المدن والعواصم الإسلامية الكبرى في مغرب العالم الإسلامي ومشرقه.

وانكب شعب هذه المدينة، وأمراؤها وسلاطينها، على البناء الحضاري بمفهومه الواسع، وشهد القرن الثامن الهجري (والرابع عشر الميلادي) بناء عدد من المدارس العلمية، وانكباب جيل من العلماء للتدريس بها، وتثقيف الأجيال وتنويرها، والنهوض بها إلى الآفاق السعيدة.

وهكذا أسس الأمير أبو حمو موسى الأول، أول مدرسة علمية بتلمسان في مطلع القرن الثامن الهجري خصصها للعالمين الفاضلين ابني الإمام أبي زيد عبد الرحمن وأخيه أبي موسى عيسى، ليدرسا بها. ومن بعده أسس ابنه الأمير تاشفين الأول المدرسة التاشفينية بجانب الجامع الأعظم حيث مركز البلدية الحالي. وفي عام 748 هـ (1347 م) أمر السلطان المريني أبو الحسن ببناء مدرسة العباد الحالية، وبعده أمر ابنه أبو عنان ببناء المدرسة العنانية بجانب ضريح الولي الصالح أبي عبدالله الشوذي الحلوي الأشبيلي عام 754 هـ (1356 م)، وبعد حوالي ست سنوات أمر الأمير أبو حمو موسى الثاني ببناء المدرسة اليعقوبية عام 763 هـ (1362 م) بجانب ضريح قبور: أبيه أبي يعقوب، وعميه، أبي سعيد عثمان، وأبي ثابت، وخصصها للعالم الفقيه أبي عبدالله محمد الشريف الحسني التلمساني وولده أبي محمد من بعده، ليدرسا

بها، وينشرا علمهما ومعارفهما الواسعة، وفيها دفن العالم الصالح إبراهيم المصمودي تلميذ أبي عبدالله الشريف، وقد أزال الاستعمار الفرنسي هذه المدارس كلها وخربها ما عدا مدرسة العباد بجوار ضريح أبي مدين شعيب بن الحسين.

ويعود سبب ازدهار الفكر والثقافة بتلمسان خلال هذه الفترة وما بعدها، إلى عدة عوامل أهمها: موقعها الجميل بين الشرق والغرب الأندلسي والشمال التلي، والجنوب الصحراوي.

فهي أولاً: عقدة مواصلات لطرق القوافل التجارية بين التل والصحراء تزود الجنوب ببضائع الشمال المختلفة: الزراعية، والحيوانية، والصناعية. وتستورد منه بضائعه المختلفة خاصة الأصواف، والجلود، وتبر الذهب، والعبيد، والسمن، والملح، وريش النعام، وعظامه.

وهي ثانياً: منبت ومحط أنظار العلماء والمفكرين، وطلاب العلم والمعرفة الذين يفدون إليها من الغرب الأندلسي ومن المشرق للتعلم والتعليم في مدارسها الناهضة، ومساجدها الجامعة.

وهي ثالثاً: محطة عبور لقوافل الحجاج الذين يغدون ويروحون بين بلدان المغرب والأندلس من جهة، وبلدان المشرق الإسلامي والبلدان المقدسة من جهة أخرى، لأداء فريضة الحج، وزيارة قبر الرسول ﷺ، ولممارسة الأعمال التجارية، وتلقي العلم والمعرفة على أجلة الشيوخ وأكابر العلماء.

وبفضل هذا الموقع الاستراتيجي الهام لمدينة تلمسان، وبفضل تلك المدارس العلمية العديدة التي أنشئت بها خلال القرن الثامن الهجري (14 م) استقطبت عدداً كبيراً، قد لا يحصى، من عمالقة الفكر والأدب، وأساطين الثقافة والمعرفة بمفهومها الواسع، وفروعها العديدة، والمتنوعة، الدينية، واللغوية، والتاريخية، وغيرها، البعض منهم من أبنائها ومواليدها، والبعض الآخر جاؤوا إليها من الأصقاع البعيدة شرقاً وغرباً وجنوباً، واستقروا بها وأصبحوا من أهلها وذويها.

ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: أبو جعفر الداودي (ت عام

402 هـ)، وأبو الحسن علي بن قنون (ت 557 هـ)، وأبو علي الأشيري (ت 570 هـ)، وأبو مدين شعيب بن الحسين الغوث (ت 594 هـ)، وأبو عبدالله التجيبي (ت 610 هـ)، وأبو عبدالله بن عبد الحق (ت 625 هـ)، وابن يخلف التنسي (ت 680 هـ)، ومحمد بن مرزوق القيرواني (ت 681 هـ)، وأحمد بن مرزوق (ت 741 هـ)، ومحمد بن مرزوق الجد والخطيب والرئيس (ت 781 هـ)، ومحمد ابن مرزوق الحفيد (ت 842 هـ)، ومحمد بن مرزوق الكفيف (ت 901 هـ)، وأحمد بن مرزوق حفيد الحفيد، وابن خلف التلمساني (ت 690 هـ)، وأبو الحسن التنسي (ت 706 هـ)، ومحمد السلاوي (ت 737 هـ)، وأبو زيد عبد الرحمن بن الإمام (ت 743 هـ)، وأخوه أبو موسى عيسى بن الإمام (ت 749 هـ)، وأبو موسى عمران بن موسى المشدالي (ت 745 هـ)، وأبو عبدالله محمد التميمي (ت 745 هـ)، وأبو عبدالله محمد المقري (ت 759 هـ)، وابن خميس التلمساني (ت 708 هـ)، وابن هدية القرشي (ت 735 هـ)، ومحمد بن أبي جمعة التلالسي طبيب السلطان أبي حمو موسى الثاني، وأبو زكرياء يحيى ابن خلدون (ت 780 هـ)، وابن النجار (ت 749 هـ)، وأبو عبدالله بن إبراهيم الأبلي الأصل، التلمساني المولد والنشأة، الذي تتلمذ عليه شيوخ وعلماء أجلاء، على رأسهم عبد الرحمن بن خلدون، وأخوه يحيى، والمقري الكبير، وأبو عبدالله الشريف وابن مرزوق الجد، وسعيد العقباني، وابن الصباغ وغيرهم (ت 757 هـ)، وأبو عبدالله الشريف (ت 771 هـ)، وإبراهيم المصمودي (ت 805 هـ)، وسعيد العقباني (ت 811 هـ)، وقاسم العقباني (ت 854 هـ)، ومحمد بن أحمد بن قاسم العقباني (ت 871 هـ)، وابن زاغو المغراوي (ت 845 هـ)، ومحمد بن العباس (ت 871 هـ)، والإمام محمد بن يوسف السنوسي (ت 895 هـ)، وابن عبد الجليل التنسي (ت 899 هـ)، وأحمد بن زكري (ت 900 هـ)، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909 هـ)، وأحمد اليبدري (ت 930 هـ)، وعلي بن أحمد بن الفحام، ومحمد ابن الحباك (ت 867 هـ)، وعلي بن محمد البسطي القلصادي (ت 891 هـ)، وغيرهم.

إن هذه القائمة الصغيرة جداً، لبعض أعلام مدينة تلمسان، وعلمائها الأجلاء في عصورها الإسلامية الزاهرة، تكفي دليلاً على مدى النهضة والرقي الذين بلغتهما الحضارة الإسلامية بتلمسان خاصة والجزائر، وكل المغرب الأوسط بصورة عامة.

ومن الطريف أن نذكر هنا أن الكثير من هؤلاء العلماء الأجلاء لم تكن تعيقهم الحدود والحواجز السياسية، ولم يكونوا يخافون أو يرهبون من الأمراء والملوك والسلاطين، بل إن الأمر بالمعروف والنهي عن النكر هو شعار أغلبهم، وكانوا بحق علماء عالميين يتنقلون بين مختلف العواصم الإسلامية للتعليم، والتدريس، والوعظ، والإرشاد والتأليف، ولنصح الملوك والأمراء والسلاطين، ولا يتحرجون من زجر أي سلطان وترك خدمته والانتقال لخدمة سلطان آخر في بلد آخر، وأبرز مثل على ذلك: ابن مرزوق الجد، وعبد الرحمن بن خلدون، ولسان الدين بن الخطيب، وأبو زيد عبد الرحمن بن الإمام، وأخوه أبو موسى عيسى، وأبو مدين بن شعيب الغوث، وأبو عبدالله محمد الشريف، وعبد الكريم المغيلي، وأحمد المقري.

كما شهدت وهران، ومعسكر، ازدهاراً فكرياً وثقافياً، واكب مسيرتهما الطويلة عبر التاريخ، وشب وعاش بها عدد كبير من رجال الفكر، والأدب، والتاريخ، والشريعة، ذاع صيتهم في أصقاع المغرب والمشرق، وشارك الكثير منهم في إثراء الحضارة المغاربية العربية الإسلامية مشرقاً ومغرباً، ومن أبرزهم: ابن محرز الوهراني، والهواري، والتازي، وأبوراس الناصر، وعلماء المشارف، وآخرون، نستعرض فيما يلي سيرهم وأخبارهم.

وبعد إقامة قصيرة في مدينة سبتة، اتجه أبو مدين إلى مدينة مراكش بصحبة جمع من المسافرين الأندلسيين الذين اعتبروه كمجند لديهم واستغلوا عطاءه المادي لصالحهم، فتألم من ذلك، ولكنه صبر حتى يصل إلى مبتغاه، وأخذ بمراكش يبحث عن أندية العلم والعلماء، ونصحه الذين سألهم أن يتجه إلى مدينة فاس التي كانت آنذاك في القرن السادس الهجري والثالث عشر الميلادي، تعج بالحياة الاقتصادية الناهضة، والمتطورة، وبالازدهار الفكري، والثقافي، والعمراني، والاجتماعي.

اتجه أبو مدين إلى مدينة فاس كما أشير عليه، وأخذ يبحث ويسأل عن مجالس العلماء والذاكرين، وحلقات الشيوخ والوعاظ والمرشدين لكي يروي عطشه الفكري، ويزود عقله بالعلم والمعرفة، ظاهراً وباطناً، وصار يتنقل من حلقة إلى أخرى ومن شيخ إلى آخر، ومن عالم إلى غيره حتى عثر على بغيته، وحكى بنفسه قصة ذلك عندما قال: «سرت إليها (فاس) ولازمت جامعها، ورغبت من علمني أحكام الوضوء والصلاة، ثم سألت عن مجالس العلماء، فسرت إليها مجلساً بعد مجلس، وأنا لا يثبت في قلبي شيء مما أسمعه من المدرسين إلى أن جلست إلى شيخ كلما تكلم بكلام ثبت في قلبي وحفظته.

وهذا الشيخ الذي جلس إليه أبو مدين وتأثره به، وأثر في حياته، ومستقبله العلمي، والفكري، هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبدالله بن حرزهم (أو حرازم كما يسمى بالدارجة) وهو عالم زاهد متقشف، درس على عمه أبي محمد صالح بن حرزهم، الذي تعرف على الإمام أبي حامد الغزالي بالمشرق، وعلى أبي الفضل يوسف بن محمد الحمادي بن النحوي دفين قلعة بني حماد، الذي عارض فقهاء المغرب الذين أشاروا على الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، بأن يحرق كتاب إحياء علوم الدين للغزالي بدعوى أنه يحتوي على بدع المتكلمين وضلالاتهم، ويحمل أفكاراً تناقض الفقهاء، وتدعوا إلى شتمهم، وتنفير الناس عنهم، وأفتى هؤلاء الفقهاء بتحريم قراءته وتداوله بين الناس. وقد سار على هذا الرأي ابن حرزهم، وخالفه تلميذه أبو مدين شعيب هذا.

وبمجرد أن اختفى علي بن يوسف، وانهارت دولة المرابطين، وقامت على أنقاضها دولة الموحدين، عاد كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، إلى الظهور والتداول لدى كل الأسر، وفي كل ربوع بلاد المغرب والأندلس، ومن يومئذ شاعت مقولة «بع اللحية واشتر الإحياء» وما تزال شائعة حتى اليوم بالمغرب الأقصى على ما قيل.

لازم أبو مدين شعيب، شيخه ابن حرزهم، مدة من الزمن في فـاس، وانكب على تحصيل العلوم والمعارف منه في أوقات دروسه وفي نفس الوقت أخذ يعمل نساخاً للكتاب لدى النساخين حتى يحصل على ما يعيل به نفسه ويقيم أوده، ويصلح شؤونه المادية.

وبعد وفاة ابن حرزهم الـذي دفن قرب عين سيدي حرازم بفاس، لازم العالم الفقيه المجاهد أبا الحسن بن غالب، وانكب على الدراسة لديه مدة من الزمن، وسمع منه وأتقن سنن الترمذي ودرس عليه عدة علوم أخرى، وتوفي هذا العالم عام 592 هـ (1196 م) ودفن بمدينة القصر الكبير (قصر كتامة)، قرب موقع معركة وادي المخازن.

وبعد أن تزود أبو مدين شعيب، بعلوم الظاهر وملأ وطابه منها، اشرأبت نفسه لتلقى علوم الباطن أو فن التصوف، فسمع بالشيخ الزاهد المتصوف أبي يعزى يلنورين ميمون التلمساني الأصل في جبل إيروڤان قرب قرية تاغية بعيداً عن فاس فذهب إليه، وأخذ يتردد عليه الأيام والليالي. وهو أي أبو يعزى تلميذ للشيخ مولاي أبي شعيب السارية مؤسس رباط أزمور.

وقد تأثر أبو مدين شعيب كثيراً بالإمام الغزالي، والشيخ أبي يعزى في ميدان التصوف، وقال «طالعت أخبار الصالحين من زمن أويس القرني، إلى زمننا هذا، فما رأيت أعجب من أبي يعزى، وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالإحياء للغزالي».

ونتيجة لهذا التأثر، وهذا الإعجاب، أخذ أبو مدين يتردد على الشيخ أبي يعزي في خلوته بتاغيه، ويبقى عنده الأيام والليالي، فعمل الشيخ على امتحانه

وبمجرد أن اختفى علي بن يوسف، وانهارت دولة المرابطين، وقامت على أنقاضها دولة الموحدين، عاد كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، إلى الظهور والتداول لدى كل الأسر، وفي كل ربوع بلاد المغرب والأندلس، ومن يومئذ شاعت مقولة «بع اللحية واشتر الإحياء» وما تزال شائعة حتى اليوم بالمغرب الأقصى على ما قيل.

لازم أبو مدين شعيب، شيخه ابن حرزهم، مدة من الزمن في فـاس، وانكب على تحصيل العلوم والمعارف منه في أوقات دروسه وفي نفس الوقت أخذ يعمل نساخاً للكتاب لدى النساخين حتى يحصل على ما يعيل به نفسه ويقيم أوده، ويصلح شؤونه المادية.

وبعد وفاة ابن حرزهم الـذي دفن قرب عين سيدي حرازم بفاس، لازم العالم الفقيه المجاهد أبا الحسن بن غالب، وانكب على الدراسة لديه مدة من الزمن، وسمع منه وأتقن سنن الترمذي ودرس عليه عدة علوم أخرى، وتوفي هذا العالم عام 592 هـ (1196 م) ودفن بمدينة القصر الكبير (قصر كتامة)، قرب موقع معركة وادي المخازن.

وبعد أن تزود أبو مدين شعيب، بعلوم الظاهر وملأ وطابه منها، اشرأبت نفسه لتلقى علوم الباطن أو فن التصوف، فسمع بالشيخ الزاهد المتصوف أبي يعزى يلنورين ميمون التلمساني الأصل في جبل إيروڤان قرب قرية تاغية بعيداً عن فاس فذهب إليه، وأخذ يتردد عليه الأيام والليالي. وهو أي أبو يعزى تلميذ للشيخ مولاي أبي شعيب السارية مؤسس رباط أزمور.

وقد تأثر أبو مدين شعيب كثيراً بالإمام الغزالي، والشيخ أبي يعزى في ميدان التصوف، وقال «طالعت أخبار الصالحين من زمن أويس القرني، إلى زمننا هذا، فما رأيت أعجب من أبي يعزى، وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالإحياء للغزالي».

ونتيجة لهذا التأثر، وهذا الإعجاب، أخذ أبو مدين يتردد على الشيخ أبي يعزي في خلوته بتاغيه، ويبقى عنده الأيام والليالي، فعمل الشيخ على امتحانه

واختار صبره وإيمانه بوسائل شتى ومتنوعة أحياناً بالإعراض عنه ومقاطعته وعدم مكالمته، وأحياناً بحرمانه من الطعام وتركه للجوع عدة أيام، وأحياناً بإرساله إلى أماكن بعيدة فيها أسود كاشرة أنيابها، ولصوص متوثبون للسطو والاعتداء.

ولكن أبا مدين صبر لكل هذا، وصابر، وفاز في الأخير برضى شيخه أبي يعزى، وبسره الصوفي، فباركه وورثه علمه الروحي.

أبو مدين شعيب يرحل إلى المشرق:

بعد إقامة طويلة بفاس لطلب العلم والمعرفة، وبعد أن تحصل أبو مدين شعيب على مايريده من علوم الظاهر والباطن من شيوخه الأجلاء أمثال: ابن حرزهم، وابن غالب، وأبي يعزى، وأبي عبدالله الدقاق السجلماسي الأصل، تاقت نفسه لأداء فريضة الحج، وزيارة بيت الله الحرام وقبر الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وللاتصال بكبار العلماء والفضلاء ذوي الشهرة والمكانة في ذلك الوقت، فاتصل بشيخه أبي يعزى، واستأذنه في ذلك، فسرحه، وغادر المغرب إلى المشرق في تاريخ غير معروف ولم تحدثنا المصادر عنه، وافترض البعض أنه كان بين عام 550 و555 هـ (1155 ـ 1160 م)، كما لم تحدثنا المصادر عن الوسيلة التي سافر بها براً أو بحراً، وعن المدن والبلدان التي مر بها في طريقه إلى المشرق ولا شك أنه مرّ بالجزائر، وتونس، وليبيا، ومصر.

وعندما وصل إلى الحجاز التقى بالشيخ أبي صالح عبد القادر الجيلاني (أو الكيلاني) بجبل عرفات، وتعرف عليه، ولازمه بعض الوقت في الحرم الشريف بمكة، ودرس عنه علم الحديث، وعلم التصوف، وتحصل منه على خرقة الصوفية، وعلى الأسرار الصوفية وسر كثيراً لذلك، وافتخر بصحبته لهذا الشيخ واعتبره أفضل وأعظم مشايخه الأكابر.

وقد شحت المصادر علينا، ولم تحدثنا حول إقامة أبي مدين بالمشرق كما لم تحدثنا عن اتصالاته، وتنقلاته التي لا نشك أنها كثيرة، ومتنوعة، سمحت له بالحصول على أسرار طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني، وعلى علوم ومعارف أخرى ثقافية واجتماعية، وسياسية.

العودة إلى بجاية:

ويعد هذه الرحلة الطويلة إلى المشرق التي دامت أكثر من عقدين من الزمن، قفل أبو مدين شعيب راجعاً إلى ديار المغرب العربي الإسلامي، ومر بمدينة بجاية واستقر بها، وتزوج بامرأة حبشية، لا ندري من جاء بها إلى هناك، وأنجبت له ولداً، وتصدى للتدريس والتعلم بها، وأقبل عليه طلبة العلم من كل صوب وحدب، وكانت بجاية في هذا العهد من القرن السادس الهجري تعج بالنشاط الاقتصادي الفلاحي، وبالتجارة البرية والبحرية، والبحبحة الاقتصادية، والازدهار الثقافي، والنهضة الفكرية، والتطور العمراني، والاجتماعي. يفد إليها الشيوخ والعلماء، وطلاب العلم والمعرفة، ومن ضمن من درس على أبي مدين بها: محيي الدين بن عربي دفين دمشق الذي وفد من الأندلس ليدرس عليه عام 590 هـ (1193 م)، والفقيه أبو عبدالله محمد بن حماد الصنهاجي القلعي، وأبو عبد الحق عبد الرحمن الأشبيلي، والشيخ أبو علي المسيلي، الملقب بأبي حامد الصغير، وعبد السلام بن مشيش، ومن الكتب التي كان أبو مدين يدرسها لطلبته في بجاية: الرسالة القشيرية في التصوف للشيخ أبي القاسم عبد الكريم القشيري (ت 462 هـ)، والمقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى لأبي حامد الغزالي.

وقد قضى أبو مدين شعيب أكثر من عقد ونصف في بجاية انكب خلالها على التربية والتعليم والإقراء، والوعظ والإرشاد، والعبادة، وأعجبته المدينة وحلاله المقام بها، وتخرج عليه عدد كبير من العلماء الأجلاء، وطلبة العلم النجباء والفضلاء، وورّث طريقته الصوفية القادرية إلى تلميذه عبد السلام بن مشيش شيخ شيوخ الطريقة الشاذلية وعلى رأسهم أبو الحسن الشاذلي دفين مقبرة الجلاز بمدينة تونس الذي انتشرت طريقته في كل أصقاع بلدان المغرب العربي وغرب إفريقيا، وقد قيل أنه تخرج عليه ألف شيخ وعالم.

رحيل أبي مدين إلى تلمسان ووفاته بها:

لقد نال أبو مدين شعيب شهرة واسعة في بجاية تخطت بلاد المغرب إلى

المشرق، وبلاد الأندلس، وذلك بفضل علمه الواسع وتقواه، وجهوده المباركة الواسعة في التربية والتعليم والتكوين والوعظ والإرشاد، والإقراء، وكثر زواره والوافدون عليه من الآفاق البعيدة طلباً للعلم، فأثار ذلك حقد وحسد بعض علماء الظاهر ومنهم الشيخ أبو عمر الحباك الذي وشى به إلى السلطان يعقوب المنصور الموحدي، وقال له: «إنا نخاف منه على دولتكم، فإن له شبهاً بالمهدي وأتباعه كثيرون في كل بلد». فتأثر المنصور بهذه الوشاية ونالت منه، فقرر أن يحقق مع أبي مدين بصفة شخصية وبعث إلى أمير بجاية وطلب منه أن يشخصه إليه معززاً مكرماً، وحرس على ألا يلحقه أي أذى.

وعندما علم أصحابه وتلاميذه بالخبر شق عليهم فراقه وتخوفوا من سوء مصيره، فطمأنهم أبو مدين وقال لهم: «إن منيتي قريبة ولغير هذا المكان قدرت، فبعث الله من يحملني إليه برفق، وأنا لا أرى السلطـان، ولا يراني» فطابت نفوسهم، وذهب عنهم الخوف وارتحلوا به إلى أن وصلوا إلى ضواحي العباد بتلمسان فقال لهم ما أصلحه للرقاد ولما وصلوا إلى وادي يسر اشتد عليه المرض فأنزلوه على دابته، وتوفي، فحملوه إلى العباد ودفنوه هناك عام 594 هـ (1197 م).

ومن يومئذ اشتهرت مدينة تلمسان به، وأصبح اسمه مقروناً بها وبالعباد كلما ذكر على أي لسان، وفي أي عصر حتى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد مرت على وفاته الآن أكثر من سبعة قرون ولكن قبره ومسجده بالعباد، ما يزالان محط الرعاية والاحترام، كما يزال يذكر بفاس بعين سيدي بومدين قرب مسجد حي الرميلة بجانب قنطرة بين المدن، الذي كان إلى عهد قريب يجتمع فيه المهاجرون التلمسانيون لإحياء ليلة المولد النبوي الشريف أو لحل مشاكلهم المستجدة.

ويوجد بمقصورة هذا المسجد تجاه خلوة أبي مدين قبر شيخه أبي يعزى التلمساني.

ولا يزال أبو مدين يذكر بتونس كذلك بواسطة جماعة زاوية سيدي بومدين، وهي جماعة الشيخ المختار الكسراوي التي تجتمع للذكر، وتلاوة البدرية، والهمزية ودلائل الخيرات.

ولأهمية ماضي أبي مدين العلمي والثقافي، وضريحه ومسجده اهتمت الدولة الجزائرية به وقررت أن يتخذ العباد كمجمع ثقافي هام على أن تجري عليه إصلاحات وترميمات تليق بماضيه الفكري والثقافي، وبهندسته المعمارية الإسلامية الجميلة. وهو عمل محمود سيساعد على إبراز وجه تلمسان الحضاري الهائل، وعلى دور الجزائر الرائد في إثراء وتنمية وتطوير الحضارة الإسلامية في ربوع هذه البلاد وكل العالم الإسلامي الطويل والعريض[1].

علماء أسرة أبناء الإمام البرشكية التلمسانية

(683 ـ 845 هـ=1284 ـ 1441 م)

كان الإمام أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن الإمام البرشكيّ التلمساني يقطن مدينة برشك الساحلية بين مدينتي شرشال وتنس غرب مدينة الجزائر، وتولى هناك منصب إمام وواعظ في أحد مساجدها[2].

وعندما استبد زيري بن حماد المكلاتي الملقب بزيرم ببرشك هذه نكب بالإمام محمد بن عبدالله وقتله بعد أن اتهمه بإخفاء وديعة مالية لأحد خصومه

---

(1) انظر مقال: عبد القادر الخلادي: أبو مدين الغوث دفين تلمسان. (520 ـ 594 هـ ـ 1126 ـ 1197 م) مجلة الأصالة. عدد 26. (الجزائر ـ جويلية، أوت 1975 م) ص 284 ـ 295 م.

(2) ممن ترجم لأبناء الإمام: التعريف لابن خلدون ص 22 ـ 47، ابن فرحون: الديباج المذهب ص 152. أحمد بابا: نيل الابتهاج ص 166 ـ 193. ابن القاضي: درة الحجال جـ 2 ص 408. الحفناوي جـ 2 ص 201 ـ 213 و301 ـ 307، الحلل السندسية ص 832 ـ 835. نظم الدر والعقيان ورقة 55. بغية الرواد جـ 1 ص 130 ـ 131. ابن مريم ص 63 ـ 64 و123 ـ 129 و220 ـ 221 عبد الرحمن الجيلالي تاريخ الجزائر العام جـ 2 ص 164 ـ 167. وكذلك:

BARGÉS: Complement. P: 56-66 et TELEMCEN, p. 327.

وأعدائه، ورفض أن يعترف له بما وجد له عليها، وتم ذلك عام 683 هـ (1284 م).

وكان للإمام محمد بن عبدالله هذا ولدان اثنان هما: أبو زيد عبد الرحمن، وهو الأكبر، وأبو موسى عيسى، اللذان ولدا ببرشك في تاريخ لم تذكره لنا المصادر، واشتهرا بلقب (ابني الإمام) لأن أباهما كان إماماً ببرشك كما ذكرنا، وارتبط اسمهما بتلمسان كما سنرى.

رحلتهما إلى تونس وفاس:

وقد تخوف هذان الأخوان على مصيرهما بعد أن قتل زيرم أباهما فرحلا إلى تونس في نهاية المائة السابعة للهجرة 700 هـ (1301 م)، واجتمعا هناك بعدد من علمائها الأجلاء من جيل القرن السابع، ودرسا على البعض منهم أمثال: ابن العطار، وابن جماعة، والمرجاني، واليفريني، وتفقها على تلاميذ ابن زيتون، وأصحاب أبي عبدالله بن شعيب الدكالي، وقضيا هناك مدة من الزمن غير طويلة ثم قفلا راجعين إلى الجزائر، وتلمسان، وفاس، في مطلع المائة الثامنة للهجرة 701 هـ (1302 م) وانكبابها على الدراسة في حلقات علمائها الأجلاء أمثال: الشيخ السبطي، والشيخ الطنجي، وغيرهما وقضيا جل وقتهما في المطالعة والدراسة، والتحصيل.

ومن فاس عادا إلى بلدتهما برشك، ولكنهما عجزا عن الدخول إليها بسبب استمرار استبداد زيرم بها، فواصلا سيرهما إلى مدينة الجزائر واستقرا بها مدة من الزمن، وتصديا للتعليم، والتدريس، والإقراء، والوعظ والإرشاد، ونالا سمعة كبيرة في أوساط العلماء، وطلاب العلم والمعرفة بفضل نشاطهما ونبوغهما في العلوم والمعارف.

وعندما هاجم السلطان المريني أبو يعقوب يوسف مدينة تلمسان، وفرض عليها ذلك الحصار الطويل، غادر الأخوان مدينة الجزائر وتوجها إلى مدينة مليانة عاصمة المغراويين، والتقيا هناك بالكاتب منديل بن محمد الكناني، ضابط جباية بني مرين، فأدرك فضلهما وعلو منزلتهما، وقربهما إليه وكلفهما

بتعليم ابنه محمد، وأسند إليهما خطة القضاء بتلك المدينة.

أبو حمو يبني لهما مدرسة خاصة باسمهما في تلمسان

وبعد مقتل السلطان أبي يعقوب يوسف المريني بالمنصورة عام 705 هـ (1306 م)، وإبرام الصلح بين فاس وتلمسان، وانتهاء ذلك الحصار المرهق والطويل، صحبهما معه منديل الكناني إلى تلمسان، وأثنى عليهما لدى الأمير الزياني أبي حمو موسى الأول، فاستقبلهما، وسر بلقائهما، وقربهما إليه، واتخذهما ضمن رحال خاصته، وبني لهما مدرسة عرفت بلقبهما، بناحية المطهر، داخل باب كشوط، وخصص لهما بها إيوانين للتدريس، والإقراء، وبنى لهما بجوارها منزلين لسكناهما، وأوكل إليهما أمور الشورى والفتوى، وضمهما إلى خاصته من أهل مجلسه وأعيان دولته، فقضيا في عهده حياة رغدة كريمة، وحظيا بالتقدير والإكبار والتعظيم من الجميع خاصة الوجهاء وأهل العلم.

وعندما تمكن أبو حمو موسى الأول من فرض سيطرته على مغراوة بمليانة وحوض الشلف، توجس زيرم المكلاتي منه وخاف على نفسه، فسعى لكسب مودته وعطفه، وأعلن خضوعه له، وتنازل له عن قرية برشك التي كان قد استبد بها والذي كان الواسطة في المفاوضات والاتصالات التي انتهت إلى هذه النتيجة، هو أبو زيد عبد الرحمن ابن الإمام الذي استأذن من أبي حمو أن يسمح له بالانتقام منه لأبيه الذي قتله كما أسلفنا سابقاً، فأذن له ودبر مؤامرة انتهت بقتله عام 708 هـ (1308 م) وألحقت بدولة أبي حمو بتلمسان وشفي أبو زيد، وأخوه أبو موسى، غليلهما، وكان لهما في ذلك القصاص حياة، وزهو.

رحلتهما إلى المشرق

استمر الأخوان ابنا الإمام، في القيام بمهنة التدريس بتلمسان، وفي صحبتهما للأمير أبي حمو الزياني، وملازمته حتى توفي فقربهما إليه من بعده، ابنه وخلفه أبو تاشفين الأول، ورعاهما مثل أبيه، وواصل رعايته وتقديره

وتبجيله لهما حتى رحلا إلى المشرق عام 720 هـ (1320 م) لأداء فريضة الحج، فاجتمعا هناك بكبار العلماء الأجلاء، وأخذا عنهم علومهم ومعارفهم، وعلى رأسهم، الشيخ علاء الدين القونوي الذي أثنى عليهما ومدحهما، وجلال الدين القزويني صاحب التلخيص في البلاغة الذي قال عنهما قولته المشهورة «بمثلهما يفخر المغرب»، والشيخ شرف الدين الزواوي المالكي، الذي أفادهما كذلك بعلومه ومعارفه.

وفي الحجاز سمعا ورويا صحيح البخاري في الحديث عن الشيخ الحجازي، وناظرا شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية وتفوقا عليه، وأفحماه بالحجة والبرهان، وكان ذلك مما ضاعف في محنته في قضية تفسير نزول القرآن على ظاهر لفظه، عندما مثل ذلك بنزوله هو درجة من المنبر الذي كان يتحدث فوقه، وقال كنزولي هذا هكذا.

وعندما ذهبا لزيارة بيت المقدس، زاولا هناك مهنة التدريس واكتسبا سمعة عالية، وأقبل طلاب العلم بكثرة عليهما في حلقات دروسهما للتزود بعلومهما ومعارفهما الواسعة، وعدوهما وحيديي زمانهما، وكان محمد المقري آنذاك هناك، فناله شيء من الغيض والغيرة، ويظهر أنه حدثته نفسه بشيء ضدهما، فنصحه بعض المغاربة الذين كانوا هناك بأن لا يفعل ذلك، وأن ينتسب إليهما إذا سئل، إذا أراد أن لا يفقد قدرهُ واحترامه، لأن الجميع سلموا بعلو قدر الرجلين في العلم والمعرفة والتقى، وقد اعترف المقري بهذه الحكاية، وأوردها ابنه بعده في كتابه نفح الطيب.

عودتهما من المشرق

بعد هذه الرحلة الطويلة إلى بلدان المشرق العربي، عاد الأخوان العالمان ابنا الإمام، إلى تلمسان وجاورا أميرها أبا تاشفين الزياني، وانكبا على التدريس والتعليم في مدرستهما، لطلبة العلم للمتعطشين أمثال: أبي عبدالله الشريف

التلمساني، ومحمد بن مرزوق الجد والخطيب، والمقري، وأبي عثمان العقباني، وأبي عبد الله اليحصبي، والشيخ الآبلي، وغيرهم، فزاد ذلك في رفعة شأنهما وعلو قدرهما ومنزلتهما في معظم أصقاع المغرب الإسلامي.

وبعد مقتل السلطان الزياني أبي تاشفين الأول عام 737 هـ (1337 م) على يد السلطان المريني أبي الحسن، الذي احتل تلمسان، قربهما هذا السلطان إليه، وبالغ هو الآخر في تقديرهما، وتكريمهما، فاتخذهما أعضاء في مجلس علمائه الذين أحاطهم به، وأصبحا بمرور الزمن من أعز الفقهاء وأقربهم إليه، يلقيان الدرس العلمية في حضرته وبمحضر علمائه الأجلاء ولازماه طيلة إقامته بتلمسان.

وعندما عزم على السفر إلى بعض الأقاليم بالمغرب الأقصى لتفقد الأحوال، خرجا معه، ثم سرحهما وأذن لهما بالعودة إلى تلمسان وأسقط عنهما كلفة السفر، تقديراً لهما ولعلمهما، ولجهودهما في التدريس والتعليم وتكوين الطلاب والعلماء.

ولما قتل الأمير أبو مالك، توجه أبو زيد عبد الرحمن إلى فاس لتعزية السلطان أبي الحسن، وتخلف أخوه أبو موسى عيسى، بسبب مرض ألم به.

وعندما اتجه أبو الحسن المريني إلى البرتغال للحرب صحب الأخوان ابنا الإمام معه، مثل ابن مرزوق الخطيب والجد، والشيخ الآبلي، وشهدا معه معركة طريف في جمادي الأولى عام 741 هـ (أكتوبر 1340 م) التي كانت نكبة على الجيش المغربي، وأسر فيها ابن السلطان الأمير أبو عمر تاشفين.

وفاتهما:

وبعد العودة من هذه الحرب بمدة قليلة، توفي العالم أبو زيد عبد الرحمن ابن الإمام في منتصف رمضان 741 (1341 م) ودفن بمسقط رأسه في برشك وبقي أخوه الصغير أبو موسى عيسى ملازماً للسلطان المريني أبي الحسن عدة سنوات أخرى بفاس وتلمسان يواصل جهوده العلمية في التدريس والتعليم وسار

معه في حملته على بلاد تونس عام 748 هـ (1347 م) عبر تلمسان، والجزائر، وبجاية، وقسنطينة.

وعندما تعرض أبو الحسن المريني لنكبته المعروفة حول مدينة القيروان بتونس، بدا على أبي موسى عيسى بن الإمام، العجز، والكبر، وأخذ يفكر كثيراً في مصير أولاده الصغار الذين خلفهم وراءه بتلمسان، ويكثر من ذكرهم لمن حوله، وطلب من السلطان أن يأذن له في العودة والرجوع إليهم، فأذن له، وعاد إلى تلمسان، والتحق بقريته ومسقط رأسه برشك وتوفي بمرض وباء الطاعون في شوال عام 749 هـ (يناير 1349) وخلف من ورائه ابنه أبا محمد عبدالله بن عيسى.

ولم تحدثنا المصادر عن تآليف لهما ما عدا ابن فرحون الذي ذكر أن لهما تصانيف عديدة، دون أن يذكر أسماءها، ويقال إن أبا زيد عبد الرحمن، شرح مختصر ابن الحاجب الفرعي، ولعل سبب ذلك يعود إلى كثرة أسفارهما من جهة، واستنفاد كل أوقاتهما في التعليم والتدريس، والوعظ والإرشاد. وقد اجتمع العلماء، وكتاب التراجم والسير، على أنهما أي ابني الإمام، كانا على درجة عالية، في العلم والثقافة، وسعة الاطلاع، وأفادا بعلومهما أجيالاً لها من الطلاب، والعلماء، في المغرب، والمشرق الإسلاميين، وتخطت سمعتهما أصقاع الجزائر والمغرب، وتونس إلى الأندلس وبلدان المشرق.

أبو الفضل محمد بن الإمام

وقد ذكر ابن خلدون بأن للأخوين ابني الإمام، أعقاباً بتلمسان، وذكر صاحب البستان منهم: الشيخ أبا عبد الحق بن أبي موسى، وأبا سالم إبراهيم بن أبي زيد عبد الرحمن، الذي استقر بفاس، ونال شهرة علمية وله باع في الفتاوى التي نقل منها الونشريسي، والمازوني، الكثير في نوازلهما، وقد توفي بفاس عام 797 هـ (1397 م) ودفن بباب الجيزيين وخلف من ورائه ابنه العالم

الفاضل أبا الفضل محمد الذي ولد بتلمسان وعاصر ابن مرزوق الحفيد العجيسي، والتحق بتونس عام 810 هـ (1408 م).

وأقام بها مدة للدراسة والتحصيل، ثم رحل إلى مصر والقاهرة، ومن هناك ذهب إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج وزيارة بيت الله الحرام، وقبر الرسول عليه الصلاة والسلام.

وبعد الانتهاء من موسم الحج عاد أبو الفضل بن الإمام إلى القاهرة، ومنها سافرا إلى الشام عام 812 هـ (1410 م) وزار بيت المقدس، وانكب على التدريس هناك في مساجدها ومدارسها وفي نفس الوقت اهتم بتوسيع مداركه، وتقاطر عليه الطلاب بكثرة في حلقات دروسه التي أظهر فيها المزيد من المقدرة، والكفاءة، فنال شهرة واسعة، واستفاد منه طلابه كثيراً.

وقد أشاد به الحافظ التنسي، وأورد طرائف من علمه وفضائله، وذكر المقريزي بأنه نادراً ما لا يشارك في علم أو فن من الفنون، وأكد الونشريسي بأنه له قدماً راسخة في البيان، والتصوف والطب، والشعر، وهو أول من أدخل إلى المغرب شامل بهرام وشرح المختصر له، وحواشي التفتزاني على المعتضد، وابن هلال على ابن الحاجب الفرعي، وغيرها من الكتب.

وزيادة على هذا له أبحاث في التفسير تحدث عنها مع المقري في مسائله التفسيرية، ونقل الونشريسي صاحب المعيار بكثرة عنه في نوازله.

ومن الذين درسوا عليه ابن مرزوق الكفيف، ومحمد بن عبد الجليل التنسي، وتقي الدين الشمني صاحب المغني، وأبو الحسن القلصادي، الذي ذكره في رحلته وشهد بسعة علمه وقال إنه فقيه وإمام، وعالم في علوم المعقول، توفي عام 845 هـ (1441 م). وخلف من ورائه ابنه أبا العباس أحمد الذي عاصر ابن مريم صاحب البستان وتتلمذ عليه كما أكد ذلك صاحب البستان نفسه.

الشيخ محمد بن إبراهيم الآبلي التلمساني

(681 ـ 757 هـ=1282 ـ 1356 م)

أصله ونشأته:

هو أبو عبدالله محمد بن إبراهيم الآبلي، ولد بمدينة تلمسان عام 681 هـ (1282 م) وكان أبوه إبراهيم، وعمه أحمد، قد هاجرا من قرية آبلة ببلاد الجوف شمال غرب مقاطعة مجريط (مدريد) بالأندلس، إلى مدينة تلمسان، واشتغلا جنديين في جيش الأمير ياغمراسن الزياني، وعمل إبراهيم، أبو مترجمنا هذا، قائداً لحامية مرفإ هنين شمال مدينة تلمسان وتزوج من ابنة قاضي تلمسان أبي الحسن محمد بن غلبون، وأنجب منها ولده هذا محمد الذي اشتهر بلقب «الآبلي»(1).

نشأ محمد الآبلي في كفالة جده القاضي ابن غلبون الذي حبب إليه العلم والعلماء. وصرفه عن العمل والاشتغال في الجيش كأبيه، فانكب على الدراسة والتحصيل عليه وعلى علماء تلمسان الأجلاء الفضلاء. وأظهر تفوقاً في العلوم

---

(1) عن الآبلي انظر: التعريف بابن خلدون. ص 21 ـ 38. بغية الرواد. جـ 1. ص 120. المسند لابن مرزوق: ص 33 ـ 44. ابن حجر. جـ 3. ص 299. جذوة الاقتباس. ص 144 ـ 192. درة الحجال. جـ 1. ص 283. نفح الطيب. جـ 7. ص 167 ـ 171. نيل الابتهاج. ص 245 ـ 248. البستان. ص 214 ـ 219. الفهرست. جـ 1. قسم 3. ص 616 ـ 621. تعريف الخلف. جـ 1. ص 89 ـ 100. أزهار الرياض. جـ 2. ص 78. أعلام الإعلام. جـ 3. ص 273 ـ 279. عبد الرحمن بدوي. مؤلفات ابن خلدون. ص 256. الجيلالي: جـ 2. ص 167 ـ 169. وكذلك: BARGÉS. Complement. PP. 25-27, 207.

المنقولة والمعقولة، خاصة الفلسفة، والتوحيد، وما وراء الطبيعة، وعلم الحساب، فدرس المنطق وعلم الأصول على أبي موسى عيسى بـن الإمام، وعلم الشريعة على جده القاضي ابن غلبون، ودرس عدة علوم أخرى على أبي الحسن التنسي. وأظهر مقدرة فائقة في فهم العلوم والمعارف التي درسها على هؤلاء الشيوخ.

وعندما غزا أبو يوسف يعقوب المريني مدينة تلمسان وحاصرها، وسيطر على الأقاليم المحيطة بها، ومنها ميناء ومدينة هنين، اعتقل والد مترجمنا هذا إبراهيم ضمن من اعتقلهم، وشاع في تلمسان أن السلطان المريني، يطلق سراح المعتقلين الذين يقدمون أولادهم رهائن، فطلبت أسرة إبراهيم من ابنه محمد أن يذهب ليقدم نفسه رهينة لخلاص أبيه، فذهب إلى عين المكان وتسلق الأسوار حتى دخل على أبيه في معتقله، واكتشف أن الإشاعة غير صحيحة، فعاد من حيث أتى.

وبعد مدة من هذا الحادث طلب السلطان المريني من محمد الآبلي أن يتولى منصب قائد على الجنود الأندلسيين في تاوريرت، فلم يستحسن العرض واختفى في رباط العباد، ولبس الثياب الرثة، وبعض المسوح حتى لا يتعرف عليه أحد من أتباع السلطان المريني، وذلك في وسط عدد من الفقراء والمعوزين.

رحيلة إلى المشرق:

وفي رباط العباد تعرف على رجل غريب من أهل كربلاء بالعراق قدم خفية إلى المغرب للقيام بالدعوة لصالحه باعتباره من ذرية سيدنا الحسين بـن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وكان هذا الريس الكربلائي الغريب مغفلاً، وليس صاحب عزيمة، كما قال ابن خلدون، ففشل فيما قدم إليه، خاصة بعد أن شاهد السلطان المريني يحاصر تلمسان، ويغزو أطرافها وأحوازها، وعزم على العودة إلى بلاده بالمشرق ورأى محمد الآبلي الفرصة مناسبة له ليصاحبه إلى المشرق ويؤدي فريضة الحج.

فداخله في الأمر واتفقا على الرحيل معاً، واتجها إلى بلاد تونس عن طريق البر، ومن هناك ركبا السفينة إلى مدينة الاسكندرية بمصر 699 هـ (1300 م)، وخلال الرحلة في البحر تعرض لمرض سماه ابن خلدون بمرض الغلمة، اشتد عليه، وأكثر من الاغتسال، حتى تحرج من ذلك الشيخ الكربلائي، فأشار عليه بعض الرفاق بأن يشرب الكافور، ففعل وعندما وصل إلى بلاد مصر لازمه ذلك المرض فلم يستطع أن يتفرغ للتدريس واكتفى بالتعرف على الشيوخ والعلماء المشهورين أمثال، تقي الدين ابن دقيق العيد، وابن الرفعة، وصفي الدين الهندي، والتبريزي، وغيرهم من فرسان المعقول والمنقول.

عودته إلى تلمسان:

وبعد ذلك غادر مصر بصحبة ذلك الرئيس إلى الحجاز وأدى فريضة الحج، وسار معه إلى بلاد العراق، وزار كربلاء موطن ذلك الريس وبقي عنده فترة من الوقت، ثم عزم على العودة إلى تلمسان، فكلف ذلك الرئيس من رافقه في عودته حتى أوصلوه إلى بلاد زواوة آمناً مطمئناً كما ذكر ابن خلدون وسلموا له دنانيره التي أخذها معه في رحلته إلى المشرق وأخذها منه الرئيس الكربلائي وحفظها له، بدل أن ينفقها، وكلف مرافقيه أن يتسلموا منه وصلاً يثبت لديه تسلمه إياها بعد عودتهم، وهذا يدل على أن محمد الآبلي احتل منزلة رفيعة لدى هذا الكربلائي ولا شك أن ذلك كان بسبب سعة علمه، وعلو قدره وأخلاقه الفاضلة، وسلوكه الحسن.

ومن بلاد زواوة أخذ محمد الآبلي طريقه إلى تلمسان التي كان يحكمها في هذه الفترة الأمير الزياني أبو حمو موسى الأول، فانتشرت أخباره بها، وسمع الأمير الزياني بمقدمه، وتفوقه في علوم الحساب، فدعاه إليه وعرض عليه وظيفة محاسب لضبط أموال خزينة الدولة فلم يستحسن العرض وحاول أن يعتذر، فأرغمه على العمل في قيادة بني راشد من كور بلده.

فراره إلى فارس ومراكش:

ولما لم يكن على استعداد للعمل في هذه الوظيفة فر إلى مدينة فاس،

واختفى لدى العالم اليهودي خليفة المغيلي الذي اشتهر بتفوقه في علوم الحكمة، ودرس عليه علومه تلك واستكملها وأتقنها، ثم غادر فاس إلى مراكش عام 710 هـ (1310 م) واتصل هناك بالإمام العلامة أبي العباس أحمد بن البناء، ولازمه مدة من الزمن، ودرس عليه علوماً كثيرة ومتنوعة في المعقول والمنقول، والتصوف، وأخذ عليه مقامه في التصوف.

وعندما استغنى من علوم ابن البناء استدعاه إليخ شيخ الهساكرة علي بن محمد بن تاروميت، بهسكورة، ليدرس عليه، ويتزود من معارفه فذهب إليه وبقي عنده مدة من الوقت تصدى للتدريس، والتعليم، واجتمع حوله عدد كبير من طلاب العلم والمعرفة، واستفادوا منه كثيراً وبجلوه وعظموه، وأكبروه، وشكره أستاذه ابن البناء على جهوده تلك في التعليم والإقراء بهكسورة.

وعندما استدعى السلطان المريني أحمد بـن البناء إلى فارس ليستقر بها، أخذ معه الآبلي إليها، فتصدى للتدريس والتعليم، وتفرغ للإقراء، وارتفعت سمعته، وذاع صيته أكثر، وأجمع الناس على تلقيه بعالم الدنيا، وأعلم خلق الله في فنون المعقول والمنقول وسلموا بأمانته.

عودته إلى تلمسان:

وعندما غزا السلطان المريني أبو الحسن مدينة تلمسان واحتلها في رمضان عام 737 هـ (إبريل 1337 م)، حدثه العلامة أبو موسى عيسى بـن الإمام، عن مترجمنا هذا الشيخ محمد بن إبراهيم الآبلي، وأشاد بفضله ونبوغه في العلوم والمعارف، وكان هذا السلطان يحب العلماء، ويجلهم، ويقربهم منه، فاستقدمه من فاس، وضمه إلى مجلس علمائه الذين أحاطهم به، فعكف على تدريس العلوم العقلية، وأبدى استعداده لخدمة السلطان، والتف حوله عدد كبير من طلبة العلم، والعلماء، والأكابر، يدرسون عليه ويستفيدون من علومه ومعارفه العقلية والنقلية. وعندما قرر السلطان المريني أبو الحسن أن يقوم بحملته العسكرية على البرتغال بالأندلس، صحبه معه مثل ابن مرزوق الخطيب، وابني الإمام، وشهد معهم نكبة معركة طريف في جمادى الأولى 471 هـ (أكتوبر 1340 م)، وما أنجز عنها من أسر ابن السلطان.

رحيله مع أبي الحسن المريني إلى تونس:

وعندما عزم السلطان أبو الحسن على غزو تونس عام 748 هـ (1347 م) صحبه معه كذلك مع عدد آخر من العلماء الأجلاء كعادته، وشهد معه نكبة القيروان كذلك في العام الموالي، ورحل معه إلى مدينة تونس، ولازمه طيلة المدة التي بقي بها، ثم لما عزم السلطان على مغادرة تونس بعد أن بلغته أخبار ثورة ابنه أبي عنان ضده، أظهر للسلطان عدم رغبته في السفر، وساعده في رغبته محمد بن خلدون والد عبد الرحمن بن خلدون، وأوضح للسلطان بأنه لا يستطيع السفر معه، وكان يرغب هو الآخر في إبقائه إلى جانبه ليستفيد منه طلبة العلم، ومنهم ابنه عبد الرحمن بن خلدون.

وقد تعرف محمد الآبلي على علماء تونس وكبرائها، وتصدى للتعليم والتدريس، والتف حوله جموع الطلبة ومنهم الفقيه أبو عبدالله بن عرفة، وعبد الرحمن بن خلدون الذي أشاد بفضله عليه، وبعلمه، وخصاله، وقال بأنه درس عليه العلوم العقلية، والمنطق، وسائر الفنون الحكمية والتعليمية، ولازمه طيلة وجوده بتونس وشهد له بالتفوق في كل ما درسه وتعلمه منه، وذكر أن الجميع كانوا يجلونه ويشيدون به وبقدره، وأكد أنه كان من ضمن من ثبطه على عدم السفر مع السلطان أبي الحسن وكان في ذلك نجاته، لأن معظم العلماء الذين سافروا معه غرقوا أمام مدينة بجاية عندما هبت عاصفة بحرية عليهم وداهمت مراكبهم.

عودته إلى تلمسان:

وقد بقي الآبلي بتونس بعض الوقت إلى أن طلبه السلطان أبو عنان المريني من صاحب تونس وأميرها، فأشخصه إليه مع صاحب أسطوله الذي حضر إلى تونس لنفس الغرض وغيره، وعندما وصل إلى بجاية نزل بها واقترح عليه رجال العلم أن يدرس لهم مختصر ابن الحاجب، وأيد طلبهم صاحب الأسطول الذي يجله فامتثل رغبتهم، ودرسه لهم في ظرف شهر من الزمن.

وبعد ذلك رحل مع صاحب الأسطول إلى ميناء هنين، ومن هناك التحق

بمدينة تلمسان برّاً واتصل بأبي عنان الذي كان آنذاك هناك، فنظمه في مجلس علمائه على غرار أبيه، واتخذه لنفسه شيخاً وأستاذاً، وتصدى للدراسة عليه وأخذ عنه عدة علوم ومعارف لغوية وحكمية، عقلية ونقلية والتفّ حوله في حلقه دروسه عدد آخر من العلماء الأجلاء على رأسهم عبد الرحمن بن خلدون، وأخوه أبو زكرياء يحيى، وابن الصباغ المكناسي، والشريف التلمساني، والشريف الرهوني، وابن مرزوق الخطيب الجد، وأبو عثمان العقباني، وابن عرفة التونسي، والولي بن عباد، والمقري، وغيرهم وهم كثيرون جداً، وأشادوا به جميعاً، فقال عنه ابن مرزوق الجد: بأنه شيخ المغرب في العلوم العقلية وإمام وقته، وقال عنه عبد الرحمن بن خلدون: إني لا أعرف بالمغرب وإفريقيا فقيهاً كبيراً إلا وله عليه مشيخه.

ورغم سعة علم محمد الآبلي، وكثرة نشاطه في التعليم وكثافة جهوده في هذا الميدان، إلا أنه لم يكتب ولم يؤلف، ولم يخلف لنا آثاراً علمية مكتوبة له، ولم تحدثنا المصادر عن شيء من ذلك، بل على العكس ذكرت أنه لا يميل إلى الكتابة والتأليف، ونقلت عنه قوله: «إنما أفسد العلم كثرة التآليف وأذهبه بنيان المدارس»، وهو رأي غريب إن صح منه وثبت.

رأي الآبلي في التأليف والمسلمين وملوكهم:

وقد تأسف الآبلي على كثرة انقسام المسلمين على أنفسهم في عهده واختلاف كلمتهم، مما أدى إلى ضعفهم، وتشتتهم، وتسلط الأعداء النصارى على كثير من بلدانهم خاصة بالأندلس، وأُثِرَ عنه في هذا الميدان قوله: «لولا انقطاع الوحي لنزل فينا أكثر مما نزل في حق بني إسرائيل لأننا أتينا أكثر مما أوتو» وهو يشير بذلك إلى افتراق كلمة المسلمين على أكثر مما نزل في حق بني إسرائيل.

وقد أخذ الآبلي المسلمين على تعدد ملوكهم، وتغلب الهوى عليهم، واندراس معالم التقوى فيما بينهم، كما آخذهم على تحريف وتبديل كلام الله تعالى بتأويله تأويلاً خاطئاً على حسب هوى كل واحد منهم.

فإذا كان هذا هو الحال في عهد الآبلي في القرنين السابع والثامن الهجريين (13 و14 م) فكيف الحال في عصرنا هذا بالقرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين (19 و20 م) الذي تبدلت فيه كل الأمور والأوضاع، وتغيرت، وانقلبت رأساً على عقب، وأصبحت الفضيلة والقيم الدينية غريبة لدى أغلب الناس من الجماهير الإسلامية شرقاً وغرباً.

إن شيخاً كون عالماً كعبد الرحمن بن خلدون، لا بد أن يكون عظيماً وجليل القدر، عالي المكانة، وهكذا كان محمد بن إبراهيم الآبلي، وشهد له بذلك علماء عصره، واللاحقون بعد ذلك، فرحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه.

وفاته:

وقد توفي بمدينة فاس في ذي القعدة عام (757 هـ ـ 1356 م) ودفن كما ذكر ابن مرزوق الخطيب، ما بين المدينة البيضاء، وفاس، وحضر السلطان المريني جنازته، وسار في موكبها.

علماء أسرة ابن مرزوق العجيسية التلمسانية
(560 ـ 918 هـ = 1050 ـ 1512 م)

أصل ومنبت الأسرة:

تنتمي عائلة ابن مرزوق إلى قبيلة عجيسة التي كانت تقطن منطقة المسيلة وقلعة بني حماد بجبال المسيلة وإقليم الزاب في شرق منطقة الهضاب العليا الجزائرية الشرقية، والبعض منها كان يقطن جنوب غرب تونس الحالية التي كانت تعرف آنذاك بإفريقيا.

وفي وقت مبكر من صدر الفتح الإسلامي هاجرت هذه العائلة إلى مدينة القيروان واستقرت بها، وقد يكون ذلك خلال عهد الدولة الأغلبية التي كان لها شأن في المنطقة، وفي التاريخ الإسلامي المغاربي.

هجرتهما إلى تلمسان:

وفي نهاية القرنين الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي هاجرت هذه العائلة من القيروان إلى تلمسان بعد أن زحف عرب بني هلال على شمال إفريقيا، واستقرت برباط العباد، وتوارث أفرادها خدمة ضريح أبي مدين شعيب بن الحسين، ورباطه، كقيمين واشتغلوا بالعلم، والتدريس، والثقافة، والدين، وخاض البعض منهم غمار السياسة وكان لهم شأن.

سلسلة أجدادها:

ويعتبر مرزوق الذي تنتمي إليه هذه الأسرة، أول من استقر بتلمسان، بعد أن هاجر إليها من القيروان، وذلك خلال سيطرة اللمتونيين المرابطين، وكان

رجل دين، وفلاح مالك للأرض التي امتلكها بعد أن استقر بالعباد، وسار أولاده على منواله في خدمة الأرض.

واشتهر ابنه أبو بكر بن مرزوق، بإخلاصه وتحمسه لخدمة ضريح أبي مدين شعيب الأندلسي، بالعباد، وعنه توارث أفراد أسرته هذه الوظيفة كقيمين، لهذا الضريح، وذلك الرباط.

وعندما توفي أبو بكر خلف وراءه ابنين هما: محمد الأول ولم يكن له شأن يذكر، وقد يكون مات قبل أبيه.

ومحمد الثاني وخلف أباه كقيم على ضريح أبي مدين بالعباد، ولقبه يحيى بن خلدون وصاحب البستان بالقيرواني، لكون جده كان يعيش بالقيروان قبل هجرته إلى تلمسان أو أنه انتقل إلى القيروان فترة من الوقت في صدر شبابه ثم عاد إلى تلمسان، حفظ محمد هذا القرآن الكريم، ثم تصدى للدراسة على أجلة علماء عصره أمثال: أبي زكرياء ابن العصفور، وأبي إسحاق التنسي وأبي يزيد اليزناسني، وتضلع في الفقه والحديث، ومال إلى حياة الزهد والتبتل، والتصوف، وانقطع على الناس في خلوة خاصة في أخريات أيامه إلى أن توفي في أوائل شهر رجب 681 هـ (1282 م).

ودفن في دار الراحة داخل الجامع الأعظم بجوار القصر القديم بتلمسان، ودفن معه فيما بعد الأمير باغمراسن الزياني تبركاً به وبفضله، وهو الذي يلقب بجد الجد[1].

وعندما توفي محمد (الثاني) هذا خلف من ورائه ابنين هما:

محمد (الثالث) الذي عاش أحداث غزو السلطان المريني أبي الحسن، لتلمسان، فقربه إليه هذا السلطان وأسند إليه الأشراف على ترميم ضريح أبي مدين وبناء مسجد بجواره، وعندما تم بناء هذا المسجد عين فيه من قبل السلطان خطيباً، ومرشداً، ومدرساً، وذلك حوالي 733 هـ (1332 م) وقد أكد

(1) يمكن العودة إلى بارجيس 1516. BARGES: COMPLEMENT وكذلك إلى البستان ص 226، وبغية الرواد جـ 1 ص 114 ـ 115.

ابن مرزوق الخطيب، والجد، في كتابه المسند بأن الجامع الذي أمر السلطان أبو الحسن ببنائه بجوار ضريح أبي مدين بالعباد، أشرف على بنائه عمه هذا محمد (الثالث)، وشاركه هو في ذلك كما سيأتي في ترجمته فيما بعد، وأورد له وصفاً طويلاً في ذلك الكتاب (ص 403 ـ 404) وذكر المقري بأن محمداً (الثالث) هذا كان ما يزال حياً عام 4747 هـ (1346 م) وأنه تتلمذ عليه.

وأحمد الأول الذي ولد يوم 02 من شهر محرم من عام 681 هـ (1282 م) وذلك قبل حوالي سبعة شهور من وفاة أبيه. حفظ القرآن الكريم منذ صغره، واعتكف على الدراسة وتحصيل العلم بكثير من الجد في تلمسان، وفاس، ومال منذ الصغر إلى حياة الزهد والتصوف، ولذلك اغتنم فرصة قيام السلطان المريني أبي يعقوب يوسف بغزو تلمسان وفرض الحصار عليها، فهاجر إلى المشرق، وأقام بمصر مدة، ثم ذهب إلى الحج لأداء فريضة الحج، وهناك قرر أن يجاور الحرمين حتى يموت، وفعلاً استقر هناك حتى توفي عام 741 هـ (1340 م) بمكة ودفن بباب المعلا، ولكن صاحب البستان ذكر أنه دفن في مكان بين المحرج خارج باب الجياد. وهذا الباب، يوجد بتلمسان، وذكرت دائرة المعارف الإسلامية بأنه توفي بمكة، ودفن بباب المعلى وقبره مزار كبير، وهو ما أكده يحيى ابن خلدون، وذلك أصح.

خلف أحمد (الأول) هذا ابنه محمد (الرابع) الذي اشتهر بألقاب: الخطيب، والجد، والرئيس، ولد عام 710 هـ (1310 م) من أمه خديجة بنت أبي الحسن التنسي وتوفي عام 781 هـ (1379 م)، وسيكون له شأن كبير في الفكر، والثقافة، والسياسة.

وعندما توفي خلف من ورائه ابنين اثنين هما محمد (الخامس) ولم يكن له شأن يذكر وتوفي عام 760 هـ (1359 م). وأحمد (الثاني) ولم يكن له شأن يذكر كذلك ما عدا كونه كان عالماً وفقيهاً اهتم بالدراسة والتفقه.

وعندما توفي أحمد (الثاني) هذا، خلف ابنه محمد (السادس) الذي عرف واشتهر بلقب الحفيد، بالنسبة لجده محمد «الرابع» الخطيب والجد، والرئيس،

ولد عام 766 هـ (1364 م) ونال شهرة ومكانة جده واعتبره المترجمون له خاصة المقري في كتابه، نفح الطيب، بأنه أستاذ العلوم العربية الإسلامية في المغرب الإسلامي، وقد توفي عام 842 هـ (1438 م) ودفن بجامع تلمسان وخلف وراءه طفلين هما: محمداً، وحفصة.

أما الابن محمد (السابع) فقد اشتهر بلقب الكفيف، وولد عام 824 هـ (1421 م)، وتوفي عام 901 هـ (1495 م)، وخلف وراءه أحمد (الثالث) الذي عرف بحفيد الحفيد، وتوفي عام 925 هـ (1519 م).

وأما البنت حفصة، فقد خلفت ابناً اسمه محمد (الثامن) الذي توفي عام 918 هـ (1512 م)، وكان آخر حلقة في سلك هذه السلسلة من العلماء المرزوقيين الأجلاء، الذين تفخر بهم تلمسان والجزائر بصفة خاصة، والبلدان المغاربية الأخرى والأندلس، والمشرق.

وقد اشتهر في هذه العائلة بصورة خاصة محمد (الرابع) ابن مرزوق الخطيب، والجد، والرئيس وحفيده أحمد (الثاني) ابن مرزوق الحفيد العجيسي، اللذان بلغا الذروة في العلم والثقافة وكونا أجيالاً من العلماء، وزودا المكتبة العربية الإسلامية بعدد كبير من الكتب العلمية في مختلف فروع الثقافة الإسلامية، وسنفرد لبعض هؤلاء العلماء المرزوقيين دراسات خاصة حسبما يسمح به الوقت، والظروف، وحسبما تفيدنا به المصادر المتعددة، والمتنوعة. التي حاولنا قدر الإمكان تتبعها وتصفحها، ونبدأ بأحمد (الأول) ابن محمد بن مرزوق.

الشيخ أحمد (الأول) ابن محمد بن مرزوق

ميلاده ونشأته:

ولد أبو العباس أحمد (الأول) ابن محمد بن مرزوق ليلة الاثنين الثاني من شهر محرم عام 681 هـ (1282 م)، واعتكف منذ صغره على حفظ القرآن الكريم، على الولي الصالح الشيخ يوسف بن يعقوب بن علي الصنهاجي، وأبي

محمد عبد الواحد المستاري، وعندما كبر درس علوم الفقه الإسلامي على الشيخين الفقيهين، وعلى الإمام ابن هدية، وأبي عبدالله بن عبد الرازق، وابن أبي يحيى، وأبي محمد عبد المهيمن.

وقد ذكر صاحب البستان بأن له صلة قرابة مع أسرة بني علي صاحب قلعة بني حماد، الصنهاجيين، اشتهر أحمد (الأول) بن مرزوق بالزهد، والتقوى، والورع، كما اشتهر بالتضلع في علوم كثيرة، دينية، ولغوية، خاصة الفقه والحديث.

وتصدى للتدريس بالعباد سنوات طويلة، وتخرج عليه عدد كبير من طلبة العلم داخل تلمسان وخارجها.

قصته مع السلطان المريني أبي يعقوب يوسف[1]:

وفي عهده قام السلطان المريني أبو يعقوب يوسف بغزو تلمسان وحصارها ذلك الحصار الطويل من عام 698 هـ إلى عام 705 هـ (1299 ـ 1307 م) فعمل على تقديم العون والمساعدة لأخته وخاله داخل المدينة المحاصرة وذلك بواسطة خادم لأبيه يقوم بربط الصلة بين العباد وتلمسان.

وفي إحدى هذه المرات سقطت رسالة من هذا الخادم وعثر عليها بعض أنصار السلطان المريني مكتوباً عليها في ظهرها: تدفع إلى أحمد بن مرزوق، وبداخلها من خاله إليه، وفيها يخبره خاله بأنه توصل بوعاء السمن الذي أرسله يوم كذا، وبالأشياء الأخرى يوم كذا وكذا قبله وبعده.

وعندما قرئت هذه الرسالة على السلطان غضب غضباً شديداً وقال ماذا نفعل نحن إذن بوجودنا هنا، وكان قد أهدر دم كل من يقدم الإغاثة إلى المحاصرين أو يعلم بها ولا يبلغ عنها، أو يساعد على تبليغها أو يسكت ويغض الطرف عن ذلك.

ولذلك أمر السلطان المريني بإحضار أحمد بن مرزوق إليه من العباد،

(1) انظر البستان ص 27 ـ 30. نفح الطيب ـ جـ 7 ص 165، بغية الرواد ج. ص 115.

فأحضر، وحجز بحجرة داخل القصر كان بها الشيخ ابن حسن يقوم بنسخ القرآن الكريم، فآنس به وتبادل أطراف الحديث معه، وعندما خرج حدث السلطان عنه، كما حدث الفقيه أبا الحسن بن يخلف التنسي شقيق أبي إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي الذي هو جد أحمد بن مرزوق هذا من أمه، فأمر السلطان فقيهه أبا محمد عبدالله بن أبي مدين بأن يذهب إليه ويستفسره عن الرجل صاحب الرسالة التي وجهت إليه، فاتجه إليه ولاطفه، وأخبره برغبة السلطان، فأنكر كل صلة له بصاحب الرسالة، ومحتوياتها فشكره فقيه السلطان، وقال له، أثبت على موقفك هذا، ولا تخف حتى لا يقتل أحد بسببك فأنت ابن الأكرمين وذلك ما فعله مع كل الذين جاؤوه بعد الفقيه ليستفسروه، ويستعلموه عن صاحب الرسالة، رغم تشددهم وتهديدهم له بإلحاق الأذى به.

وعندئذ استدعاه السلطان ليتصل به مباشرة، فقاده إليه وزيره عبدالله القشيري، وعندما أدخل عليه وجد معه الفقيه أبا الحسن بن يخلف التنسي شقيق جده، الذي سبق أن حذر السلطان من النيل منه لأن كل الناس بتلمسان وخارجها يقدرون علمه وفضله.

ولهذا السبب تلطف السلطان معه، ولم يسمعه أية إساءة بل طلب منه الدعاء الصالح، وعرض عليه مساعدة إذا احتاج فرفض مؤكداً له بأنه لا يحتاج لأي شيء مما يدل على عفته وعزة نفسه، فأطلق سراحه بينما كان الناس يظنون أنه سيقطع رأسه.

وعندما خرج من قصر السلطان بعد هذه المقابلة، قال السلطان للفقيه أبي الحسن التنسي، لمثل هذا ينبغي أن تزوج ابنة أخيك أبي إسحاق، فقال له، قد سبق لنا معهم في هذا الحديث فعلاً، فأمره السلطان بالعمل على تنفيذ ذلك بأقصى ما يمكن من السرعة، وتمت الاتصالات في اليوم الثاني لهذا الحادث، بواسطة فقيه السلطان أبي محمد بن أبي مدين، وتمنع شقيق ابن مرزوق محمد (الثالث) في البداية ثم قبل وتحمل السلطان دفع 480 دينار ذهبياً وفرساً، صداقاً

لها، وتم الزواج، والإطعام بعد مقتل السلطان المريني أبي يعقوب يوسف بالمنصورة بسبعة أيام، ورفع الحصار عن سكان مدينة تلمسان، الذين كتب لهم أن يكون لهم حظ في ذلك الطعام واعتبروه تيمناً، وخيراً وبركة.

وقد ساق هذه القصة ابن مريم صاحب كتاب البستان ناقلاً عن مناقب حفيد الحفيد ابن مرزوق، وأوردها بمزيد من التفصيل لم نر له لزوماً هنا، لأن فيها كثيراً من الخلط.

أما ابن مرزوق الخطيب، والجد، فقد ساق القصة في مسنده بكيفية أخرى أكثر وضوحاً وأقل خلطاً.

رحلته إلى المشرق:

بقي أحمد (الأول) بن مرزوق عدة سنوات أخرى بالعباد يواصل نشاطه العلمي والفكري، وفي عام 717 هـ (1317 م) رحل إلى المشرق صحبة محمد (الرابع) ابن أخيه، وأقام بمصر مدة للدراسة، والتدريس، والتعرف على رجال العلم، والعلماء بها، ثم سافر إلى الحجاز وأدى فريضة الحج مع ابن أخيه، ولما وصل إلى المدينة المنورة قرر أن يجاور بها إلى أن يموت وطلب من ابن أخيه محمد (الرابع) بن مرزوق أن يعود إلى تلمسان ليساعد عمه محمد (الثالث) بالعباد، ويؤنس أمه وباقي أفراد أسرته، فامتثل الولد، وغادر المدينة المنورة مع عدد من المغاربة، وذلك في يوم وموقف مشهودين.

وفاته بمكة:

أما أحمد (الأول) المجاور فقد بقي يتردد بين مكة والمدينة إلى أن توفي بمكة في ذي القعدة 741 هـ (1340 م) ودفن بباب المعلا، وقبره معروف، يزار، وهو ما أكده ابن خلدون، أما صاحب البستان فقد ذكر أن قبره معروف ما بين الأسوار خارج باب الجياد، وذلك بتلمسان على ما يبدو، وهو محض خطأ.

الشيخ محمد (الرابع) ابن مرزوق الخطيب والجد، والرئيس

(710 ـ 781 هـ = 1310 ـ 1379 م)

ميلاده ونشأته:

العالم الثاني من علماء أسرة ابن مرزوق، هو أبو عبدالله شمس الدين محمد (الرابع) بن أحمد (الأول) بن محمد (الثاني)، بن محمد (الأول) بن أبي بكر مرزوق الذي اشتهر بألقاب: الخطيب، والجد، والرئيس.

ولد بتلمسان آخر عام 710 هـ (1310 م)، واعتكف على حفظ القرآن الكريم، منذ صغره، وتعلم مبادىء اللغة العربية وآدابها بتلمسان على عادة كل الصغار وأطفال المسلمين[1].

سفره إلى الحجاز:

وفي عام 718 هـ (1318 م) سافر مع والده أحمد (الأول) إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. ومرا على مدينة بجاية وبقيا بها بعض الوقت، اعتكف خلالها الابن على الدراسة والتحصيل، ودرس على الشيخ أبي علي ناصر الدين المشدالي وغيره. ثم واصل سيره مع أبيه إلى المشرق وعمره لا يزيد على ثماني سنوات يوم أن غادر تلمسان.

---

(1) عن ابن مرزوق الخطيب، وعائلة المرازقة. انظر: التعريف بابن خلدون. ص 396 ـ 398. الزركشي. تاريخ الدولتين: ص 96. البستان. ص 184 ـ 190. نيل الابتهاج. ص 267 ـ 270. الديباج المذهب. ص 305 ـ 309. ابن حجر. الدرر الكامنة. جـ 3. ص 360 ـ 362. نفح الطيب. جـ 7. ص 309 ـ 338. جذوة الاقتباس. ص 140 ـ 142. تعريف الخلف. جـ 1. ص 136 ـ 144. الكتاني. فهرست الفهارس. جـ 1. ص 394 ـ 396. الأعلام. جـ 4. ص 26 ـ 37. كحالة. معجم المؤلفين. جـ 9. ص 16 ـ 17. الزركلي. الأعلام. جـ 6. ص 226. محمد حاج صادق. دائرة المعارف الإسلامية. جـ 3. ص 890 ـ 892. بغية الرواد. جـ 1. ص 115، الجيلالي. ص 131 ـ 134. المسند. ص 12 ـ 58. وكذلك:
BROCKELMAN. G.A.L. 11.310. sup. 4.335. A.BEL. L'inscription Arabes de fés. PP. 47- 50. E.LIVI PROVENÇal: Le Musnad Dien Marzuk dans Hespéris. V. 1925. PP. 1-82.

وعندما وصل إلى الحجاز وأدى فريضة الحج مع والده، اعتكف على الدراسة على علماء العصر في ذلك البلد، ثم ترك والده مجاور للحرمين وقام هو بجولة إلى كل من الشام، ومصر، وسمع وروى ودرس على عدد من العلماء الأجلاء، في مكة، والمدينة، وبيت المقدس، وحبرون، والقاهرة ويلبيس، والإسكندرية، وحصل على تبرز، وتفوق في علوم كثيرة كالطب والرواية والخط، وبصورة خاصة في علوم الحديث الذي اعتكف على دراستها على حوالي مائتين وخمسين شيخاً، وألف فيها عدداً لا بأس به من الكتب والدراسات، مما جعله يذكر في إحدى رسائله من السجن خلال إحدى نكباته السياسية بأنه «لا يوجد اليوم من يسند أحاديث الصحاح قراءة وسماعاً، من باب الإسكندرية إلى البرين، والأندلس غيري».

عودته إلى تلمسان:

وبعد حوالي خمسة عشر عاماً من الإقامة، والتجوال والتنقل، ببلدان وعواصم المشرق، للدراسة، والتحصيل، والتعرف على أحوال المسلمين، قرر أبوه أحمد (الأول) أن يجاور بالحرمين، ويقضي بقية حياته إلى أن يموت، وطلب من ابنه أن يعود إلى تلمسان وقال له: «يا بني وفاتي قربت، وأنا قد سألت الله أن أموت غريباً، فلا تفسد علي عملي» وأوصاه أن يمر في طريقه، على الشيخ أبي عبدالله المرشدي بالمنية في مصر ليبلغه سلامه وتحيته.

فامتثل الابن أمر ورغبة أبيه، وودعه في موقف مشهود بجوار قبر الرسول بالمدينة المنورة، وسافر مع عدد من المغاربة الذين قرروا العودة إلى المغرب ومنهم، عثمان بن خرار، والحاج بن أبي يوجان وإبراهيم بن الشنتوف، وعبد الرحمن الأشبيلي، ومسعود القشيري العدوي.

وعندما وصل إلى الإسكندرية ذهب لزيارة الشيخ المرشدي كما أوصاه أبوه، فقدمه لإلقاء خطبة بجامع الإسكندرية، وتهيب، ولكنه امتثل، فأبدع بحسن بيانه وبلاغته، وعمق معارفه، وشكره الشيخ وقال له ستصبح خطيباً، وحمل لقب الخطيب من ذلك اليوم.

وبعد إقامة قصيرة بالإسكندرية واصل طريقه إلى مسقط رأسه، ومر على مدينة طرابلس، ثم اتجه إلى الجريد، ومن هناك صعد شمالاً إلى مدينة تونس، ثم إلى مدينة بجاية، ومدينة الجزائر.

وعندما وصل إلى الشلف، تلقاه عبد الواحد بن محمد كاتب العسري، ومعه رسالة إليه من السلطان المريني أبي الحسن، وعمه محمد (الثالث) خطيب مسجد العباد، يستحثانه على الإسراع بالوصول إلى تلمسان، وأخبره عمه في تلك الرسالة بأنه عين خطيباً في ذلك المسجد بالعباد.

تعيينه خطيباً بمسجد العباد:

وصل محمد بن مرزوق إلى تلمسان يوم 17 رمضان 737 هـ (20 إبريل 1337 م)، ووجد السلطان أبا الحسن ما يزال يحاصرها بجيشه وتمكن من اقتحامها بعد تسعة أيام من ذلك التاريخ، وكان أول شيء قام به في اليوم الثاني لوصوله هو زيارة السلطان ومقابلته في برج الكيس، وبعد ذلك تفرغ لمشاغله الخاصة، وعلاج شؤون عائلته.

وفي ليلة السابع والعشرين من رمضان دعاه السلطان ليحضر الاحتفال بليلة القدر، فاعتذر، وفي صباح اليوم الموالي حضر إليه عمه وقال له بأن السلطان يدعوك إليه حالاً فذهب واستقبله بكل حفاوة وتقدير وعينه خطيباً في مسجد العباد، وهو ما يزال شاباً يافعاً، وضمه إلى مجلس علمائه الكبار الذي كان البعض منهم شيخاً وأستاذاً لوالده، واتخذه معلماً لأولاده وكاتباً لأسراره، وقاضياً للفصل في شكاوى الناس، وسفيراً إلى الملوك والأمراء ومدرساً وواعظاً في المساجد، وقد ذكر أنه ارتقى وخطب على ثمانية وأربعين منبراً، في بلاد شتى من أقصى المغرب ووسطه، وعدوة الأندلس، والزاب، وإفريقيا، فما من قاعدة وحضرة ملك في هذه البلاد إلا وعلا منبرها وأخلص الدعاء لصاحبها الذي قلده ذلك.

ورغم أنه عاد من المشرق كما رأينا بزاد وافر من العلوم والمعارف، إلا أن ذلك لم يمنعه من مواصلة دراسته على من هم أعلى منه فلازم العالمين

الأخوين ابني الإمام، أبا زيد عبد الرحمن، وأبا موسى عيسى، وأخذ عنهما مادة الفقه الإسلامي وتعمق في دراستها عنهما حتى أصبح هو الآخر فقيهاً.

سفره إلى البرتغال:

وفي عام 741 هـ (1340 م) أو الذي بعده صحبه معه السلطان المريني أبو الحسن في حملته الحربية ضد البرتغال بالأندلس، وشهد هناك معركة طريف التي حصلت في جمادى الأولى 741 هـ (أكتوبر 1340 م) وانهزم السلطان فيها، وأسر له ابنه الأمير أبو عمر تاشفين.

وخلال هذه الأحداث، وبينما اسلطان يقيم بسبتة وجيشه، يحاصر الجزيرة، علم ابن مرزوق بأن عمه بتلمسان مريض، فاستأذن من السلطان أن يسمح بزيارته وعيادته، فأذن له وزوده برسالة إلى كل المسؤولين في كل المناطق التي سيمر بها، ليعتنوا به ويزودوه بما يحتاج إليه في الذهاب والإياب، وطلب منه ألا يتأخر كثيراً، وأن يمر خلال عودته بمدينة فاس ليستقصي له أخبارها وأحوالها، ويعود بها إليه ففعل ما أمره به.

سفره إلى البرتغال في مهمة ديبلوماسية:

وفي عام 748 هـ (1347 م) أرسله السلطان أبو الحسن سفيراً من قبله إلى الفونسو الرابع البرتغالي، ليفاوضه في إطلاق سراح ابنه أبي عمر تاشفين الذي أسر في معركة طريف، فذهب، وفاوض، ونجع في مسعاه وتحصل على إطلاق سراح الأمير الأسير، وعاد به مع عدد من زعماء النصارى الإسبان الذين وجههم الفونسو إلى أبي الحسنى ليهنئوه على نجاحه في غزو تونس واحتلالها.

واتجه بهم جميعاً إلى تونس، وعندما وصل إلى قسنطينة علم بأخبار كارثة القيروان التي تمرد العرب في ضواحيها على أبي الحسن، ونكبوا بقوته، واضطر أن ينسحب إلى صفاقس.

أسفاره إلى إفريقيا والمغرب الأوسط:

وبينما هو في قسنطينة وافته رسالة من أبي الحسن يطلب منه فيها أن يتجه إلى بسكرة ليسعى من هناك في إنقاذ زوجته وأهله المحاصرين بها، فالتحق

ببسكرة، ثم بتونس عندما علم أن السلطان التحق بها بعد كارثة القيروان، وبمجرد وصوله أمره السلطان أن يلتحق بالقافلة التي يوجد فيها ابنه أبو عمر، وعريفه أبو زيان، ووزيره محمد بن العباس، وعدد آخر من بني مرين فأسرع للحاق بهم، وأدركهم في مُقْرَةَ، وساعده في مهمته أبو يعقوب ابن مزني، وأبو راشد يعقوب بن علي، وجمعا له شيوخ الذواوة وأهل المنطقة الذين رافقوه حتى أوصلوه هو والقافلة إلى تونس.

ومن هناك كلفه السلطان بالسير على رأسهم جميعاً مرة أخرى إلى بسكرة، وطلب من ابن مزبي أن يتعاون معه في استخلاص زوجته وأهله بمدينة قسنطينة، الذين كانوا في طريقهم إليه، وعندما وصل ابن مرزوق إلى بسكرة علم أن سكان مدينة قسنطينة ثاروا على عامل السلطان أبي الحسن ونهبوا المدينة، وبايعوا الفضل بن أبي يحيى الموحدي.

وبينما ابن مرزوق ببسكرة جاءته رسالة أخرى من السلطان أبي الحسن بتونس يلح فيها عليه أن يبذل كلّ جهوده في إنقاذ زوجته وأولاده، ومرافقتهم إلى فاس، فأسرع إلى قسنطينة، وتمكن من إنقاذ أهل السلطان، واتجه بهم إلى فاس، وعندما وصل إلى ظاهر تلمسان توفيت زوجة السلطان، وواصل طريقه إلى فاس، واستقبله أبو عنان الذي تمرد على والده بكل حفاوة وتقدير نظراً لهذا الجهد الكبير الذي بذله خلال هذه التقلبات السياسية والعسكرية في معظم أصقاع بلدان المغرب الأدنى والأوسط، والأقصى.

عودته إلى تلمسان:

وكان من المفروض أن يستقر محمد بن مرزوق بفاس بعد هذه الرحلة الطويلة والمتعبة، ولكنه لم يكن مرتاحاً لتلك التطورات السياسية والعسكرية خاصة ذلك الصراع الذي ظهر وبرز بين السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان، وتحول إلى صراع دموي وينذر بعواقب وخيمة، فطلب ابن مرزوق من الأمير المريني أبي عنان أن يعفيه من مهامه هذه، ويأذن له في الانصراف إلى مسقط

رأسه، فوافقه وسرحه، واتجه إلى تلمسان واعتكف بمسجد العباد على التعليم والتدريس مدة من الزمن.

وساطته بين تلمسان وأبي الحسن:

ثم أن الأمير الزياني أبا سعيد عثمان الذي استعاد عرش تلمسان من المرينيين، فكـر في أن يوسطه بينه وبين السلطان أبي الحسن الذي كان يفكر في حشد قواته والزحف على تلمسان لاسترجاعها، واستدعاه إليه وأوضح له الأمر فقبل القيام بالمهمـة وأرسل من قبله المدعو عليا بن محمد برسالة إلى أبي الحسن بتونس فلقيه في مدينة الجزائر عائداً من بجاية بعد أن نجا من الغرق هناك، فسر بتلك الرسالة، وأجابه عنها بمثلهـا وأهمل الإجابة عن رسالة الأمير أبي سعيد عثمان الزياني، وقرر ابن مرزوق أن يذهب بنفسه إلى مدينة الجزائر لمقابلة السلطان وغادر تلمسان وأخذ طريقه عبر الصحراء، حتى يتجنب المشاكل.

اعتقاله:

ولما لم يكن الأمير ثابت شقيق أبي سعيد عثمان، على علم بهذه المأمورية، وهذه المفاوضات السرية، فقد غضب على أخيه وعاتبه، وكلف صغير بن عامر بملاحقة ابن مرزوق واعتقاله وإعادته، فلحق به وأعاده السلطان إلى تلمسان موثوقاً ومقيداً، وعذب في معتقله الذي كان يدعى (بالمطبق)، وأشيع عمداً بأنه قتل، وبقي في السجن أحد شهراً ثم لما قتل السلطان أبو الحسن، واعتلى عرش فاس أبو عنان، أطلق سراحه.

سفره إلى الأندلس:

فطلب الإذن بالسفر إلى الأندلس، وقبل طلبه، فذهب إلى غرناطة، واستقبله سلطانها أبو الحجاج بالحفاوة، والتبجيل لأنه كان يعرفه خلال حرب البرتغال ومعركة طريف وعينه خطيباً ومدرساً في جامع الحمراء عام 752 هـ (1351 م)، وبقي هناك عامين كاملين تعرف خلالها على الأمير المريني أبي سالم شقيق أبي عنان الذي كان لاجئاً هناك وغاضباً عى أخيه المغتصب للعرش

وعلى لسان الدين بن الخطيب وزير سلطان غرناطة الذي تتلمذ عليه ووثق صلاته به. وكان من ضمن من درس وتتلمذ عليه هناك الوزير ابن زمرك بذلك.

عودته إلى فاس:

وفي عام 754 هـ (1353 م) استدعاه السلطان المريني أبو عنان بعد أن تغلب على أبيه أبي الحسن وعزله واستولى على عرش فاس وعلى تلمسان الزيانية وأقاليمها، فذهب إلى فاس، وانتظم في سلك أصحابه وأكابر دولته، وأهل مجلسه المستشارين له، وتفرغ للتدريس والتعليم بمحضر السلطان أحياناً، وفي غيابه أخرى.

سفره إلى صفاقس:

وفي عام 755 هـ (1354 م) أرسله السلطان أبو عنان مع أبي عبدالله محمد حفيد ابن سيد الناس في مهمة إلى حاكم صفاقس ابن مكي، وحملا إليه مبلغ 50 ألف من الذهب العين، ليفتدي بها مدينة طرابلس من النصارى المسيحيين الذين احتلوها في يوم 10 ربيع الثاني من نفس العام، وعاثوا فيها فساداً، وقتلوا أهلها.

وعندما فاوضهم ابن مكي في الجلاء عنها طلبوا هذا المبلغ وعجز عن توفيره كاملاً، فبعث إلى السلطان أبي عنان يطلب المساعدة فبعث إليه المبلغ كاملاً، وطلب منه أن يعيد للناس ما أخذه منهم، قبل أن يتصل به، ولكن الناس رفضوا استعادة ما قدموه فوضعه في بيت المال واستعاد طرابلس بأموال أبي عنان.

وبعد أن عاد من صفاقس عاد إلى مهنة التدريس وصحبه السلطان أبو عنان في حملته وسفرته إلى مدينة قسنطينة عام 758 هـ (1357 م) ومن هناك أرسله إلى تونس ليخطب له ابنة السلطان الحفصي أبي يحيى ابن أبي بكر فلم يوفق في مهمته لأن ابنة السلطان رفضت العرض، واختفت عن الأنظار[1] ووشى إلى أبي

---

(1) روى الزركشي بأن ابن مرزوق اتصل بوالدة البنت وحدثها عن غرضه فقالت له غداً إن شاء الله يكون الحديث بمحضر القاضي وغيره فرجع إليها من الغد فاختفت عنه وجد في الطلب عليها فلم يجدها، وعندما اعتقل بعد عودته قال له الملك أبو عنان، لم لم تضع =

عنان الذي عاد إلى فاس في ذي الحجة من نفس العام (758 هـ)، بأن ابن مرزوق له ضلع في ذلك، فغضب عليه وكلف حاجبه يحيى بن شعيب بأن يعتقله، فخرج للبحث عليه ووجده في تاسالت واعتقله وقيده، وعنفه وقرعه وبقي في المعتقل ستة أشهر كاملة ثم أطلق سراحه.

وعندما تولى عرش فاس السلطان أبو سالم شقيق أبي عنان في يوم الجمعة 15 شعبان عام 760 هـ (12 جويلية 1359 م) أكرم محمد بن مرزوق، وأعاد إليه اعتباره، لأنه كان صديقاً له بغرناطة، ولعب هو وابن خلدون دوراً بارزاً في وصوله إلى العرش، فرعى له ذلك وأعلى قدره وأسند إليه مناصب سامية في دولته حتى أصبح سيدها المطلق يعود إليه الجميع في كل الأمور، ويخطب وده السادة والأكابر، ووطىء الناس عقبه، وغشي أشراف الدولة بابه وصرفت الوجوه إليه، فمرضت لذلك قلوب رجال الدولة ونقموا على السلطان، وتربصوا له وأخذوا يحيكون المؤامرات، وفي الأخير تمكن الوزير عمر بن عبدالله من القيام بحركته الانقلابية في 21 ذي الحجة عام 762 هـ (23 سبتمبر 1361 م)، وقضى على السلطان أبي سالم ونكب بمحمد بن مرزوق الخطيب، وسجنه، وأغرى به السلطان الجديد محمد بن أبي عبد الرحمن بن أبي الحسن، فامتحنه، ونغص عليه، وجرده من كل وظائفه.

وقد بقي ابن مرزوق الخطيب في السجن عامين كاملين ثم أطلق السلطان سراحه رغم أن كل رجال الدولة، كانوا يطالبون بقتله، لأنه كان كثيراً السعاية ضد الشخصيات المرموقة، ومنهم ابن خلدون الذي ذكر ذلك في تاريخه.

رحيله إلى تونس:

وبمجرد أن خرج من السجن عزم على مغادرة البلاد لأنه خاف أن تلاحقه الأيدي، وتعيده إلى نفس المأساة، وهذه مقولة ابن خلدون، وقرر أن يرحل إلى تونس وركب السفينة من ساحل باديس بمدينة سبتة في شهر رجب عام 764 هـ

= اليد فيها حين ذهبت لتخطبها لي، فقال: بنت ملك يخطبها سلطان كيف نضع يدي عليها، فأبقاه في الثقاف بسبب ذلك ستة أشهر، ص 97/98.

(1363 م) ووصل إلى تونس في شهر رمضان من نفس العام، وحظي بالتقدير والإكبار من طرف السلطان الحفصي أبي إسحاق، ووزيره ووصيه محمد بن تافراكين، وعين خطيباً في جامع السلطان، ومدرساً في مدرسة الشماعين واعتكف على التدريس، وبث العلم والتربية الخلقية سبعة سنوات كاملة إلى أن توفي السلطان أبويحيى الحفصي في رجب 770 هـ (1369 م) ثم عصفت به الأحداث السياسية كذلك.

فقد تولى عرش تونس خالد بن يحيى، وثار عليه أبو العباس أمير قسنطينة، وقتلـه وجلس هو على عرش تونس عام (772 هـ) (1371 م) فعزل محمد ابن مرزوق من منصبه بدعوى أنه كان يميل إلى ابن عمه محمد أمير بجاية، الذي لم يكن معه على وفاق، فتعرض لمحنة سياسية جديدة وكاتب وزير غرناطة لسان الدين ابن الخطيب، وتوسط به فكاتب السلطان المريني أبا فارس عبد العزيز يستعطفه عليه، ويرجوه أن يمهد لعودته إلى المغرب من تونس على أن تعاد له أمواله وأملاكه، وشرع ابن مرزوق من جهته في تأليف كتابه: المسند الصحيح الحسن في محاسن ومآثر السلطان، أبي الحسن ليكون له خير شفيع عند عودته.

ومما قاله له في رسالته قوله: «وذلك أن الشيخ الخطيب الفقيه الكبير الشهير الصدر الأوحد رسالة الصالحين وخطيب والدكم كبير الخلفاء والسلاطين ويالها من مزية دنيا ودين، أبا عبدالله ابن مرزوق خير الله على يدكم البرة حاله، وسنيّ من مقامكم السامي آماله، حيرى عليه من المحن وتباريح الأحن مـا يعلم كل ذي مروءة وعقل، واجتهاد ونقل أن ذلك من الجنايات على والدكم السلطان محسوب وإلى معقاته منسوب.

«. . . وأنه خاطبنا الآن من حضرة تونس يقرر من حاله ما يفت الفؤاد ويوجب الامتعاض له والاجتهاد، يطلب منا الإعانة بين يديكم والانحناء ويشكو العيلة والأولاد والغربة التي احتلت الأقطار النازحة والبلاد، والحوادث التي سلبته الطارق والتلال وأن نذكركم بوسيلته، وضعفه حالته، فبادرنا لذلك عملاً

بالواجب وإن كنا نطوقه في أمرنا عند الحادثة علينا تقصيراً، ولا نشكر إلا الله ولياً ونصيراً، فحقه علينا أوجب فهو الذي لا يحقد ولا يحجب ولا يلتبس من المذهب[1].

رحيله إلى المشرق:

ويبدو أن هذا التدخل لم يأت بنتيجة وأن ابن مرزوق استبطأ الجواب، فقرر مغادرة تونس إلى المشرق ليلتحق بمهجر أبيه أحمد الأول، واستأذن من السلطان أبي العباس الحفصي، وحصل منه على الموافقة وأنشد في وداع أهل تونس:

أودعكم وأنني ثم أنني على ملك تطاول بالجميل
واسأل رغبة منكم في ربي بتيسير المقاصد والسبل
سلام الله يشملنا جميعاً فقد عزم الغريب على الرحيل

وركب السفينة التي أقلته إلى مدينة الإسكندرية، وذلك في ربيع الأول عام 773 هـ (1372 م) ومن هناك التحق براً بمدينة القاهرة واستقر بها، وتعرف على أمراء الدولة ووجهائها، وأكابر العلماء، والشيوخ الأجلاء، ونال حظوة ومكانة عالية، لأن سمعته العلمية سبقته إلى هناك، فولاه السلطان الأشرف شعبان بن حسين مناصب عليه، قاضياً، وخطيباً، وأستاذاً للتدريس، والإفتاء، والوعظ، والخطابة، في عدد من مدارس القاهرة، كالشيخوخة، والضرغطمشية والقمحية، والنجمية.

وفاته ومؤلفاته:

وقضى بالقاهرة بقية حياته معظم الجانب، موفور المادة، عظيم الجاه، إلى أن فارق هذه الدنيا، والتحق بالرفيق الأعلى في شهر ربيع الأول عام 781 هـ (1379 م) ودفن بمقبرة القرافة الصغرى بين قبري الإمامين الفقيهين، أبي القاسم، وأشهب، ذوي الشهرة والمكان في الفقه والتشريع الإسلامي،

---

(1) نفح الطيب جـ 2 ص 125 ـ 128.

وخلف لنا من ورائه عدداً من الكتب والمؤلفات العلمية بعضها قد يكون فقد، والبعض ما يزال موجوداً، ومنها:

1) المسند الصحيح الحسن في محاسن ومآثر مولانا أبي الحسن، وقد تولت الدكتوراه ماريا فيغيرا خيسوس الإسبانية تحقيقه، ونشرته المكتبة الوطنية بالجزائر عام 1981 م، وهو كتاب نفيس في تاريخ تلمسان والمغربين الأدنى والأقصى، وتاريخ السلطان المريني أبي الحسن، والأحداث التي حصلت خلال هذه الفترة، وفيه جانب مهم عن حياته هو السياسية والدينية والثقافية.
2) عجالة المستوفز المستجاز، في ذكر من استجازني من المشائخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز، أحصى فيها شيوخه الذين درس وتعلم عليهم ومنهم 250 شيخاً درس عليهم علم الحديث فقط، وذكر الجيلالي في كتابه تاريخ الجزائر العام بأن ابن مرزوق الخطيب عدد في هذه العجالة ألفي شيخ من شيوخه، وهو عدد ضخم جداً ولم نطلع على العجالة حتى نؤكد هذا أو ننفيه.
3) تحفة الطرف إلى الملك الأشرف، ويبدو أنه ألّفَ للملك الأشرف شعبان سلطان مصر.
4) إيضاح المراشد فيما تشتمل عليه الخلافة من الحكم والفوائد.
5) إزالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب، وهو شرح لكتاب ابن الحاجب الفرعي في علم الفقه الإسلامي.
6) الأربعين المسندة في الخلافة والخلفاء، وله صلة بكتابه السابق إيضاح المراشد.
7) شرح على كتاب الشفاء للقاضي عياض، لم يكمله في الفقه الإسلامي.
8) شرح عمدة الأحكام لتقي الدين الجمالي في خمسة أجزاء جمع فيه بين أسلوب ابن دقيق العيد وعمر الفاكهاني.
9) شرح الأحكام الصغرى لعبد الحق ابن عربي الأشبيلي.
10) كتاب الإمامة.

11) كتاب جني الجنتين في فضل الليلتين (ليلة القدر وليلة المولد النبوي).
12) ديوان خطب وقصائد.
13) شرح لصحيح البخاري في الحديث النبوي الشريف.
14) كتاب في الصبر.
15) كتاب في التنجيم.

الشيخ أبو عبدالله محمد (السادس) ابن مرزوق الحفيد العجيسي
(766 ـ 842 هـ ـ 1364 ـ 1439 م)

ميلاده ونشأته:

العالم الثالث من أسرة ابن مرزوق العجيسية التلمسانية هو أبو عبدالله محمد (السادس) بن أحمد (الثاني) بن محمد (الرابع) ابن أحمد (الأول) بن محمد (الثاني) بن محمد (الأول) بن أبي بكر ابن مرزوق، الذي اشتهر بلقب الحفيد، ولد بتلمسان ليلة الاثنين 14 ربيع الأول 766 هـ (10 ديسمبر 1364 م)، ونشأ على غرار أبيه وجده، محباً للعلم والعلماء، وتفرع في البداية لحفظ القرآن الكريم، ثم اعتكف على دراسة العلوم والمعارف الإسلامية، على أجلة الشيوخ والعلماء بتلمسان وفاس، وتونس، والقاهرة، وغيرها.

فقد درس على أبيه أحمد (الثاني) وعمه محمد (الخامس) وعلى عالم المغرب العربي القاضي سعيد العقباني، وأبي إسحاق إبراهيم المصمودي، والأشهب الغماري، وأبي محمد عبدالله بن الشريف التلمساني وتعلم تلاوة القرآن برواية نافع، على الشيخ عثمان الزواوي.

سفره إلى تونس وفاس:

وبعد ذلك سافر إلى تونس ودرس على الفقيه ابن عرفة وأبي العباس القصار، وغيرهما، ثم عاد إلى تلمسان، وشد الرحال إلى فاس، واعتكف هناك

على الدراسة والتحصيل في حلقات العلماء الأجلاء أمثال الشيخ أبي زيد المكودي، وابن حياتي، النحويين، والحافظ بن مسعود الصنهاجي، الفلالي، وغيرهم.

سفره إلى المشرق:

ومن فاس شد الرحال إلى المشرق الإسلامي، ونزل بالقاهرة وأخذ العلم على عدد من علمائها المشهورين أمثال: عبد الرحمن بن خلدون، وسراج الدين البلقيني، وشمس الدين الغماري، وزين الدين الحافظ العراقي، والفيروز أبادي صاحب القاموس، ومحمد الدين بن هشام، وابن صاحب كتاب المغني ونور الدين النويري صاحب النهاية، والقاضي ناصر الدين التنسي، وسراج الدين بن الملقن، وآخرين غيرهم من ذوي الفضل والمكانة العلمية.

عودته إلى تلمسان:

وعندما ملأ وطابه بالعلوم والمعارف، قفل راجعاً إلى تلمسان في تواريخ غير مضبوطة، واتجه عام 792 هـ (1390 م) إلى الديار المقدسة بالحجاز لأداء فريضة الحج صحبة شيخه، وأستاذه الفقيه ابن عرفة التونسي، واجتمع بمكة، بالشيخ بهاء الدين الدماميني، ونور الدين العقلي، وأخذ عنهما، وروى صحيح البخاري على الشيخ ابن صديق، ولازم المحب ابن هشام ودرس عنه اللغة العربية وآدابها، ثم عاد إلى تلمسان وبقي عدة سنوات في التدريس، والإقراء، والوعظ، والإرشاد، والتأليف.

سفره إلى المشرق:

وفي عام 819 هـ (1416 م) سافر إلى المشرق للمرة الثالثة وأدى فريضة الحج مرة أخرى والتقى هناك بعدد آخر من شيوخ العلم درس وتعلم عليهم، ومنهم الشيخ رضوان الزيني، والإمام ابن حجر، وحصل على إجازات علمية كثيرة من علماء أندلسيين مهاجرين أمثال: محمد بن جزي وأبي القاسم بن الخشاب، وابن عبدالله محمد القيجاطي، والمحدث محمد بن علي الحفار الأزهري، والحافظ ابن علاق، وبقي هناك مدة ثم عادا إلى تلمسان.

عودته إلى تلمسان:

وقد سمحت له هذه السفرات، واللقاءات، ومجاورة العلماء، والشيوخ، بالتبحر في العلوم والمعارف، المختلفة، وعلى التحقيق والتدقيق في المسائل العلمية المختلفة، والاطلاع الواسع للمعارف المتنوعة الدينية واللغوية، فغدا بحراً لا ساحل له في هذا الميدان. وكاد أن يتفوق على جده ابن مرزوق الخطيب، وأجمع الناس في عصره على فضله وعلو شأنه وإحاطته بمذاهب الفقه الإسلامي المختلفة، وأثنى عليه تلاميذه الكثيرون وعلى رأسهم، عبد الرحمن الثعالبي، وأبو الفرج بـن أبي يحيى الشريف التلمساني، وأخوه أبو العباس، والشيخ يحيى بن أدريس المازوني، والحافظ التنسي، وأبو الحسن القلصادي، وأبو الفضل المشدالي، ونصر الدين الزواوي المشدالي، والحسن أبركان، والقاضي عمر القلشانـي قاضي الجماعة بتونس وإبراهيم بن فايد الزواوي، وأحمد بن زكري، وقاضي الجماعة بغرناطة أبو العباس ابن أبي يحيى الشريف وأحمد بن يونس القسنطيني، وأبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الندرومي وعيسى بن سلامة البسكري، والشهاب بن كحيل التجاني، وأبو البركات الغماري، والعلامة علي بن ثابت، وابنه محمد بن أحمد بن مرزوق الكفيف ويحيى بن بدير، وأبو عبدالله محمد بن العباس.

إن قائمة هؤلاء التلاميذ الذين درسوا على مترجمنا ابن مرزوق الحفيد، العجيسي، تثبت مدى سعة علمه، ومدى تفوقه على أهل زمانه من الشيوخ والعلماء الأجلاء.

نموذج عن ثقافته:

وقد أورد تلميذه أبو الفرج ابن يحيى الشريف التلمساني قائمة طويلة بالعلوم والمعارف، والكتب التي درسها عليه يحسن أن نوردها هنا نقلاً عن كتاب نفح الطيب لأحمد المقري حتى تكون نموذجاً ومثالاً لسعة علمه وثقافته، وتبحره في العلوم والمعارف الإسلامية المختلفة، واطلاعه المكثف على مختلف الآراء العلمية.

قال أبو الفرج... اتصلت به... فقرأت عليه جملة من تفسير القرآن، ومن الحديث صحيح البخاري بقراءتي وقراءة غيري مراراً، وصحيح مسلم كذلك، وسنن الترمذي وأبي داود بقراءتي والموطأ سماعاً، وتفقهاً والعمدة. ومن علم الحديث أرجوزته الصغرى وهي الحديقة في علم الحديث وبعض الكبرى وهي الروضة تفقهاً ومن العربية نصف المقرب تفقهاً، وجميع سيبويه كذلك، وألفية ابن مالك وأوائل شرح الإيضاح لابن أبي ربيع، وبعض المغنى لابن هشام، وفي الفقه التهذيب كله تفقهاً، وابن الحاجب الفرعي، وبعض مختصر الشيخ خليل، والتلقين وثلثي الجلاب، وجملة من المتيطية والبيان لابن رشد وبعض الرسالة، وكل ذلك قراءة وتفقهاً، وتفقهت عليه من كتب الشافعية في تنبيه الشيراوي، ووجيز الغزالي من أوله إلى كتاب الإقرار، ومن كتب الحنفية، مختصر القدوري تفقهاً، ومن كتب الحنابلة، مختصر ابن الحاجب، ومن أصول الفقه المحصول، ومختصر ابن الحاجب، والتنقيح وكتاب المفتاح لجدي، وقواعد عز الدين، وكتاب المصالح والمفاسد له، وقواعد القرافي، وجملة من النظائر والأشباه للعلائي، وإرشاد العميدي، ومن أصول الدين المحصل والإرشاد تفقهاً، وفي القراءات قصيدة الشاطبي تفقهاً، وابن بري، وفي البيان التلخيص، والإيضاح والمصباح كملها تفقهاً، وفي التفقه، الأحياء الغزالي سوى الربع الأخير منه، وألبسني خرقة التصوف كما ألبسه أبوه، وعمه، وهما ألبسهما أبوهما جسده.

وصف المقري له:

أن هذه الفقرة، توضح وتؤكد سعة علم هذا الرجل وإحاطته بمختلف المعارف الإسلامية العقلية والنقلية، الدينية، واللغوية وقد وصفهُ أحمد المقري في كتابه نفح الطيب، وصفاً جميلاً، ورائعاً وبليغاً، يثبت أنه كان بمثابة موسوعة للعلوم والمعارف، ولا بد من إيراد ذلك الوصف رغم طوله إنصافاً للرجل، وتأكيداً لمركزه ومكانته العلمية، وإبرازاً لما كانت عليه تلمسان من المكانة العلمية والأدبية.

قال أحمد المقري: «وأما عالم الدنيا أبو عبدالله محمد بن مرزوق الشهير بالحفيد، فهو البحر الإمام المشهور، الحجة الحافظ، العلامة المحقق الكبير النظار، المطلع المصنف المتصف، التقي الصالح الناصح، الزاهد العابد، الورع البركة، الخاشع، الخاشي النبيه القدوة، المجتهد الأبرع، الفقيه الأصولي المفسر المحدث، الحافظ المسند الراوية الأستاذ المقري، المجود، النحوي اللغوي ، البياني العروضي، الصوفي الأواب، الولي الصالح، العارف بالله، الآخذ من كل فن بأوفر نصيب، الراعي في كل علم مرعاه، الخصيب، حجة الله على خلقه، المفتي الشهير الرحلة الحاج، فارس الكراسي، والمنابر سليل الأكابر، سيد العلماء الأخيار وإمام الأئمة وآخر الشيوخ ذوي الرسوخ، بدر التمام الجامع بين المعقول والمنقول، والحقيقة والشريعة بأجل محصول، وآخر النظار الفحول، شيخ المشائخ صاحب التحقيقات البديعة، والاختراعات الأنيقة، والأبحاث الغريبة، والقواعد الغزيرة».

كان رحمه الله تعالى آية في تحقيق العلوم، والاطلاع المفرط على النقول، والقيام التام على الفنون بأسرها، أما الفقه فهو فيه مالك، ولازمه فروعه حائز ومالك، فلو رآه الإمام قال له: تقدم فلك العهد والولاية فتكلم، فمنك يسمع فقهي وفروعي، ومثلك من راعه ما ينبغي فروعي، وأبو القاسم لقربه عيناً، وقال له، طالما دفعت عن المذهب عيناً وشيناً. أو المازري لعلم أنه بمناظرته حرى، أو الحافظ ابن رشد لقال: هلم يا حافظ الرشد، أو اللخمي لأبصر منه محاسن «التبصرة» أو القرطبي لنال منه «التذكرة» أو القرافي لاستفاد منه قواعده المقررة، وابن الحاجب لاستند إلى بابه في كشف الإشكالات المحررة، إلى ما انضم إلى ذلك من معرفة التفسير ودوره، والاطلاع بحقائق التأويل وغرره، فلو رآه مجاهد لعلم أنه في التحقيق خير جاهد، أو مقاتل، أو الزمخشري لعلم أنه كشاف الخفيات على الحقيقة، وقال لكتابه تنح لهذا الحبر عن سلوك الطريقة أو ابن عطية لركب في الرحلة إلى الاستفادة منه المطية أو أبو حيان لغرق في نهره، ولم تسل له نقطة من بحره، إلا الإحاطة بالحديث ومضمونه والاطلاع على أسانيده، ومتونه ومعرفة منكره، ومعروفه، ونظم أنواعه

ووصف صنوفه، إذ إليه الرحلة انتهت في رواياته ودراساته، وعليه المعول في حل مشكلاته، وفتح مقفلاته، وأما الأصول فالعضد ينقطع عند مناظرته ساعده، السيف يكل عند بحثه حده حتى يترك ما عنده ويساعده، والبرهان لا يهتدي معه لحجة، والمقترح لا يركب في بحره لجة، وأما النحو فلو رآه محمود لتلجلج في قراءة «المفصل» واستقل ما عنده من القدر المحصل أو الرماني لاشتاق إلى مفاكهته، وارتاح واستجدى من ثمار فوائده، وامتاح، أو الزجاج لعلم أن زجاجة لا يقوم بجواهره، وأنه لا يجري معه في هذا العلم إلا في ظواهره، بل لو رآه الخليل لقال: هذا هو المقصد الجليل وأثنى عليه بكل جميل وقال لفرسان النحو: مالكم إلى لحوق غريبة من سبيل، وأما البيان فالمصباح لا يظهر له نور عند هذا الصبح، وصاحب المفتاح لا يهتدي معه إلى الفتح، والقزويني يلقى علومه لإيضاح المعاني، والسعد يرقى بمفهومه في مطالع المثاني، وكم له من مناقب تنحط عن منالها الثواقب ومواهب تجلو بأنوارها الغياهب، وأما زهده وصلاحه فقد سارت به الركبان، واتفق عليه الثقلان، فمن وصفه بالبحر فقل له: دون علمه البحر، أو البدر فما تصل خلقه البدر أو الدر.

وبالجملة فالوصف يتقاصر عن صفاته، وفضلاء عصره لا يرتقون إلى صفاته، فهو شيخ العلماء في أوانه، وإمام الأئمة في عصره وزمانه، شهد بنشر علومه العاكف والبادي، وارتوى من بحار تحققاته الظمآن والصادي.

«حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفري»

ذلك هو وصف أحمد المقري له.

وفاته:

وقد بقي ابن مرزوق الحفيد بتلمسان حتى توفي مساء يوم الخميس 14 شعبان عام 842 هـ (30 جانفي 1439 هـ)، وصلى عليه بالجامع الأعظم بعد صلاة الجمعة في اليوم الموالي ودفن فيه وسار في جنازته السلطان والعلماء، وكبار رجال الدولة وخلف من ورائه ابنه الكفيف ابن مرزوق، وحفيده من بنته حفصة ابن مرزوق الخطيب.

مؤلفاته:

وترك لنا قائمة طويلة من الكتب والمؤلفات التي ألفها في مختلف فروع المعارف الإسلامية، بعضها طبع، وبعضها ما يزال مخطوطاً والبعض موجود والبعض الآخر اندثر وعفا بسبب عوامل الزمن، ومن هذه المؤلفات:

1) إظهار صدق المودة في شرح قصيدة البردة.
2) الاستيعاب لما فيها من البيان والإعراب، وهما كتابان آخران أوسط، وأصغر في شرح قصيدة البردة كذلك.
3) الغاية القراطيسية في شرح الثقراطيسية.
4) المفاتيح المرزوقية لحل الأقفال واستخراج رموز الخزرجية وهو كتاب في علم العروض والقوافي.
5) الروضة، رجز في علم الحديث.
6) الحديقة، رجز في علم الحديث كذلك.
7) المقنع الشافي وهو أرجوزة في علم الميقات بها 1700 بيتاً.
8) نهاية الأمل في شرح الجمل، وهو شرح كتاب الخونجي.
9) اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة، وهو عبارة عن أجوبة على مسائل علمية وردت عليه من عالم قفصة ابن السراج أبي يحيى بـن عقيبة.
10) المعراج في استمطار فوائد الأستاذ ابن السراج وهو عبارة عن كتاب أجاب فيه ابن السراج الغرناطي على مسائل نحوية ومنطقية.
11) أنوار اليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين.
12) الدليل المومي في ترجيح طهارة الكاغد الرومي.
13) النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل الناقص رد فيه على فتوى قاسم العقباني حول مسائل الفقراء الصوفية، وعارضه في آرائه.
14) مختصر الحاوي في الفتاوى، لابن عبد النور التونسي.
15) الروض البهيج في مسائل الخليج.
16) أنوار الداراري في مكررات البخاري.
17) المتجر الربيح والسعي الرجيح، والمرحب الفسيح في شرح الجامع

الصحيح (صحيح البخاري)، ولم يكمله.

18) المنزع النبيل في شرح مختصر خليل، لم يكمله.
19) إيضاح المسالك على ألفية مالك، لم يكمله.
20) روضة الأريب في شرح التهذيب.
21) عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد.
22) الآيات الواضحات في وجه دلالة المعجزات.
23) الدليل الواضح المعلوم في طهارة كاغظ الروم.
24) أسماع الصم في إثبات الشرف من جهة الأم[1].
25) شرح ابن الحاجب الفرعي.
26) شرح التسهيل.
27) أرجوزة ألفية في محاذاة حرز الأماني للشاطبي.
28) أرجوزة نظم تلخيص المفتاح.
29) أرجوزة نظم تلخيص البناء.
30) أرجوزة نظم جمل الخونجي.
31) أرجوزة في اختصار ألفية ابن مالك.
32) تأليف في مناقب شيخه إبراهيم المصمودي.
33) تفسير سورة الإخلاص على طريقة الحكماء.

هكذا كان ابن مرزوق الحفيد بحراً علامة في العلوم والمعارف الإسلامية المتنوعة، وشيخاً وأستاذاً لجيل بحاله من الشيوخ والعلماء وطلاب العلم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي الواسع شرقاً وغرباً.

---

(1) نسب السخاوي في كتابه الضوء اللامع هذا الكتاب إلى محمد بن عبد الرحمن أبي عبدالله بن أبي زيد المراكشي القسنطيني المغربي المالكي الضرير الذي ولد في جمادي الآخرة سنة 739 هـ ضريراً، وذكر أنه رأى له عند البدر بن عبد الوارث المالكي مصنفاً ابتدأه في ذي القعدة عام 801 هـ سماه: أسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم، صدره باختلاف علماء تونس وبجاية فيها عام 726 هـ فمنعه التونسيون وأثبته البجائيون ومال هو إليهم وذكر أنه رأى ابن الغماز من علماء تونس وابن دقيق العيد وأشياخه بني باديس، الضوء اللامع جـ 8 ص 48.

وهكذا كان مكتبة بحالها بما خلفه لنا من كتب ودراسات مكثفة وغزيرة.

الشيخ محمد (السابع) ابن مرزوق الكفيف

(824 ـ 901 هـ = 1421 ـ 1495 م)

العالم الرابع من أسرة ابن مرزوق التلمسانية هو محمد (السابع) بن محمد (السادس) بن أحمد (الثاني) بن محمد (الأول) بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني الذي يلقب بالكفيف أو الضرير ولد ليلة الثلاثاء غرة ذي القعدة عام 824 هـ (27 أكتوبر 1421 م).

واعتكف منذ صغره، كعادة كل أبناء الأسرة، على حفظ القرآن الكريم، ودراسة العلوم العربية الدينية واللغوية فحفظ القرآن على والده ابن مرزوق الحفيد، ودرس عنه بعض العلوم الأخرى خاصة الفقه، والحديث، وظهر نبوغه وتفوقه منذ البداية في احتواء هذه العلوم وهضمها وأجازه والده على ما درسه عليه، ثم اعتكف على الدراسة على أجلة علماء تلمسان أمثال: أبي الفضل بن إبراهيم بن أبي زيد بن الإمام، وقاضي الجماعة قاسم العقباني، وأبي العباس أحمد بن محمد بن عيسى اللجائي الفاسي، والمحدث أبي زيد عبد الرحمن الثعالبي تلميذ أبيه، وابن عقاب الجذامي التونسي، وابن البحيري التونسي، وشيخ الإسلام أحمد بن حجر الشافعي العسقلاني، وكلهم أجازوه بعد أن سمع ودرس عنهم ما عدا ابن حجر الذي أجازه عن طريق المراسلة مع أولاد ابن مرزوق عام 829 هـ (1426 م) كما ذكر ذلك صاحب البستان نقلاً عن أحمد ابن داوود البلوي.

وفي عام 861 هـ (1458 م) سافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، والدراسة على شيوخ وعلماء الحرمين الشريفين، وهناك التقى بالحافظ السخوي وأخذ عليه واستفاد من علومه ومعارفه، وتحدث عنه أستاذه هذا في كتابه الضوء اللامع، وقال بأنه سمع عام 871 هـ بأنه ما يزال حياً.

ولم ندر كم مدة قضاها بالمشرق، ومتى عاد إلى تلمسان ولم تحدثنا المصادر التي اطلعنا عليها، على ذلك، وقد اعتكف على التدريس، والتف حوله عدد من طلبة العلم الذين أصبحوا علماء فيما بعد ومنهم: أحمد بن داود البلوي، وأبو العباس الونشريسي، صاحب كتاب: المعيار، والإمام السنوسي صاحب العقائد المشهورة وابن اخته الخطيب ابن مرزوق، وأبو عبدالله محمد بن الإمام أبي العباس، وابن غازي، وغيرهم، وذكر هذا الأخير بأنه درس عليه كتاب الصحيحين وبعض مختصر ابن الحاجب الأصلي والفرعي، وجزءاً من كتاب التهذيب وبعض من جمل الخونجي في المنطق.

وقد أخذ عنه بالإجازة عالم فاس الكبير ابن غازي، ونقل عنه معاصره المازوني في كتابه الدرر المكنونة في فك نوازل مازونة وذكر ابن ظهيرة بأنه درس عليه الفقه والأصول، والمنطق، وآداب اللغة العربية، وذلك مما يؤكد تضلعه في هذه العلوم وغيرها وبخاصة الحديث والتفسير، وقيل بأنه شرح كتاب أبيه المسمى: مختصر الحاوي في الفتاوى، وهو شرح كذلك لكتاب ابن عبد النور التونسي.

وقد ذكر الأديب المؤرخ محمد بن يعقوب، بأن ابن مرزوق الكفيف هذا توفي عام 901 هـ (1495 م) بتلمسان وهو التاريخ الذي أكدته دائرة المعارف الإسلامية.

وذكر المقري في نفح الطيب بأنه زار قبره مراراً، وهو جد أبيه أحمد المقري، لأن والدة أحمد المقري هي بنت محمد بن مرزوق الكفيف هذا.

ويبدو من السخاري في كتابه الضوء اللامع بأن ابن مرزوق الكفيف هذا، هو الذي ألف كتاب: إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم، وليس أبوه ابن مرزوق الحفيد فليراجع في مكانه من الجزء الثامن ص 48. وقد خلف من ورائه ابنه أحمد (الثالث) الذي لقب بحفيد الحفيد حسبما ذكر ذلك في كتابه: التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال الساكن والناد.

الشيخ أحمد (الثالث) ابن مرزوق، هو أحمد (الثالث) بن محمد (السابع) بن محمد (السادس) بن أحمد (الثاني) بن محمد (الرابع) ابن أحمد (الأول) بن

محمد (الثاني) بن محمد (الأول) بن أبي بكر بن مرزوق، واشتهر بلقب حفيد الحفيد.

اعتكف في صغره على حفظ القرآن الكريم على والده ابن مرزوق الكفيف ثم درس عليه جملة من العلوم والمعارف الإسلامية، كما درس على علماء آخرين أمثال الشيخ السنوسي، والعلامة الشيخ التنسي والشيخ ابن زكري.

ولم يعمر طويلاً، ولم تحدثنا المصادر لا عن تاريخ ميلاده ولا وفاته، ولا شك أنه عاش في أواخر القرن التاسع ومطلع القرن العاشر الهجريين، وقيل بأنه توفي عام 925 هـ (1519 م) بتلمسان، أي بعد أبيه بربع قرن من الزمن.

الشيخ محمد (الثامن) ابن مرزوق حفيد الكفيف

العالم السادس والأخير من أسرة ابن مرزوق هو أحمد (الثامن) ابن حفصة بنت محمد (السادس) الحفيد، ابن مرزوق، اشتهر بالخطيب ولقب بحفيد الكفيف، لأنه سبط الشيخ محمد (السادس) الحفيد العجيسي من بنته حفصة، ويجتمع أبوه وأمه عند أحمد (الثاني) والد الحفيد ابن مرزوق.

ولد بتلمسان، وتضلع في علوم الحديث بصورة خاصة مثل جديه، الخطيب ابن مرزوق الجد، والحفيد ابن مرزوق العجيسي، ودرس على خاله محمد (السابع) ابن مرزوق الكفيف، وعلى محمد بن العباس، ومحمد التنسي، وأبي عبدالله العبادي، وغيرهم من العلماء الأجلاء الفضلاء في عهده.

وكان حياً عام 918 هـ (1512 م) ولم يذكر المترجمون له لا تاريخ ميلاده، ولا تاريخ وفاته، ولا شك أنه توفي قبل نهاية الربع الأول من القرن العاشر الهجري، وقد ذكرت دائرة المعارف الإسلامية بأنه توفي عام 918 هـ (1512 م)، وهو آخر من اشتهرت بهم عائلة ابن مرزوق العجيسية التلمسانية.

وفيما يلي شجرة نسبهم حسبما أوردته دائرة المعارف الإسلامية في الجزء الثالث. ص 890 ـ 892.

شجرة عائلة ابن مرزوق[1]

مرزوق العجيسي عاش في نهاية النصف الثاني من القرنين 5 هـ (11م). أبو بكر، كان قيماً في ضريح أبي مدين بالعباد (ق 6 هـ = 12 م) محمد «الأول».

محمد الثاني (629 ـ 681 هـ =1231 ـ 1282 م).

محمد الثالث: أول خطيب في جامع العباد كان حياً عام 747 هـ (1346 م).

أحمد الأول (681 ـ 741 هـ = 1282 ـ 1340 م).

محمد الرابع: الجد والخطيب والرئيس (710 ـ 781 هـ = 1310 ـ 1379 م).

محمد الخامس: أحمد الثاني توفي عام 760 هـ (1350 م).

محمد السادس: الحفيد العجيسي (766 ـ 842 هـ = 1364 ـ 1438 م).

محمد السابع الكفيف (824 ـ 901 هـ = 1421 ـ 1495 م).

محمد الثامن: كان حياً عام 918 هـ (1512 م) وقيل توفي في نفس العام (أحمد الثالث) حفيد الحفيد قيل توفي عام 925 هـ (1519 م).

---

(1) عن دائرة المعارف الإسلامية جـ 3 ص 890 ـ 892.

الشيخ أبو عبدالله الشريف العلوي التلمساني
(710 ـ 771 = 1310 ـ 1370 م)

مولده ونشأته:

هو الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد الشريف الحسني التلمساني، ولد بقرية العلويين (بفتح العين وسكون اللام بعدها) من أعمال تلمسان عام 710 هـ (1310 م)، وحفظ القرآن في صغره على الشيخ أبي زيد ابن يعقوب، ثم وجهه خاله عبد الكريم إلى العالمين الفاضلين ابني الإمام، أبي زيد عبد الرحمن، وأبي موسى عيسى، ليدرس العلوم العربية والإسلامية الدينية واللغوية، فلازمهما، ودرس عليهما علوماً كثيرة خاصة، الأصول، والفقه، وعلم الكلام.

وفي نفس الوقت لازم الشيخ محمد بن إبراهيم الآبلي ودرس عليه علوماً كثيرة معقولة ومنقولة، وتفوق فيها، والتحق بمستوى مشائخه وأساتذته، وتفجرت منه ينابيع العلوم والمعارف كما قال ابن خلدون.

رحيله إلى تونس:

وبعد أن استكمل ما عند علماء تلمسان من علوم ومعارف شد الرحال إلى تونس الخضراء عام 740 هـ (1340 م) وهو في عمر الثلاثين ليستزيد من العلوم والمعارف الإسلامية، وانضم هناك إلى حلقة الشيخ ابن عبد السلام، شيخ ابن خلدون، ودرس عليه ما كان يلقيه من دروس، واستفاد منه كثيراً، وظهر تفوقه الكبير فأكبره شيخه، وأخذ يستدعيه إلى منزله ليسمع منه، وهو تلميذه، فصل التصوف من كتاب الإشارات لابن سيناء، الذي درسه هو وأتقنه عن الشيخ محمد بن إبراهيم الآبلي بتلمسان قبل أن يرحل إلى تونس.

عكف أبو عبدالله الشريف في تونس على دراسة كتاب الشفاء لابن سيناء، وتلاخيص كتب أرسطو، ومواد الحساب، والهندسة، والفرائض علاوة على ما أتقنه قبل ذلك بتلمسان من علوم الفقه والشريعة والآداب العربية، وتضلع حتى أصبح كما قال ابن خلدون صاحب يد طولى، وقدم عالية في كتب الخلافيات.

وقد اعترف له شيخه وتلميذه في آن واحد، ابن عبد السلام بتبحره في العلوم والمعارف، وعرفه بكبار علماء تونس الذين أحبوه وبجلوه وأكبروه، بعد أن اكتشفوا نباهته، ورجاحة عقله رغم صغر سنه.

ومن جملة الشيوخ الذين درس عليهم أبو عبدالله الشريف إلى جانب من ذكر: الشيخ الفقيه أبو محمد عبدالله المجاصي، والقاضي أبو عبدالله محمد بن عمر التميمي، وأبو عبدالله محمد بن محمد البروني، وأبو موسى عمران المشدالي، والشيخ السطي، والقاضي أبو عبدالله محمد بن عبد النور، والشيخ القاضي أبو العباس أحمد بن الحسن، والقاضي أبو الحسن علي ابن الرماح، وأبو عبدالله محمد بن النجار المنجم، وعبد المؤمن بن الجاناتي الفاسي، وشهدوا له كلهم برجاحة العقل، وسعة الإدراك، وحضور الذهن، وكثرة التحصيل.

عودته إلى تلمسان:

وبعد أن ملأ أبو عبدالله الشريف، وطابه من العلوم والمعارف بتونس، واستكمل زاده، عاد إلى تلمسان في تاريخ لم تضبطه لنا كتب التراجم، وتصدى للتدريس والتعليم، والإقراء، فأقبل عليه طلبة العلم من كل جهة وتزاحموا على حلقات دروسه، ولم يبخل في إرواء نهمهم وإشباع عطشهم، وأبدى نشاطاً واسعاً في دروسه حتى يكون عند حسن ظنهم.

وعمل في نفس الوقت على إحياء سنة الرسول والخلفاء الراشدين، وقاوم البدع والضلالات، وجاهر بقول الحق، ومقاومة الباطل، وشجع طلابه على التحلي بالفضائل والمكرومات، وحثهم على الدراسة حسب ميولهم حتى يستطيعوا أن ينبغوا ويتفوقوا.

وعندما غزا السلطان المريني أبو عنان تلمسان عام 753 هـ (1352 م) اصطفاه، واختاره ضمن من اختارهم من رجال العلم، وعينه عضواً في مجلس علمائه الذين أحاطهم به، وأخذه معه إلى مدينة فاس عندما عاد إليها.

رحيله إلى فاس:

فاعتكف هناك على التدريس والإقراء، وحضر السلطان درساً له في إحدى الأيام، واندهش من فصاحته، وغزارة علمه، وقال لبعض الجالسين بجواره لكأني أرى العلم يخرج من منابت شعره.

عودته إلى تلمسان ومحنته:

كان من المفروض أن يرتاح أبو عبدالله الشريف لمقامه بفاس، وللرعاية التي كان السلطان، يحيطه بها، ولكنه أكثر من التبرم والشكوى، ولم يطق الاغتراب عن تلمسان، وأبدى للسلطان رغبته في العودة إليها، فاستغرب، وارتاب من أمره خاصة بعد أن علم بأن سلطان تلمسان أبا سعيد عثمان بن عبد الرحمن الزياني، وأوصاه على ولده، وأودع له مالاً لدى أحد الأعيان بتلمسان يعلم به، وأمر في الحال بانتزاع تلك الوديعة من صاحبها الذي أودعت عنده، وعاتب أبا عبدالله الشريف على ذلك ولامه، وعنفه ثم سجنه عدة أشهر.

وعندما قام السلطان أبو عنان بحملته على مدينة قسنطينة في مطلع عام 756 هـ (1355 م)، علم هناك وبلغه بأن علماء تونس، وأعيانها وسكانها غاضون وحاقدون عليه بسبب سجنه لأبي عبدالله الشريف الذي يعرفونه جيداً، ويدركون مركزه العلمي يوم أن كان هناك بين ظهرانيهم.

رحيله إلى فاس:

فتأثر السلطان من ذلك وأمر بإطلاق سراحه بعد أن عاد إلى فاس، واستدعاه إليه، واعتذر له، وقربه منه وعينه عضواً في مجلسه العلمي مرة أخرى وأعاد له اعتباره وبقي على تلك الحال حتى توفي السلطان أبو عنان عام 759 هـ (1358 م) واستمر في أداء وظيفته العلمية.

عودته إلى تلمسان:

وعندما استعاد السلطان الزياني أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن عرش تلمسان من بني مرين، واستقر له الأمر، بعث إلى أبي عبدالله الشريف بفاس يستدعيه إليه، فطلب الإذن من الوزير عمر بن عبدالله، وحصل على موافقته، وغادر فاس إلى تلمسان، وعندما وصل إليها استقبله السلطان أبو حمو بحفاوة بالغة وأحاطه برعايته وزوج له ابنته، وبنى له مدرسته الشهيرة التي عرفت بالمدرسة اليعقوبية عام 763 هـ (1362 م) بجوار ضريح قبور: أبيه أبي يعقوب، وعميه أبي سعيد، وأبي ثابت، فانكب على التدريس والتعليم بها أكثر من ستة سنوات وتزاحم حوله طلبة العلم، والراغبون في الاستزادة من العلوم والمعارف، وكان من ضمن تلاميذه في هذه الفترة، ابنه أبو محمد الذي سيخلفه فيما بعد في مهنة التدريس بهذه المدرسة، وعبد الرحمن بن خلدون، وأخوه يحيى، والإمام الشاطبي، وابن زمرك، وإبراهيم الثغري، وأبو عبدالله القيسي، وابن عتاب، وابن السكاك، والفقيه محمد الميورقي.

لقد كان أبو عبدالله الشريف التلمساني من الراسخين في العلوم والمعارف الإسلامية المختلفة والمتنوعة، فتفوق في الفقه وألف فيه كتابه: «مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول» الذي طبق فيه مسائل الفقه على علم الأصول، وتضلع في علوم اللغة والآداب العربية كالنحو، والعروض والبيان، والبلاغة، والبديع، وغريب اللغة، والشعر والأمثال، وتبحر في أخبار الناس ومذاهبهم، وأيام العرب، وسيرهم، وحروبهم وتاريخ الرسول ﷺ والخلفاء، وفي أخبار الأولياء والصالحين، وسيرهم ومذاهب الصوفية وآرائهم، وأقوالهم، وشطحاتهم.

وكانت له القدم المعلى واليد الطولى في العلوم العقلية والنقلية، والفلاحة، والمنطق، والحساب، والهندسة، والموسيقى، والطب، والتشريح، والتنجيم، وغيرها.

لقد فسر القرآن الكريم في ظرف ربع قرن من الزمن أتى فيه بالعجب

العجاب، ولازم حضور دروسه هذه الملوك، والأمراء والعلماء، والصلحاء، ونجباء الطلبة وشيوخ زمانه، ولم يكن يتخلف أحد منهم عنها، وذلك لأنه كان عالماً غاية العلم بمعاني حروف القرآن ونحوه وإعرابه، وقراءاته المختلفة، ورواياته المتنوعة، وبيانه، وإعجازه وأحكامه، ومعانيه، وأمره ونهيه وناسخة ومنسوخة، وما فيه من أخبار الأولين وتاريخهم، فكان يعطي لكل علم وفن غايته في البحث والتدقيق والشرح، والغوص في معانيه ومراميه.

وإلى جانب هذا كان أبو عبدالله الشريف إماماً في علم أصول الدين، والحديث الشريف، فتضلع في فقه أحكامه، وتمييز غريبه ومشكله وصحيحه، والمختلف فيه ومتونه، وأنواعه، ورواته ورواياته المختلفة.

إفحامه لعلماء فاس:

وبفضل هذا التضلع، وذاك التفوق في العلوم والمعارف الإسلامية، كثر حساد أبي عبد الشريف والحاقدون عليه، وحاولوا أن ينالوا من مركزه العلمي، ومقدرته وكفاءته فأشاع فقهاء فاس بأنه ضعيف وغير دقيق في علوم الفقه والحديث، ولم يستطع أن يستوعب أحكامهما.

ونقلوا هذه الإشاعة إلى السلطان فجمعهم في مجلس علمي حافل، ودعا إليه أبا عبدالله الشريف، وكلفه دون سابق علم، بإلقاء درس في شرح حديث الرسول عليه الصلاة والسلام، «إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم إلى آخر الحديث، حتى يختبر علمه في الفقه والحديث وأصولهما، فأخذه في شرح الحديث، وأتى بخمسة وعشرين فرقاً ورواية له وفسر كل رواية وفرق على حدة، وأورد الروايات الراجحة والضعيفة وأبهر الحاضرين، وأسكت وأخرس الحاقدين والمتقولين، وعندئذ قال السلطان لهم معرفاً بهم ومتهكماً: «هذا هو العالم الذي طعنتم في علمه وأشرتم إلى قصوره في الفقه والحديث وعلم الكلام».

إشادة العلماء به:

وإذا كان هذا هو موقف بعض علماء فاس من أبي عبد الله الشريف، فإن

آخرين وهم كثيرون، أشادوا به، وبعلمه، وبجهوده في تكوين الأجيال، وتنوير العقول وترقيتها.

فقد أشاد به عبد الرحمن ابن خلدون، ووصفه بالإمام العالم القدوة، فارس المعقول والمنقول وصاحب الفروع والأصول.

وقال عنه الونشريسي بأنه كان إماماً في العلوم العقلية، كلها منطقاً، وحساباً، وفرائض، وتنجيماً وهندسة، وموسيقى وتشريحاً، وفلاحة، وكثيراً غيرها من العلوم القديمة (علوم الحكمة).

وترجم له ابن السراج في فهرسته، وقال إنه بلغ في علمه درجة الاجتهاد. وعندما اعتزم أبو عبدالله الشريف الهجرة إلى تونس، قال عنه ابن مرزوق الخطيب، والجد، لقد كرهت فراقه ولكن أحمد الله على رؤية أهل إفريقيا، ويعني بها تونس مثله من علماء المغرب، ويعني به المغرب الأوسط (الجزائر) والمغرب الأقصى، لأنه سيبهرهم، ويسكتهم ويفحمهم.

وذكر ابن مرزوق الحفيد بأنه أعلم أهل عصره بالإجماع وقال عنه شيخه ابن عبد السلام، التونسي، ما أظن أن هناك في المغرب عالماً مثله.

ودرج لسان الدين بن الخطيب على إرسال كل مؤلف له يتمه إليه ليقرضه ويكتب عليه بخط يده، واعتاد شيخ شيوخ الأندلس العلامة أبو سعيد ابن لب، على استشارته والرجوع إليه في كل ما يشكل عليه من المسائل الفقهية، والعلمية المختلفة.

وقال عنه شيخه محمد بن إبراهيم الآبلي: هو أوفر من قرأ على عقلا، وأكثرهم تحصيلاً، وكان من عادته عندما يشكل أمر من الأمور على طلبته، أن يقول لهم، انتظروا به أبا عبدالله الشريف.

وذكر الشيخ أبو يحيى المطغري بأن السلطان أبا عنان طلب يوماً من الفقيه الحافظ القاضي أبي عبدالله المطغري أن يقوم بإلقاء درس في التفسير في مجلس علمائه، وبينهم أبو عبدالله الشريف فامتنع وقال له: أن أبا عبدالله الشريف أولى مني بذلك، وعندما كرر السلطان رجاءه له بالغ في التمنع والاعتذار قائلاً: لا يمكن لي أن أقرىء بحضرة أبي عبدالله الشريف، لأنه أعلم مني، فقبل السلطان اعتذاره، وطلب من أبي عبدالله الشريف أن يقوم، واضطر السلطان خلال

الدرس أن ينزل من السدة التي كان يجلس عليها، وينضم إلى الجالسين من العلماء على الحصائر، وفي نهاية الدرس قال السلطان للجالسين حوله لكأني أرى العلم يخرج من منابت شعره.

وكان كبير فقهاء فاس موسى العبدوسي شديد الحرص على تقييد كل ما يصدر من أبي عبدالله الشريف من فتاوى، وأحاديث وقضايا علمية، رغم أنه كان أكبر منه سناً.

ودأب الفقيه المحدث القاضي أبو علي منصور ابن هدية القرشي على القول بأن كل فقيه قرأ في زماننا هذا، أخذ ما قدر عليه من العلم، وتوقف، إلا أبا عبدالله الشريف الحسني، فإن اجتهاده يزيد باستمرار والله أعلم حيث ينتهي.

بعض تآليفه:

ويبدو أن كثرة اشتغال أبي عبدالله الشريف بالتعليم والتدريس، والإقراء، عاقته على الاهتمام بالكتابة، والتأليف، على عكس غيره من علماء عصره، كابن مرزوق الخطيب، وابن مرزوق الحفيد، وابن خلدون، ومع ذلك خلف بعض الكتابات ولو قليلة منها.

1) مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، وطبع بتونس عام 1346 هـ (1927 ـ 1928 م) ووضع الشيخ عبد الحميد بن باديس ملخصاً عنه لطلبته بقسنطينة يوم أن كان يقوم بالتدريس.
2) شرح على جمل الخونجي في علم المنطق.
3) كتاب في القضاء والقدر.
4) كتاب في المعارضات (أو المعاطاة).
5) فتاوى ورسائل وأجوبة على مسائل علمية مختلفة أجاب بها عالم تونس الشيخ يحيى الرهوني.

وفاته:

واصل أبو عبدالله الشريف مهنة التعليم والتدريس والإقراء، والوعظ، والإرشاد، بالمدرسة اليعقوبية في تلمسان حتى توفي ليلة الأحد الرابع (4) ذي

الحجة عام 771 هـ (29 جوان 1370) عن عمر 61 عاماً، ودفن بالمدرسة اليعقوبية في تلمسان التي سيدفن بها فيما بعد تلميذه الشيخ إبراهيم المصمودي عام 805 هـ (1402 م) وسار السلطان أبو حمو موسى الثاني في جنازته، وتأسف لفقدانه كثيراً، وقال لابنه أبي محمد: ما مات من خلفك أنت، ولكن مات أبوك لي أنا، لأني كنت أباهي به الملوك والأمراء.

وعندما سمع الفقيه ابن عرفة التونسي بخبر موته تأسف كثيراً وقال: لقد ماتت بموته العلوم العقلية.

وبعد دفن أبي عبدالله الشريف قام السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني بتعيين ابنه أبي محمد في مكانه مدرساً في تلك المدرسة اليعقوبية ورتب له ما يلزمه من الأموال، والوسائل ليواصل التعليم، وتكوين الأجيال.

علماء أسرة العقباني التجيبيون التلمسانيون

تنتمي أسرة العقباني إلى قرية عقبان بالأندلس، وتنتسب إلى تجيبة والتجيبيين، ولا ندري بالضبط متى هاجرت إلى تلمسان، ولكن يبدو أن ذلك تم في فترة الاضطرابات التي عمت البلاد الأندلسية، بعد أن استفحل خطر النصارى الإسبان.

وعندما استقر بها المقام بتلمسان، اشتغلت بالعلم والثقافة على غرار الأسر العلمية الأخرى التي برزت في هذه الفترة خلال القرنين الثامن الهجري، والرابع عشر الميلادي، ونبغ منها علماء فضلاء، خاصة في ميدان القضاء والتشريع الإسلامي، كان لهم تأثير بالغ في الحياة الفكرية: الدينية والأدبية واللغوية، سواء بتلمسان أو باقي أصقاع المغرب الإسلامي، والأندلس وتولوا مناصب القضاء بتلمسان، وفاس، وبجاية، وسلا، ومراكش، وغيرها. ويمكن أن نميز منهم العلماء، والقضاة، التالية أسماؤهم الذي سنفرد لكل منهم ترجمة مناسبة:

1) سعيد بن محمد بن محمد العقباني.

2) قاسم بن سعيد بن محمد العقباني.

3) أحمد بن قاسم العقباني.

4) إبراهيم بن قاسم العقباني.

5) محمد بن أحمد بن قاسم العقباني.

القاضي أبو عثمان سعيد بن محمد العقباني

ولد أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد العقباني بمدينة تلمسان عام 720 هـ (1320 م). وحفظ القرآن الكريم في صغره، وانكب على الدراسة وتعلم العلوم والمعارف العربية الإسلامية، كالنحو، والصرف، والبلاغة والتفسير، والفقه، والحديث، والأصول، على علماء أجلاء، فتفقه على ابني الإمام: أبي زيد عبد الرحمن، وأبي موسى عيسى، ودرس عليهما عدة كتب في الفقه والحديث، ودرس علم الأصول على أبي عبدالله محمد بن إبراهيم الآبلي، وتضلع فيه وفي الفقه والحديث، حتى أصبح من الفقهاء المبرزين في مذهب الإمام مالك.

ودرس علم الفرائض وتقسيم التركات على الحافظ السطي، وروى كتاب البخاري، والمدونة في الحديث على السلطان، أبي عنان الذي رواهما بدوره على العالم الحافظ عز الدين ابن جماعة.

وبعد أن تضلع في مختلف العلوم والمعارف الإسلامية الأدبية والدينية تصدى للتدريس في مساجد تلمسان ومدارسها، وفي عدة مدن أخرى كبجاية ووهران، وسلا، ومراكش، وتولى منصب قضاء الجماعة في هذه المدن كلها وبقي في هذا المنصب أكثر من أربعين عاماً، رغم وجود علماء أجلاء مثله، وهذا يثبت تفوقه، وكفاءته، ويبرر استحقاقه اللقب الذي أطلق عليه وهو: «رئيس العلماء والعقلاء». ومن الذين درسوا وتتلمذوا عليه: ابنه قاسم العقباني، والإمام أبو الفضل ابن الإمام، وعبد الرحمن بن خلدون، وأخوه يحيى وابن مرزوق الحفيد، وإبراهيم المصمودي، وأبو يحيى الشريف، وأبو العباس أحمد ابن زاغو، ومحمد بن عقاب الجذامي، وهذا الأخير أجازه، والحافظ التنسي.

وخلال اشتغال أبي عثمان سعيد العقباني بالتدريس، شرح، وألّف عدة كتب، فشرح جمل الخونجي في المنطق، والتلخيص لابن البناء، وقصيدة ابن الياسمين في الجبر والمقابلة، والعقيدة البرهانية في أصول الدين وفسر سورة

الفاتحة، والأنعام، والفتح، وألف شرحاً على الجُوفي.

تولى منصب قاضي الجماعة بمدينة وهران مدة من الزمن، كما تولاه في تلمسان وبجاية، ومراكش، وسلا. وتوفي القاضي سعيد العقباني عام 811 هـ (1408 ـ 1409 م) عن عمر 91 عاماً، ودفن في مقبرة السلاطين الزيانيين[1].

القاضي أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني

لم تذكر المصادر متى ولد قاسم بن سعيد العقباني، ولكن يبدو أنه ولد في أواخر القرنين الثامن الهجري، والرابع عشر الميلادي، وحفظ القرآن الكريم، وأتقنه على والده، ودرس عليه علوماً أخرى كذلك، كما درس على علماء آخرين، وتفقه حتى تضلع ووصل إلى درجة الاجتهاد في مذهب مالك وغيره.

وقد حصلت بينه وبين ابن مرزوق الحفيد العجيسي مناقشات حادة حول مسائل فقراء الصوفية، فوضع الأخير كتاباً سماه: النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل الناقص، رد فيه على قاسم العقباني، وحاججه بأسلوبه، وآرائه التي يؤمن بها بقطع النظر عن صحتها أو عدم صحتها.

تضلع قاسم العقباني في علوم المعقولات والمنقولات، وتولى منصب قاضي الجماعة بتلمسان على غرار أبيه سعيد، وذلك في وقت مبكر من حياته يوم أن كان شاباً يافعاً، وهذا مما يؤكد تضلعه في علوم الشريعة وأصول الدين، وحذقه لغيرها بالتبعية.

وفي عام 830 هـ (1426 ـ 1427 م) سافر إلى المشرق الإسلامي لأداء فريضة الحج، فزار مصر، وحضر دروساً من أملاء ابن حجر العسقلاني واستجازه فأجازه، وحضر دروساً أخرى على العلامة البساطي. ووضع تعاليق على كتاب ابن الحاجب الفرعي، وأرجوزة في أذكار الصوفية وتراتيلهم لأنه كان

---

(1) ابن مريم: البستان. ص 106 ـ 107. وممن ترجم له كذلك: ابن فرجون، وابن خلدون عبد الرحمن وأخوه يحيى، والرحالة أبو علي الحسن، والأب بارجيس، وليفي بروفانسال. وجان كازناف. وعبد الرحمن الجيلالي.

يميل إلى الحياة الصوفية، ولا شك أنه زار عدة بلدان ومدن مشرقية خلال هذه الحجة. وبعد ذلك عاد إلى تلمسان وتصدى للتدريس ومزاولة منصب ووظيفة القضاء، وتتلمذ عليه علماء كثيرون أمثال، الإمام أبي العباس، وأبى البركات النايلي، وولده القاضي أبي سالم العقباني، وحفيده القاضي محمد بن أحمد العقباني، وأبي زكرياء المازوني، والونشريسي، والشيخ ابن زكري، ومحمد ابن مرزوق الكفيف.

وأثنى الكثير منهم عليه، وأكدوا على غزارة علمه وعمق ثقافته ومنهم محمد بن العباس التلمساني، وأبو زكرياء يحيى المازوني، والحافظ التنسي الذي قال عنه بأنه وحيد دهره وفريد عصره.

ومما قاله عنه تلميذه الرحالة القلصادي هو: أنه الفقيه الإمام المعمر ملحق الأصاغر بالأكابر، العديم النظراء والأقران، المرتقي ذروة الاجتهاد بالدليل والرهان، انفرد بفني المعقول والمنقول، واتحد في علمي اللسان والبيان، وهو فيما عداه من الفنون يفوق الصدور ويفيض على مزاحمة البحور ولي خطة القضاء بتلمسان في صغره، ورأى أمله من ذريته في كبره، وأحرز في العلوم قصب السبق وحازه، وقطع فيه صدر العمر واستقبل أعجازه. عكف على تعليم العلوم، وعطف على تدريس المعدوم منها والمعلوم، فأفاد الأفراد، وأقنع الجهابذة النقاد، وأسمع الأعلام ما اشتهى كل منهم وأراد. فسمعت منه، وأخذت عنه، ولازمته بعد وفاة سيدي أحمد بن زاغو إلى أن ارتحلت من تلمسان، ولما عدت إليها وجدته حياً، فقرأت عليه مختصر ابن أبي زيد للمدونة، ومختصر خليل، والحكم لابن عطاء الله، وشرحها لابن عباد والحوفي بطريق الصحيح، والمكسور، والمناسخات، من شرح والده سعيد، ومختصره في أصُول الدين، وغيرهما، وحضرته في كتب متعددة في علوم شتى.

وكانت أخلاقه رضي الله عنه حسنة، ومرضية، قبل أن يرى مثلها توفي في شهر ذي القعدة من عام 854 هـ (1450 م) وصلي عليه في الجامع الأعظم،

وحضر جنازة السلطان وعلية القوم، وكل العلماء، والفقهاء، وكان يوماً مشهوداً"[1].

القاضي أبو العباس أحمد بن قاسم العقباني

لم نجد فيماعدنا إليه من كتب التراجم، من ترجم له وتحدث عن حياته ولو بإيجاز واكتفى صاحب البستان بذكر توليه وظيفة القضاء بتلمسان ونقل عن أبيه قاسم العقباني بأنه توفي عام 840 هـ (1436 ـ 1437 م)، أي أنه توفي قبل أبيه بأربعة عشر عاماً كاملة، وهذا يعني أنه تولى القضاء في عهد أبيه، وقد يكون ذلك خلال رحلته إلى الحج.

وذكر أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج، بأن لأحمد بن قاسم العقباني هذا ولداً اسمه عبد الواحد تولى وظيفة قاضي الجماعة هو الآخر وتوفي عام 896 هـ (1490 ـ 1491 م)[2].

القاضي أبو سالم إبراهيم بن قاسم العقباني

ولد إبراهيم بن قاسم العقباني بمدينة تلمسان عام 808 هـ (1405 ـ 1406م) وحفظ القرآن الكريم على والده قاسم العقباني، ودرس عنه العلوم والمعارف الأخرى الأدبية والدينية، خاصة مادة الفقه الإسلامي ودرس على علماء آخرين كذلك حتى صار علماً من الأعلام فتصدى للتدريس والتعليم، والتأليف كغيره من علماء العصر، والتف حوله طلبة العلم للارتواء من معارفه، ومنهم، أبو العباس الونشريسي الذي استفاد منه كثيراً في ميدان الفقه، ونقل عنه فتاوى عديدة في كتابه المعيار الذي ألفه فيما بعد.

وكذلك فعل المازوني في نوازله، ونقل عنه فتاوى كثيرة، وذكر الشيخ أحمد زروق بأن أحمد قاسم العقباني كان فقيهاً متضلعاً، تولى منصب قاضي الجماعة بتلمسان بعد أن عزل عنه ابن أخيه محمد بن أحمد بن قاسم العقباني،

---

(1) نفس المصدر. ص 147 ـ 149.

(2) نفس المصدر. ص 51.

وذكر كذلك بأنه كان هو وأبوه قاسم يستنكران بشدة على ابن العربي إباحته إرسال الريح في المساجد.

توفي إبراهيم العقباني بتلمسان عام 880 هـ (1475 ـ 1476 م) ودفن بها، بعد أن قضى جل عمره في التدريس، والتعليم والإفتاء[1].

القاضي محمد بن أحمد بن قاسم العقباني

ولد محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني بمدينة تلمسان، ولم تذكر المصادر متى ولد بالضبط، ولكن يبدو أنه ولد في مطلع القرن التاسع الهجري أو آخر القرن الثامن قبله، وحفظ القرآن الكريم في صغره، ودرس على جده الإمام قاسم العقباني، وعلى علماء آخرين، العلوم العربية الفقهية واللغوية والأصولية، وتضلع مثل جده، ووالد جده، في مادة الفقه الإسلامي، وأصبح له باع في الإفتاء والنوازل تولى منصب القضاء بتلمسان، ودرس عليه أبو العباس الونشريسي وأحمد بن حاتم، وغيرهما، واهتم بعلم التصوف مثل جده قاسم العقباني فدرسه وبجل رجاله، وتصوف مثلهم[2].

وقد عاش محمد بن قاسم العقباني عدة أحداث سياسية وذهب إلى تونس سفيراً من قبل السلطان الزياني واشترك مع بعض وجوه تلمسان في توقيع الصلح مع سلطان تونس الحفصي عندما غزا تلمسان، وردوا الخطر عن المدينة وسكانها مرتين اثنين في أقل من عشر سنوات.

القاضي محمد العقباني يترأس وفد الصلح

لقد كانت أطماع السلاطين الحفصيين بتونس في هذه الفترة شديدة على تلمسان وإمارتها، ويستغلون أية فرصة للتدخل في شؤونها الداخلية، والانقضاض عليها كلما أمكن ذلك. ففي ربيع الأول عام 866 هـ (1464 م) قام الأمير محمد بن محمد بن أبي ثابت بفرض سيطرته على مدينة تلمسان،

(1) نفس المصدر. ص 57 ـ 58.

(2) نفس المصدر. ص 224.

وأخرج منها صاحبها وأميرها أبا العباس أحمد بـن أبي حمو، عم أبيه، فأنزوى بالعباد فترة من الزمن ثم رحل إلى الأندلس.

وعندما سمع سلطان تونس الحفصي أبو عثمان بن محمد ابن أبي فارس عبد العزيز بالأمر، قرر أن يغزو تلمسان ليؤدب هذا الأمير الجديد فخرج على رأس قواته من تونس في شهر شوال من نفس العام، ومر على مدينة قسنطينة، وعرج على جبال الأوراس، وحاصر قلعة أولاد حليمة حتى اقتحمها، ثم واصل سيره غرباً نحو مدينة تلمسان وعندما وصل إلى بني راشد وفد عليه عرب سويد، وبنو يعقوب، والذواودة، وبنو عامر وأعلنوا له طاعتهم وخضوعهم، فتقبل منهم ذلك، وفرق قواده في معظم أنحاء وأطراف تلمسان حتى يأخذوا من الناس البيعة، والجباية. وبينما هو يستعد للتقدم إلى تلمسان واقتحامها حضر إليه منها وفد من ثلاثة شيوخ هم الشيخ أبو العباس أحمد بن الحسن، والفقيه أبو عبدالله محمد بن أحمد بن قاسم العقباني مترجمنا، وأبو الحسن علي بن حمو بـن أبي تاشفين، خال الأمير محمد المتمرد، والجالس على العرش واستظهروا له بعقد أمضاه عدد من أعيان تلمسان، يؤكد أن جميع ما يبرمونه معه من شروط ستكون ملزمة للأمير محمد ابن أبي ثابت، وطلبوا منه أن يكف عن عزمه غزوا المدينة، على أن يبايعوه نيابة عن صاحبها الذي سيدخل تحت طاعته، ويحكم تلمسان باسمه فقبل عرضهم ورجاءهم، وأعلن الأمير محمد طاعته له فرحل وعاد إلى تونس في شهر صفر من عام 867 هـ (1462 م)[1].

القاضي محمد بن أحمد العقباني يذهب سفيراً إلى تونس

وحتى يثبت الأمير الزياني حسن نيته أوفد إلى تونس وفداً من قبله يحمل هدية إلى صاحبها، تألف من القاضي محمد بن أحمد العقباني، ورجل من بني عمومته هو، ذهب إلى تونس في أواخر جمادى الثانية 868 هـ (1464 م)

---

(1) الزركشي. تاريخ الدولتين: ص 150.

وعندما وصل هذا الوفد إلى تونس وجد السلطان الحفصي مريضاً وفي غيبوبة، وعندما فاق من غفوته واستعاد وعيه أبلغ بخبر هذا الوفد التلمساني وبالهدية التي جاء بها إليه ففرح بها غاية الفرح، وأمر بتزيين الأسواق، والساحات العامة، ابتهاجاً بهذا الحدث السعيد، وفرح السكان كذلك واستبشروا أخيراً كما أكد ذلك الزركشي في كتابه، تاريخ الدولتين الموحدية، والحفصية.

وقد بقي محمد العقباني ورفيقه بتونس أربعة شهور كاملة وزيادة، ثم عاد إلى تلمسان في شهر ذي القعدة بهدية صاحب تونس وصحبهما مندوب من سلطان تونس يدعى، محمد بن فرج الغربي ليحضر تسليم الهدية، ويؤكد صداقة عرش تونس، لعرش تلمسان[1].

القاضي محمد العقباني

يفاوض سلطان تونس على عقد الصلح مرة ثانية

وكان من المفروض أن يسود السلام بين البلدين، وتدوم الصداقة بين العرشين الحفصي والزياني، ولكن الذين يصطادون في الماء العكر كثيرون فسعوا حتى أفسدوا العلاقات بين العرشين، ودفعوهما للتطاحن من جديد بعد أن أثاروا الشقاق والشكوك بينهما.

ففي عام 870 هـ (1465 ـ 1466 م) وفد على سلطان تونس أبي عثمان زعماء بني عامر، وسويد وغيرهم من أعراب تلمسان، وقدموا له شكاوى عديدة ضد أمير تلمسان الزياني محمد ابن أبي ثابت، وأكدوا له بأن هذا الأمير نكث عهده وبيعته للعرش الحفصي بتونس، وخابر محمد بن سباع، ومحمد بن سعيد بالأوراس والزاب، والزيبان، ليكونا في صفه وبجانبه، فيما إذا أقدم سلطان تونس على غزو تلمسان واقترحوا عليه أن يجهز جيشاً لغزو تلمسان ومعاقبة هذا الأمير العاصي، وأعطوا له وعداً ثابتاً ليؤيديوه، وينصروه.

قبل السلطان الحفصي عرضهم، وسمع لاقتراحهم، وعزم على غزو

(1) الزركشي: تاريخ الدولتين. ص 150 ـ 155.

تلمسان ومعاقبة الأمير العاصي المتمرد، فعين أبا جميل زيان بن عبد الواحد بن أبي حمو، أميراً جديداً لتلمسان، وكان يعيش آنذاك في تونس وكتب له عهداً بذلك أوائل شهر شوال من عام 870 هـ (1466 م)، وجهز له فرقة من الجنود، وزوده بالأسلحة الضرورية والأموال اللازمة وكلفه بالخروج إلى تلمسان، وأرسل معه قائده فرج الجبائي، والفقيه أحمد البنزرتي، وطلب من ابنه عبد العزيز أن يخرج معه كذلك ويصحبه إلى تلمسان، ووعدهم بأن يلحق هو بهم فيما بعد.

خرج هذا الأمير ومن معه من الرفاق والجنود من تونس واتجهوا إلى مدينة بجاية كمرحلة أولى، وفي 10 من شهر ذي القعدة 870 هـ (1466 م) خرج السلطان الحفصي نفسه ليلحق بهم، ومر على جبال الأوراس ففر أمامه محمد بن سباع، ومحمد بن سعيد، ومن معهما من الأنصار، والتحقوا بالمناطق الصحراوية الجنوبية، وتمكن هو من الاستيلاء على كثير من قلـع الأوراس وحصوها، ثم واصل سيره نحو تلمسان عبر الهضاب العليا، وبايعه سكان مدن، المدية، ومليانة، وتنس، وأرسل عساكره إلى عدة جهات لتأخذ له البيعة، وتقدم الضرائب والجبايات المالية المطلوبة.

وعندما وصل إلى ظاهر تلمسان في شهر ربيع الثاني عام 871 هـ (1466 م) اصطدم مع سكانها، وتقاتل معهم يوماً كاملاً، وتقدم حتى وصل إلى المنصورة، وشدد الحصار على المدينة، وجرى قتال عنيف بين الطرفين وحالت الأمطار، والوحل، وصمود السكان، دون سقوط المدينة في أيدي صاحب تونس الحفصي.

وعندئذ التجأ أعيان تلمسان كالعادة إلى الوسائل الدبلوماسية بإيعاز من الأمير الزياني، وتألف وفد للمفاوضة تزعمه القاضي محمد بن أحمد العقباني وخرج إلى معسكر السلطان الحفصي صبيحة يوم السبت وطلب منه العفو عما بدر منهم ومن الأمير الزياني وسلموا له عقد البيعة الذي حرروه، وكتب فيه الأمر الزياني محمد بن أبي ثابت بخطة ما نصه: «شهد على نفسه عبدالله

المتوكل عليه محمد لطف الله به ولا حول ولا قوة إلا الله» وأعلموه بأن الأمير محمد هذا قد أعطى ابنته البكر إلى الأمير أبي زكرياء يحيى بن المسعود الحفصي، دون أن يخطبها منه، وذلك من أجل ترسيخ أواصر القربى بين العرشين، وإزالة بذور الشقاق والخلاف بينهما.

فقبل سلطان تونس العرض، ورحل عن تلمسان، ورجع إلى بلاده تونس ووصل إليها في يوم 9 شعبان من عام 871 هـ (1467 م). ويعود الفضل في هذه المفاوضات وهذا الاتفاق إلى القاضي محمد بن أحمد بن قاسم العقباني الذي توفي بعد ذلك بعدة أشهر فقط وذلك في يوم 23 ذو الحجة عام 871 هـ (1467 م)، وقد ذكر الجيلالي وأحمد بابا التنبكتي بأن أحمد بن قاسم العقباني له ولد اسمه عبد الواحد العقباني تولى هو الآخر وظيفة القضاء بتلمسان وتوفي عام 896 هـ (1490 ـ 1491 م)[1] وهو على ما يبدو آخر أعلام هذه العائلة من القضاة والفقهاء.

(1) عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. (الجزائر. 1982) جـ 2. ص 174 ـ 175.

العلامة عبد الرحمن بن خلدون

(732 ـ 808 هـ ـ 1331 ـ 1406 م)

أصل أسرة ابن خلدون:

تنتمي عائلة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون إلى وائل بن حجر من أقيال عرب حضرموت باليمن، هاجر جده الأول خلدون بن عثمان من اليمن إلى بلاد الأندلس في صدر الفتح الإسلامي، واستقر بمدينة قرمونة مع جماعة من بني قومه الحضرميين فترة من الزمن، وكان له ولأسرته وأبنائه دور في الحياة والأحداث بها على مرّ الزمن ثم انتقلوا إلى إشبيلية، وانخرط البعض منهم في فرقة الجنود اليمنيين واشترك زعيمهم كريت وأخوه خالد في الثورة التي نشبت بإشبيلية ضد الأمير عبدالله المرواني الأموي أواخر المائة الثالثة للهجرة أي ما بين 280 و290 هـ (893 ـ 902 م) ولعبا دوراً بارزاً فيها، واستقل كريت بأمر إشبيلية مدة من الزمن ثم تآمر عليه إبراهيم بن حجاج وقتله.

وحسب رواية ابن حيان فإن أسرة ابن خلدون في إشبيلية بلغت درجة عالية في النباهة، وحازت الرياسة في العلم والسياسة واستمرت على ذلك طوال عهد الخلافة الأموية ولما تمزقت وحدة الأندلس، واختفت الخلافة وقام على أنقاضها ملوك وأمراء الطوائف، وبرز بإشبيلية بنو عباد، وتغلبوا عليها وعلى ما حولها من المدن والقرى وشيدوا إمارتهم بها، اتخذوا وزراء لهم من أسرة بني خلدون ووظفوهم في إمارتهم ودولتهم، فزاد ذلك في رفعة شأنهم، وعندما عبر يوسف بن تاشفين مضيق طارق إلى الأندلس لنجدة أمير إشبيلية من بني عباد وباقي أمراء الطوائف ضد النصارى الإسبان اشترك الخلدونيون معهم في معركة

الجلالقة (الزلاقة) واستشهد البعض منهم، وواصلوا دورهم السياسي في إطار السيادة المرابطية.

وعندما قامت الدولة الموحدية على أنقاض دولة المرابطين وفرضت سيطرتها على بلاد الأندلس اتصل زعماء أسرة ابن خلدون بولاتها، وأهدى المحتسب بن خلدون جارية جليقية تم سبيها قبل ذلك، إلى أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص عامل الموحدين بإشبيلية، فاتخذها أم ولد وأنجبت له ثلاثة أبناءهم: أبو يحيى زكريا، وعمر، وأبو بكر، ولقبت بأم الخلفاء وأسست مدرسة جامع الهواء بتونس بعد أن انتقل زوجها أبو زكرياء يحيى لحكم تونس، عام 620 هـ (1223 م) واستقل بها وأسس الدولة الحفصية، وسيكون هو السبب والدافع لهجرة أسرة ابن خلدون إلى تونس فيما بعد.

وعندما اضطربت أوضاع الأندلس السياسية، وثار بنو هود وتفككت سلطة الموحدين وتقوضت، وتكتل النصارى الإسبان على غزو واحتلال المدن والعواصم الإسلامية بها خاصة قرطبة، وإشبيلية، وجيان وما إليها من السهول والبسائط، ثار ابن الأحمر في حصن أرجونة بغرب الأندلس، وأخذ يسعى لفرض سيطرته على ما بقي من البلاد الأندلسية الإسلامية خارج سلطة النصارى، ففاوض ذوي الرأي والمشورة بإشبيلية من بني الجد، وبني الوزير، وبني سيد الناس، وبني خلدون، وعرض عليهم فكرة الثورة ضد بني هود، ومسالمة الطاغية النصراني الذي يحكم القرنتيرة والعمل على السيطرة والاحتفاظ بالجبال الساحلية وأمصارها الوعرة من مالقة إلى غرناطة والميرية فلم يوافقوه على خطته وكان على رأسهم أبو مروان الباجي فنابذهم وانفصل عنهم وخلع طاعة الباجي، وأخذ يتلاعب، فأحياناً يبايع بني هود، وأحياناً صاحب مراكش الموحدي، وأحياناً أبا زكريا يحيى الحفصي يتونس، ونازل غرناطة وسيطر عليها واتخذها عاصمة له، وترك القرنتيرة وأمصارها للطاغية النصراني.

فخشي بنو خلدون عاقبة هذه السياسة، وتخوفوا من أن يقوم الطاغية النصراني بغزو إشبيلية، فهاجروا إلى مدينة سبتة بالمغرب الأقصى وحصل ما

كانوا يتوقعونه فاحتل الطاغية مدن قرطبة، وإشبيلية، وقرمونة، وجيان، وما إليها في ظرف عشرين عاماً.

وعندما نزل بنو خلدون بسبتة، استقبلهم أميرها العزفي وأكرمهم، وأصهر لهم بأبنائه وبناته وارتبطوا معهم بدم المصاهرة وظهرت بينهما ذرية مشتركة، وكان الحسن بن محمد سبط ابن المحتسب جد بني خلدون على علم بسوابق سلفة لدى الأمير أبي زكريا يحيى الحفصي صاحب تونس، وقصة تلك الجارية الجليقية التي أهدوها له وأنجبت بنين، فاتجه إليه واستقبله وأكرمه، ومن هناك سافر إلى الحجاز وأدى فريضة الحج ثم عاد إلى تونس، ولحق بالأمير الحفصي أبي زكرياء يحيى بعنابة فأكرمه وبجله واعتنى بأمره وأقطعه بعض الأراضي وفرض له الأرزاق الضرورية، وبقي بعنابة حتى توفي عام 467 هـ 1249 م ودفن بها وحظي ابنه أبو بكر محمد بنفس الرعاية والعناية لدى السلطان المستنصر الحفصي بتونس، ولدى ابنه من بعده أبي إسحاق عيسى الذي عينه في منصب ووظيفة كبيرة بالدولة وأوكل إليه مهمة الانفراد بولاية العمال وعزلهم، ومحاسبتهم على أموال الجباية فاضطلع بالمهمة وأداها على ما يرام.

وبعد وفاته عقد الأمير أبو إسحاق إلى ابنه محمد بن أبي بكر وهو الجد الأقرب لعبد الرحمن بن خلدون على وظيفة الحجاية لابنه وولي عهده أبي فارس في بجاية، فتولاها مدة ثم طلب إعفاءه منها فأعفاه ورجع من بجاية إلى تونس، وعندما تمكن الدعي أحمد بن مرزوق ابن أبي عمارة من السيطرة على عرش تونس اعتقل أبا بكر محمد وصادر له كل أمواله وقتله خنقاً في سجنه يوم 28 شوال 681/ 1283 م وذهب ابنه محمد مع السلطان أبي إسحاق وأبنائه إلى بجاية فارين بأنفسهم، ومن هناك خرجوا مع الأمير أبي فارس لمواجهة الدعي أبي عمارة المسيلي ومقاومته والتحموا معه في معركة مرماجنة الكبيرة بفج الأبيار قرب قلعة سنان يوم الاثنين 3 ربيع الأول 682 هـ 1283 م وانهزموا ونجا محمد بن خلدون والأمير أبو حفص، والفزاري، وأبو الحسن بن سيد الناس، وفروا إلى قلعة سنان واعتصموا بها بعض الوقت حتى مرت العاصفة.

وعندما تمكن الأمير أبو حفص ابن أبي زكرياء من استعادة عرش أبيه بتونس وقضى على الدعي ابن أبي عمارة، أكبر موقف محمد ابن خلدون وأعاده إلى وظيفته كسابق عهده وأقطعه أراضي، ونظمه في سلك كبار قادة جيشه، واستكفى به في الكثير من أمور ملكه، ورشحه ليتولى منصب الحجابة له بعد الفزاري.

وعندما تولى أبو عصيدة عرش تونس اصطفى لحجابته واختار محمد بن إبراهيم الدباغ ومحمد بن خلدون، وبقي في وظيفته حتى هلك أبو عصيدة وخلفه الأمير أبو خالد، فرفع من شأن محمد بن خلدون وعظمه دون أن يسند إليه أية وظيفة، وبقي على حالته تلك إلى أن تولى ابن اللحياني أبو يحيى العرش فاصطفاه واتخذه مستشاراً له ومديراً لأموره عندما داهمته أحداث عرب بني هلال، وكلفه بحماية جزيرة جربة من أحداث وقلاقل قبيلة لاج التي تقطن بأحوازها، وتنتمي إلى بني سليم، فأدى المهمة كما يجب وسجلت له مآثر في هذا الميدان.

وعندما توفي ابن اللحياني، سافر محمد بن خلدون إلى الحجاز لأداء فريضة الحج عام 718 هـ (1318 م) وبعد أن عاد كف عن ممارسة الأمور السياسية، وتولى وظائف الدولة، ومال إلى حياة الزهد والتعبد وعاد إلى الحجاز مرة أخرى لأداء مناسك الحج عام 723 هـ (1323 م)، ولزم بيته بعد عودته، وأبقى السلطان أبو يحيى، له جراياته وإقطاعاته الأرضية، ووفر له الأموال، ودعاه مراراً ليتولى وظيفة الحجابة له فرفض وامتنع.

ولما توفي الحاجب المزوار عام 727 هـ (1327 م) دعاه السلطان ليتولى وظيفة الحجابة فرفض واستشاره فيمن يصلح لها فأشار عليه بصاحب ثغر بجاية محمد بن أبي الحسن بن سيد الناس، وأكد له بأنه أحق بذلك المنصب كفاءة ومقدرة، وكان بين العائلتين علاقة وطيدة بالأندلس وتونس، فأخذ السلطان برأيه واستدعى ابن السيد الناس من بجاية وأسند إليه وظيفة الحجابة ومع ذلك كلما خرج إلى جهة من الجهات للتفقد، يستخلفه في مكانه ليرعى

شؤون الدولة، وهذا يدل على علو مكانته ورفعة شأنه.

وقد بقي محمد بن خلدون على هذه الحال من الرفعة والمكانة حتى توفي عام 737 هـ (1336 م)، وخلف من بعده ابنه محمد والد عبد الرحمن بن خلدون، الذي آثر الدراسة والمرابطة على الوظائف السياسية، ولازم الشيخ العالم الفقيه أبا عبدالله الرندي الذي كان أكبر علماء تونس في العلوم والفتوى، والولاية في عهده، وأخذ عنه علوم الفقه والآداب العربية، والشعر وفنونه، وأصبح بحراً لا ساحل له، وتوفي بوباء الطاعون عام 749 هـ (1348 م).

ميلاد ونشأة عبد الرحمن بن خلدون:

ولد عبد الرحمن بن خلدون بن محمد في مدينة تونس يوم أول رمضان عام 732 هـ (1331 م)، وتربى في أحضان والده محمد، الذي أوكل أمر تعليمه إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن نزال الأنصاري البلنسي الذي علمه القرآن الكريم حفظاً ورواية على القراءات السبع إفراداً وجمعاً واستعرضه عليه إحدى وعشرين مرة، ثم جمعه عليه مرة أخرى في ختمة واحدة، ومرة ثانية على رواية يعقوب، وحفظ عليه لامية الشاطىء في القراءات السبع، والرائية في الرسم، وعرض عليه كتاب التفسير لأحاديث الموطأ لابن عبد البر الذي حذا فيه حذو كتابه: التمهيد على الموطأ مقتصراً على الأحاديث فقط، ودرس عليه كتباً أخرى جمة مثل التسهيل لابن مالك ومختصر ابن الخطيب في الفقه وغيرهما.

ودرس على والده علوم اللغة العربية وصناعة الشعر، وكذلك على الشيخ الحصايري، ومحمد الشواس المزازي وابن القصار النحوي وابن بحر اللغوي الذي أشار عليه بحفظ المزيد من شعر المعلقات.

ودرس على إمام المحدثين ابن جابر، كتاب مسلم بن الحجاج وكتاب الموطأ، وبعضاً من الأمهات الخمس، وهو الذي أعطى له كتباً كثيرة في الفقه والعربية ليقرأها، وأجازه إجازة عامة عنها.

ودرس الفقه على عدد من المشايخ أمثال: الحياني، ومحمد القصير، وقاضي الجماعة ابن عبد السلام، مع أخيه عمر بن خلدون الذي توفي فيما

بعد، واستفاد منه كثيراً، كما ذكر، ومن ضمن الكتب التي درسها واستعرضها التهذيب للبرادعي، ومختصر المدونة، وكتاب المالكية والموطأ لمالك.

وعندما غزا السلطان المريني أبو الحسن تونس عام 748 هـ (1347 م) صحب معه ثلة من العلماء، فاعتكف ابن خلدون على الدراسة عليهم والاستفادة من علمهم ومنهم: الشيخ السطي، وعبد المهيمن الحضرمي، وأبو العباس أحمد الزواوي، ومحمد بن إبراهيم الآبلي، وابن رضوان المالقي، وكلهم أفادوه في علوم كثيرة نقلية وعقلية دينية ولغوية، وأدبية، وأثنى عليهم جميعاً.

ابن خلدون يتولى وظيفة العلامة بتونس:

لقد انكب عبد الرحمن بن خلدون منذ صغره على الدراسة والتحصيل كما رأينا على جمهرة كبيرة من العلماء والشيوخ الأجلاء، فحصل على علوم ومعارف كثيرة وواسعة من مصادر مختلفة ومتنوعة، وعندما حدث وباء الطاعون عام 749 هـ (1348 م) توفي أبواه، والكثير من شيوخه وأساتذته فلازم الشيخ محمد بن إبراهيم الآبلي ثلاث سنين إلى أن رحل هو الآخر إلى المغرب الأقصى عام 752 هـ (1351 م) بطلب من السلطان أبي عنان، فبقي وحيداً ولكن الأقدار كانت ترعاه.

فقد استدعاه الوصي على عرش تونس أبو محمد بن تافراكين إليه وأسند له وظيفة العلامة وهي الحجابة للسلطان الحفصي أبي إسحاق الصبي الصغير فتولاها وكتب العلامة عن السلطان وهي: «الحمد لله والشكر لله بالقلم الغليظ ما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم».

وفي عام 753 هـ (1352 م) خرج ابن تافراكين والسلطان الحفصي لمواجهة صاحب قسنطينة الذي تمرد عليهما بدعم من عرب مهلهل، وأخذا معهما عبد الرحمن بن خلدون على كره منه لأنه كان يشعر بالوحشة بسبب فقده لوالديه ومعظم أشياخه، وكان يرغب في الهجرة إلى تلمسان والمغرب الأقصى، ولكن أخاه الكبير محمد صده على ذلك، وقد حضر ابن خلدون معركة مرماجنة بفج الأبيار قرب قلعة سنان، وشهد انهزام سلطان تونس وجيشه، فنجا بنفسه

إلى بلده «أبّه». وأقام مدة لدى الشيخ عبد الرحمن الوسناني أحد كبار المرابطين، ثم تحول إلى مدينة تبسة ونزل لدى صاحبها محمد بن عبدون وأقام عنده أياماً حتى هيأ له السفر مع رفيق من المغرب صاحبه إلى مدينة قفصة حيث أقام بها أياماً كذلك حتى قدم عليه فيها الفقيه محمد ابن الرئيس منصور بن مزني، من تونس وهو في طريقه إلى أخيه يوسف صاحب الزاب بمدينة بسكرة، فرافقه ابن خلدون إليها واتصل بأخيه يوسف بن مزني وبقي عنده مدة قصيرة.

وفي هذه الفترة كان السلطان المريني أبو عنان قد شرع في غزو مدينة تلمسان، فأخذ ابن خلدون طريقه إليها للالتحاق به، وعندما وصل إلى البطحاء التقى بالوزير ابن أبي عمر فرحب به، وأرجعه معه إلى مدينة بجاية التي كانت الأوضاع فيها مضطربة، فأصلح أمورها وهدأ أحوالها ووفدت عليه هناك وفود من تونس تهنئة بفتحها وكان ابن خلدون يشهد ويرى كل ما يحصل بها من الأحداث.

وعندما عاد ابن أبي عمر إلى تلمسان أخذه معه فأكرمه السلطان أبو عنان وأحسن إليه رغم صغر سنه ثم عاد مع ابن أبي عمرو إلى بجاية وأقام بها فصل شتاء عام 754 هـ وعاد أبو عنان إلى فاس.

ابن خلدون يتولى الكتابة لأبي عنان في فاس:

عندما عاد السلطان أبو عنان إلى فاس جمع حوله عدداً لا بأس به من العلماء، والشيوخ الفضلاء، واختصمهم بمجالسته، ومشاورته، فجرى ذكر ابن خلدون لديه وتكرر ذلك من طرف أصحابه وأصدقائه الذين كانوا يعرفونه بتونس، ومدحوه له، فأرسل رسالة إلى الحاجب ابن تافراكين وطلب منه أن يشخصه إليه، وهو ما كان ينتظره ويرجوه ابن خلدون، فشد الرحال إلى فاس عام 755 هـ (1354 م) وضمه السلطان إلى مجلس علمائه وألزمه على حضور الصلوات الخمس إلى جانبه، واستعمله في كتابة رسائله والتوقيع بين يديه مع أنه لم يكن يحب ذلك لأنه حسب قوله لم يكن يعهد ذلك في أسلافه وأجواده.

استغل ابن خلدون إقامته بفاس فانكب على الدراسة وإعمال النظر في

العلوم والمعارف المختلفة ووطد صلاته بالعلماء والمشايخ من أهل المغرب، والأندلس المقيمين هناك والوافدين في أغراض السفارات والمراسلات واستفاد منهم ومن علمهم، ومنهم محمد بن الصفار المراكشي إمام القراءات ومحمد المغربي التلمساني قاضي الجماعة بفاس، وأبو عبدالله الشريف التلمساني والقاضي محمد بن يحيى البرجي الأندلسي، ومحمد بن عبد الرزاق.

أبو عنان ينكب بابن خلدون:

حظي ابن خلدون بمكانة بارزة لدى أبي عنان رغم صغر سنه، وحداثة اتصاله وذلك بفضل نبوغه العلمي ونجاحه في أعماله الكتابية معه، وتفوقه في علومه ومعارفه، فظهر منافسون كثيرون له حقدوا عليه حضوته تلك، وأخذوا يحيكون ضده السعايات والمؤامرات وأعدوا من ينقلها إلى أبي عنان، فأصم في البداية أذنيه، ثم لما مرض واعتل آخر عام 757 هـ (1356 م) تأثر بتلك الوشايات ومال إلى تصديقها، وكان ابن خلدون على صلة صداقة بالأمير محمد صاحب بجاية السابق من طرف الموحدين، تعود أسسها إلى العلاقات الوطيدة بين عائلة ابن خلدون والموحدين بالأندلس وتونس ولم يكن حذراً في هذه الصلة مع الأمير محمد لأنه لم يكن يتوقع أن يرتاب منه السلطان أبو عنان.

وقد نقل الساعون إليه بأن الأمير محمد يعتزم الفرار من فاس ليسترجع إمارته ببجاية، وأن ابن خلدون داخله في ذلك ويؤيده فأمر السلطان باعتقاله هو والأمير محمد، وبعد مدة أطلق سراح الأمير وأبقى ابن خلدون في السجن فتأثر وتألم من ذلك ونظم قصيدة في استعطافه قال فيها:

على أي حال لليالي أعاتب	وأي صروف الدهر للزمان أغالب
كفى حزناً أني على القرب نازح	وأني على دعوى شهودي غائب
وأني على حكم الحوادث نازل	تسالمني طوراً وطوراً أسالم

وقال أيضاً:

سلوتهم إلا ادكار معاهد	لها في الليالي الغابرات غرائب
وأن نسيم الريح منهم يسوقني	إليهم وتصبيني البروق اللواغب

وهي تقع في أكثر من مائتي بيت، وعندما وصلت إلى السلطان أعجبته وتأثر بها وكان يومئذ بتلمسان ووعد بإطلاق سراحه عندما يعود إلى فاس ولكنه عندما عاد إليها مرض ومات ليلة 24 ذي الحجة 759 هـ (1358 م) قبل أن ينفذ وعده، فإطلق سراحه الوزير الحسين بن عمر مع جماعة أخرى من المعتقلين وعزم على العودة إلى بلاده تونس، ولكن الوزير تمسك به وأثناه عن عزمه وأعاده إلى ما كان عليه قبل سجنه وأكرمه وبجله وبقي على تلك الحال حتى تعرض الوزير إلى مشاكل مع المرنيين.

ابن خلدون يتولى الكتابة للسلطان أبي سالم بفاس:

على أثر وفاة أبي عنان بايع المرنيون منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، ونصبوه ملكاً وحاصروا الوزير الحسين بن عمر وسلطانه الصغير السعيد بن أبي عنان الذي فرضه فرضاً على العرش في البلد الجديد الذي يعرف بفاس الجديد.

وخلال هذه الأحداث بفاس حضر من الأندلس السلطان أبو سالم شقيق أبي عنان ونزل بجبل الصفيحة من بلاد عمارة وبدأ يسعى لاستعادة ملكه في فاس، فكاتب سراً محمد ابن مرزوق الخطيب وخاطبه في الأمر وناشده العون والمساعدة، وطلب منه كذلك أن يكاتب ابن خلدون في الأمر فاتصل به وأبلغه رغبة أبي سالم وألح عليه في الاستجابة لطلبه لأنه له صلة متينة وقوية بأشياح بني مرين، وما يزال كاتباً لمنصور بن سليمان الذي بويع حديثاً، فأجاب رغبة ابن مرزوق وأبي سالم الذي وعده بعدة أمور جزاء على عمله إن نجح، وتقدم إلى شيوخ بني مرين، وأمراء الدولة وحرضهم على نبذ طاعة الوزير وسلطانه أبي سعيد، ومبايعة السلطان أبي سالم، وبعث ابن مرزوق إلى الوزير الحسين بن عمر المحاصر في فاس الجديد يعرض عليه إعلان طاعته للسلطان أبي سالم، فقبل وأذعن بعد أن سئم وضجر من الحصار المفروض عليه وعلى أصحابه، واتفق بنو مرين على نبذ طاعة منصور بن سليمان والدخول إلى فاس الجديد.

وبعد أن تم تمهيد كل شيء اتجه ابن خلدون إلى جبل الصفيحة على رأس

عدد من وجوه الدولة، وأبلغ أبا سالم حالة البلاد والأوضاع بفاس وأخبره بفرار بني مرين وخلع منصور بن سليمان، وأحاطه علماً بالموعد الذي ضربوه للقائه، وحثه على التوجه بسرعة إلى فاس قبل أن تتغير الأمور ويحدث مالا يسر، فاتجه بصحبته ومن كان معهما إليها، واعترضهم في الطريق بشير أخبرهم بفرار منصور بن سليمان إلى باديس، ودخول بني مرين إلى فاس الجديد وإعلان الوزير الحسين بن عمر طاعته لأبي سالم، وعندما وصلوا إلى مدينة القصر الكبير لقيتهم قبائل السلطان وعساكره براياتهم والوزير مسعود بن رحو بن ماسي وزير منصور بن سليمان الذي فر إلى باديس، استقبله أبو سالم باللطف والاحترام واستوزره، وعندما وصل إلى فاس لقيه الوزير الحسين بن عمر في أحوازها وأعلن له طاعته وخضوعه.

فدخل السلطان أبو سالم إلى القصر بصحبة ابن خلدون في منتصف شعبان 760 هـ (1359 م) ورعى له جهوده في سبيل نجاحه وفوزه بالملك وعينه كاتباً لسره ولمراسلته مع الملوك والأمراء فأبدى براعته وتفوقه وبزمن سبقه في هذا الميدان وقال: «فرعى لي السابقة واستعملني في كتابة سره والترسل عنه والإنشاء لمخاطبته، وكان أكثر ما يصدر عنه بالكلام المرسل بدون أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع لضعف انتحالها وخفاء المعاني منها على أكثر الناس، بخلاف غير المرسل فانفردت به يومئذ وكان مستغرباً عند من هم من أهل هذه الصناعة».

وخلال عمل ابن خلدون لدى السلطان أبي سالم، اهتم بقول الشعر ونظمه، وانثال عليه منه بحور، حسب تعبيره خاصة في المناسبات الدينية والحوادث المهمة، كالمولد النبوي وعودة السلطان إلى عرشه، ووصول هدايا من ملك السودان وما إلى ذلك.

ابن خلدون يلتقي بلسان الدين ابن الخطيب:

وخلال هذه الفترة وفي شهر محرم من عام 761 هـ (1360 م) وفد على فاس سلطان غرناطة المخلوع الغني بالله، ووزيره لسان الدين بن الخطيب،

فارين ولاجئين بعد أن ثار عليهما الأمير إسماعيل واستولى على عرش غرناطة في رمضان 760 هـ (1359 م) فكانت فرصة لابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب أن يتعرفا على بعضهما البعض بصفة مباشرة، وكان كل منهما قبل ذلك يسمع عن صاحبه ويتوق إلى لقائه، وتجمع بينهما صفات وخصال عديدة مادية وفكرية وأدبية، فكل منهما أستاذ عصره في التفكير والكتابة وكل منهما شخصية بارزة في حوادث عصره يخوض غمارها ويتصل بها بأوثق الصلات، ويتقلب فيها بين الظفر والفوز، والمحنة والانكسار، وكلاهما كان وزيراً مستبداً ومستشاراً لأمراء وسلاطين عصره يعمل لصالحهم أو يحرض ضدهم.

فابن خلدون شغل في دول بلدن المغرب الإسلامي، نفس المركز والوظيفة التي كان يشغلها ابن الخطيب في الأندلس، واستأثر بزعامة التفكير والكتابة التي كان ابن الخطيب يستأثر بها في الأندلس وقد جمعت بينهما أوامر الحب والصداقة في البداية، ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس، ومع ذلك كان كل منهما يحترم الآخر ويجله، ويكبر مواهبه وخلاله، ومواقفه، وترجم كل منهما للآخر وذكره بما ينم عن خالص التقدير والإجلال، وتبادلا عدداً لا بأس من الرسائل الشخصية والسياسية تعتبر من أبدع نماذج النثر والترسل في ذلك العصر، وأورد ابن خلدون طائفة منها في تعريفه بآخر الجزء السابع من كتاب العبر، كما أورد ابن الخطيب والمقري، طائفة منها، كذلك، خاصة المقري في نفح الطيب.

ابن مرزوق يتآمر ضد ابن خلدون:

بقي ابن خدون صاحب حظوة ومكانة لدى السلطان أبي سالم عدة سنوات، ثم انقلب عليه ابن مرزوق الخطيب، والجد، وحقد عليه، وأثار ضده قلب السلطان، غيرة وحسداً وحل هو محله في حظوته ومكانته، فلاحظ ابن خلدون ذلك، ورأى جفاء السلطان وابن مرزوق معاً. فقلل من تحمسه للعمل واكتفى بما يلزم منه فقط، وأخذ حذره من مغبة الأمور، وقصر الخطو إلا ما يجب عمله «من كتابة السر، وإنشاء مخاطبته ومراسيمه» ومن أداء خطة المظالم

التي أسندت إليه في أواخر أيام السلطان، وقد ذكر أنه وفاها حقها، ودفع للكثير حقوقهم راجياً من الله الثواب.

وقد واصل ابن مرزوق سعاياته وتحريضاته ضد ابن خلدون وأمثاله من رجال الدولة، بعد أن أكلت الغيرة قلبه، وبدل أن يصيب ذلك ابن خلدون، لحق السلطان نفسه عندما قام الوزير عمر بن عبدالله بانقلاب ضده وقتله، وأجلس على العرش سلطاناً صغيراً تحت وصايته، ووفق إرادته.

وقد أقر الوزير عمر بن عبدالله، ابن خلدون في خطته ووظيفته وزاد في جرايته، عكس ما كان يود ابن مرزوق الذي أودع السجن، لأنه كان صديقاً له منذ أيام السلطان أبي عنان وكان ثالث الأثافي لهما في هذه الصحبة والصداقة: أمير بجاية أبو عبدالله محمد، حيث كانوا يتبادلون النكت والفكاهات والمراسلات فترة من الزمن، وكان ذلك سبباً في غضب أبي عنان على ابن خلدون وإدخاله السجن كما أسلفنا سابقاً.

ابن خلدون يرحل إلى الأندلس:

عمل ابن خلدون فترة من الزمن مع الوزير عمر بن عبدالله ثم غضب عليه وانقطع عن الذهاب إلى دار السلطان، ولم يوضح سبب غضبه فرد عليه الوزير بالإعراض عنه كذلك، فطلب ابن خلدون الإذن بالرحلة والعودة إلى بلاده تونس، ومنعه من ذلك واعترض عليه مخافة أن يغتبط بذلك أبو حمو موسى الثاني الزياني ويضمه إلى مجلسه بتلمسان التي استعادها واستعاد معها عرش آبائه وأجداده.

ولكن ابن خلدون أصر على مغادرة فاس، وتوسط بصهر الوزير مسعود بن رحو بن ماسي، ودخل عليه يوم عيد الفطر لعام 763 هـ (1362 م) وأنشد بين يديه قصيدة رائعة في المدح والثناء، وفي إداء رغبته في الرحيل والعودة إلى بلاده ومسقط رأسه، بتونس، ومما قاله في قصيدته:

ووالله ما رمت الترحل عن قلى ... ولا سخطة للعيش فهو جزيل

ولا رغبة في هذه الدار أنها ... ظل على هذا الأنام ظليل

ولكن نأي بالشعب عنا حبائب شجاهن خطب والفراق طويل

فأعانه الوزير بن ماسي على تحقيق رغبته، وأذن له بالسفر إلى حيث يشاء ما عدا تلمسان، فقرر أن يرحل إلى الأندلس، ووجه زوجته وأولاده إلى أخوالهم أولاد القايد محمد بن الحكيم بقسنطينة في فاتح عام 764 هـ (1362 م) وكتب لهم رسالة إلى صاحبها السلطان أبي العباس يستوصيه بهم خيراً، ويخبره بأنه سيذهب إلى الأندلس، ثم يلتحق بهم، وبعد ذلك غادر فاس واتجه إلى مدينة سبتة، ونزل عند صاحبها أبي عباس أحمد بن الشريف الحسني، ذي الأصل الصقلي، فاستضافه وأكرمه، وجهز له مركباً أو حراقة كما قال، شارك هو بنفسه في دحرجتها إلى مياه البحر، فأقلته إلى جبل الفتح الذي كان تحت سيطرة ملك المغرب وهو جبل طارق الحالي.

ومن هناك اتجه إلى غرناطة، وراسل السلطان أبا الأحمر ووزيره لسان الدين بن الخطيب يخبرهما بقدومه، فأرسل أليه ابن الخطيب فتى من قبله لمرافقته قبل ليلة من وصوله، ومعه رسالة إليه استهلها بالأبيات الشعرية التالية:

حللت حلول الغيث في البلد المحل على الطائر الميمون والرحب والسهل

يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه من الشيخ والطفل المعصب والكهل

لقد نشأت عندي للقياك غبطة تنشي اغتباطي بالشبيبة والأهل

وودي لا يحتاج فيه لشاهد وتقريري المعلوم ضرب من الجهل

وفي صباح يوم 8 ربيع الأول 764 هـ (1362 م) وصل ابن خلدون إلى غرناطة وفرح السلطان بمقدمه، وهيأ له منزلاً في قصره مفروشاً ومجهزاً بكل ما يلزم من الأثاث والأدوات وبعث للقائه بظاهر المدينة كل رجال دولته وخاصته فقادوه إلى قصر السلطان الذي استقبله بحفاوة بالغة ورحب به وخلع عليه عطاياه.

وبعد السلام والترحيب والتحية صحبه لسان الدين بن الخطيب إلى منزل الذي خصصه السلطان له، وتوثقت الصلة بعد ذلك بينه وبين السلطان الذي ضمه إلى أهل مجلسه واختصه بالمناجاة في خلواته، والمصاحبة في مواكبه،

والمواكلة والمفاكهة في خلوات أنسه.

ابن خلدون يذهب رسولاً إلى حاكم إشبيلية النصراني:

وفي عام 765 هـ (1363 م) وجهه سلطان غرناطة رسولاً وسفيراً من قبله إلى ملك إشبيلية النصراني الفونسو (بطرة بن الهنشة بن أذفونش) من أجل التفاوض لعقد صلح بين الطرفين وحمّله إليه هدية فاخرة من ثياب الحرير، والجياد، والمقربات بمواكب الذهب الثقيل، وعندما وصل إلى إشبيلية التقى بيدرو الطاغية، كما عبر عنه، فاحتفى به، وأثنى عليه لديه طبيبه اليهودي إبراهيم بن زرزور الذي كان يعرفه سابقاً في مجلس أبي عنان المريني بفاس، وعرفه بأن أصله من هذه المدينة إشبيلية، فعرض عليه الإقامة بصفة دائمة عنده، ووعده بأن يعيد إليه كل أملاك آبائه وأجداده التي هي في أيدي بعض كبار دولته، فشاهدها ابن خلدون، وتحسر وتألم في داخلية نفسه، وشكر عرض الطاغية، ولكنه اعتذر له عن ذلك، فزوده بهدية مماثلة للسلطان، وخصه هو ببغلة فارهة ذات مركب ثقيل، ولجام ذهبيين، أهداهما هو إلى السلطان بعد عودته، أقطعه هو مقابل ذلك قرية (البيرة) بأراضيها الفسيحة والمسقية في مرج غرناطة، وكتب له بذلك منشوراً.

وفي ليلة المولد النبوي الشريف حضر ابن خلدون الاحتفال بها على عادة ملوك وسلاطين المغرب، وأنشد في حضرة السلطان قصيدة طويلة في مدحه، ووصف إيوانه، ورحلته هو من المغرب إلى الأندلس، كما أنشده في مناسبة إعذار ولده عام 765 هـ (1363 م) وفي مولد الرسول لنفس العام كذلك. وبعد أن طاب له المقام بغرناطة اشتد حنينه لأهله وزوجته، وأولاده، فأمر السلطان باستقدامهم وكلف من جاء بهم من قسنطينة إلى تلمسان، وأمر قائد أسطوله بألميرية بأن ينقلهما من عدوة المغرب إلى هناك فتفقد الأمر وأحضرهم إلى ألميرية، وطلب ابن خلدون من السلطان أن يأذن لهم بالذهاب لملاقاتهم هناك فاتجه إليهم وصحبهم إلى حيث هيأ لهم المنزل، والبستان، ودمنة الفلح، وسائر ضروريات المعاش، وعندما اقترب بهم من قرطبة كتب رسالة إلى ابن الخطيب يستأذنه في القدوم عليه.

ابن خلدون يتولى منصب الحجابة ببجاية:

وخلال إقامة ابن خلدون بغرناطة كثر خصومه والحاقدون عليه بسبب حظوته، فأخذوا يسعون ويشون ضده لدى الوزير لسان الدين بن الخطيب، وزينو له بأنه يسعى لإثارة حقد السلطان ضده، فتحركت في نفسه الغيرة وتنكر له بعد أن رحب به في البداية، وانقبض عليه، وهو صاحب الأمر والنهي في غرناطة.

فتخوف ابن خلدون من سوء العاقبة، وكان حريصاً على ألا تفسد علاقاته به، وألا تتكرر مأساة فاس مع ابن عنان فاغتنم اتصاله برسالة من صاحب بجاية الأمير أبي عبدالله محمد، يخبره فيها بأنه استعاد عرشه في رمضان عام 765 هـ (1364 م) وطلب منه الحضور إليه فاستأذن من السلطان ابن الأحمر في الارتحال إليه واللحاق به، ولم يشعره بجفاء ابن الخطيب له، فتردد في الموافقة ثم أذن له على مضض، وودعه بعد أن كتب له مرسوماً لتشييعه من إملاء لسان الدين بن الخطيب حث فيه المسؤولين براً وبحراً على أن يذللوا له كل الصعاب، ويوفروا كل الوسائل حتى يصل إلى مقصده، وتاريخه يوم 19 جمادى الأولى 766 هـ (1365 م) وكان أخوه يحيى بن خلدون في هذه الفترة يعمل حافظاً للرسوم لدى صاحب بجاية بأمر وإشارة من السلطان أبي سالم قبل وفاته، كما أن عبد الرحمن ابن خلدون ساعد الأمير أبا عبدالله على استعادة إمارته ببجاية وتعهد له بأن يسند له وظيفة الحجابة، التي شرحها بقوله: «ومعناها في دولنا بالمغرب الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته لا يشاركه في ذلك أحد» وذلك بعد أن أقنع السلطان أبا سالم بأن يطلق سراحه ويأذن له في العودة إلى بجاية لاستعادتها.

ركب ابن خلدون السفينة من ميناء ألميرية في منتصف عام 766 هـ (1365 م) ووصل إلى بجاية بعد خمسة أيام، وتلقاه وجهاء الدولة بغاية الترحاب، واصطف الجميع للقائه ورؤيته، وتقبيل يده ومسح أعطافه وكان يوماً مشهوداً، واستقبله السلطان بكل ما ينبغي من الاحترام والتبجيل وخلع عليه

العطايا وأسند إليه وظيفته في اليوم الموالي لوصوله، فاستقل بتدبير سياسة الدولة وبذل جهوده في تدعيمها وعينه السلطان إلى جانب ذلك خطيباً في جامع القصبة طوال مدة إقامته ببجاية.

وقد حضر ابن خلدون الحروب التي حصلت بين أمير بجاية أبي عبدالله محمد وابن عمه أمير قسنطينة أبي العباس، وكان من ضمن أسبابها مشاكل الحدود التي أثارها الذواودة، وتولى ابن خلدون بنفسه مهمة إقناع القبائل بدفع أموال الجباية له حتى يصلح أموره بعد أن انهزم أمام ابن عمه صاحب قسنطينة.

وبعد انتهاء هذه الحروب الدامية أرسل أمير تلمسان إلى الأمير أبي عبدالله ببجاية يطلب منه يد ابنته فزوجها له ليستعين به ضد ابن عمه أبي العباس أمير قسنطينة ولكن أبا العباس هذا سبق الحوادث وشن حملة عسكرية خاطفة على بجاية عام 767 هـ (1365 م) واحتلها بدعم وتأييد عرب صدويكش، ورياح وابن صخر، وقتل الأمير أبا عبدالله، وتخلص منه، وكان ابن خلدون خلال الهجوم على بجاية يوجد في قصبة المدينة حيث قصر السلطان فطلب منه أهل البلد أن يقوم بالأمر ويبايع بعض أبناء الأمير القتيل، فتفادى ذلك وفضل أن يخرج إلى الأمير أبي العباس ويمكنه من المدينة، وهو ما فعله فأكرمه على تصرفه هذا وأبقاه في منصبه لتسيير الأمور كعادته.

ابن خلدون يرحل إلى بسكرة:

غير أنه سرعان ما كثرت الوشايات والسعايات ضده وحذر الحاقدون عليه، الأمير أبا العباس، وخوفوه منه، فشعر ابن خلدون بالمخاوف وطلب منه الإذن بالرحيل بواسطة عهد منه سابقاً، فأذن له بعد أن تمنع وغادر بجاية في الحال ونزل لدى يعقوب بن علي، ثم أن السلطان سرعان ما غير رأيه فيه وأسرع لاعتقال أخيه يحيى وسجنه بمدينة نابة وقام رجاله باقتحام منزل ابن خلدون وأخذوا يبحثون عن الذخائر والأموال التي قيل له بأنه يخبئها عنده، فلم يعثروا على أي شيء، وخاب ظنهم وظن الأمير معهم واكتشفوا كذب الواشين.

أما ابن خلدون فقد غادر منزل يعقوب بن علي، واتجه إلى بسكرة،

وقصد شيخها أحمد بن يوسف بن مزني الذي كان صديقاً له، ولأبيه فأكرم وفادته وسلاه وقدم له كل ما يلزم من المواساة، والتبجيل والاحترام.

ابن خلدون يشايع أبا حمو الزياني بتلمسان:

كان أبو حمو موسى الثاني قد صاهر الأمير أبا عبدالله محمد وأمير بجاية، وتزوج ابنته يوم أن كان ابن خلدون هناك ببجاية، وعندما قتل أبوها أبو عبدالله في جبل أيزم بضواحي بجاية على أيدي ابن عمه أبي العباس أمير قسنطينة كما سبقت الإشارة، امتعض أبو حمو من ذلك خاصة بعد أن التف السكان حول السلطان الجديد وآزروه، وكانوا قبل ذلك داخلوا أبا حمو ليساعدهم على رد بطش صهره عليهم، كما داخلوا أيضاً أبا العباس صاحب قسنطينة الذي ساعده الحظ على الظفر بإمارة بجاية.

غضب أبو حمو مما حصل لصهره، وعزم على غزو بجاية وافتكاكها من أبي العباس لأنها إمارة صهره، ولكونه كان يرى نفسه أجدر بها عدة، وعدداً، وماضياً، فأعد جيوشه وسار إليها وعسكر بالرشة لدى بني عبد الجبار قرب بجاية وكان معه جموع من زغبة، وبني عامر، وبني يعقوب، وسويد، والديالم، والعطاف، وحصين.

ودافع سكان بجاية دفاعاً مستميتاً، وبعث أبو العباس في طلب أبي زيان عم أبي حمو الذي كان معتقلاً بقسنطينة ليدفعه ضد عمه الذي كان خصماً له ويسعى للإطاحة به والاستحواذ على عرش تلمسان، كما طلب من قائد جيوشه بشير، أن يخرج إلى بني عبد الجبار ليحارب أبا حمو في معسكره بالرشة وينقض عليه.

وكانت نتيجة هذه التحركات إلحاق الهزيمة بأبي حمو وفراره إلى تلمسان وكان قد علم سابقاً بمغادرة ابن خلدون لبجاية، وقيام الأمير أبي العباس بسجن أخيه يحيى بن خلدون بعنابة، واقتحام منزلهما ببجاية وتفتيشه من الأسلحة والذخائر بسبب وشايات من بعض الموتورين.

ولذلك كتب أبو حمو رسالة إلى ابن خلدون طلب منه الحضور إليه

بتلمسان قبل أن يخرج إلى بجاية وكان في نيته طبعاً أن يستغله ويستغل نفوذه، وغضبه في نفس الوقت مما حصل له ولأخيه وأسرته، ولكن ابن خلدون تروي في الأمر وكان يرى أن الأمور غير مستقرة وأحس بما حدث فيما بعد فاعتذر لأبي حمو وبقي لدى أحياء يعقوب بن مزني ببسكرة.

ولكن أبا حمو لم يتوقف عن المحاولة فسعى لاستمالة قبائل رياح وكتب إلى ابن خلدون مجدداً يطلب منه استعمال تأثيره على تلك القبائل والأعراش وإقناعها بالعمل معه، ودعاه في نفس الوقت ليتولى منصب الحجابة والعلامة لديه كإغراء لإقناعه بالقبول، لأنه كان يعول عليه في تحقيق ما يريد خاصة استمالة القبائل والأعراش المشار إليها آنفاً، وتاريخ رسالة أبي حمو إليه هو 17 رجب 769 هـ (1368 م).

وقد اتصل ابن خلدون بهذه الرسالة ورسائل أخرى عن طريق رسول بعثه أبو حمو إلى أشياخ الذواودة، فأجاب رغبته فيما يخص استمالة القبائل فحثها على نبذ طاعة أبي العباس ومشايعة أبي حمو صاحب تلمسان، وأجابت وامتثلت لما طلبه منها.

أما ما يخص وظيفة الحجابة فإن ابن خلدون اغتنم فرصة فرار أخيه يحيى من سجن عنابة والتحاقه به في بسكرة، فأرسله عوضاً عنه إلى تلمسان ليتولى تلك الوظيفة، وتفادى هو الذهاب بنفسه لأنه لم يكن مطمئناً للأوضاع السياسية السائدة بها، ثم أنه كان يعزف حسب قوله: «على الخوض في أحوال الملك، وشؤون السياسة، وغواية الرتب» ويميل إلى العودة إلى حقول العلم والمعرفة للتدريس، والتأليف، والكتابة.

وعندما وصل يحيى بن خلدون إلى تلمسان باشر وظيفته وقام بها خير قيام، وتكلف بإرسال رسائل أخيه عبد الرحمن إليه، التي كانت تصله من أصدقائه وزملائه بواسطة رسل سلطان غرناطة إلى تلمسان، ومنها رسالتان من لسان الدين بن الخطيب السلماني إحداهما بتاريخ 2 جمادى الأولى 768 هـ (1368 م) حدثه فيها عن أوضاع الأندلس السياسية ونشاط الغزاة المجاهدين

وشيخهم عبد الرحمن بن علي بن السلطان أبي علي، وذكر له بأنه أرسل عدة كتب من تأليفه إلى مصر لتحبس هناك منها الإحاطة في أخبار غرناطة.

والثانية بتاريخ 14 ربيع الأول 770 هـ (1368 م) يتشوق فيها للقائه والاجتماع به، وكأنه لم يكن السبب في إخراجه من غرناطة قبل ذلك وهذا هو النفاق السياسي بعينه. وقد أجابه ابن خلدون برسالة مؤثرة أحاطه فيها علماً بالأوضاع السياسية المتردية بتونس، والمغربين الأوسط والأقصى، وكذلك أوضاع المشرق الإسلامي المتدهورة كذلك استناداً إلى أخبار الحجاج العائدين من هناك.

وعندما اتصل لسان الدين بن الخطيب بهذه الرسالة رد عليه برسالة أخرى بتاريخ ربيع الثاني 771 هـ (1369 م) ويبدو أنه يريد أن يكفر عما صدر منه في حق ابن خلدون ويسعى لتوثيق الصلة معه من جديد، ولكن الظروف سوف لن تساعد على ذلك كما سنرى فيما بعد. وقد لاحظ ابن خلدون بأنه أطال في استعراض هذه الرسائل، وأنها لربما ستكون خارجة عن أغراض الكتاب، ولكنه ذكر بأنها تحوي أخباراً كثيرة عنه تفيد من يعود إليها في الكتابة.

ابن خلدون يتوسط لدى سلطان تونس لأبي حمو:

مثلما كاتب أبو حمو، ابن خلدون، كاتب أيضاً سلطان تونس الحفصي أبا إسحاق ابن أبي بكر، طالباً منه العون، والتأييد ضد أمير بجاية وقسنطينة الذي هو خصم لهما معاً، وكان رسله ورسائله إليه تمر عن طريق ابن خلدون ببسكرة الذي بذل كل ما بإمكانه وجهوده لكسب الأنصار والمؤيدين له سواء لدى الأعراب بالجزائر أو لدى سلطان تونس.

وخلال هذه الفترة قام أبو زيان ابن عم أبي حمو بغارة، على تلمسان وأحوازها بدعم وتحريض من أبي العباس صاحب بجاية وقسنطينة فلم يظفر بشيء وعاد إلى مركزه بحصين وأقام بينهم فالتفوا حوله، وكثرت الغارات المتبادلة بين الطرفين، واضطربت الأمور في عموم المغرب الأوسط (الجزائر)، وفكر أبو حمو في خطة لأحكام الحصار على ابن عمه والقضاء عليه ونجح في

استعمال ابن خلدون وجره بعد ذلك إلى تلمسان نفسها.

ابن خلدون يلتحق بتلمسان:

كانت خطة أبي حمو أن يزحف هو من الغرب إلى جبال التيطري حيث يعتصم أبو زيان، ويزحف أنصاره من الشرق بزعامة ابن خلدون ليطبقوا عليه ويضعوا حداً لحركته التي أقلقت البلاد، فزحف هو إلى جبال التيطري في منتصف عام 769 هـ (1368 م)، وكتب إلى ابن خلدون ببسكرة طلب منه أن يستنفر له الذواودة، واتجه على رأسهم إلى الناحية الغربية ليحولوا دون هروب أبي زيان إلى الصحراء، وكتب كذلك إلى أشياخ الذواودة يعقوب بن علي كبير أولاد حمو، وعثمان بن يوسف كبير أولاد سباع بن يحيى، وكتب إلى ابن مزني ببسكرة طالباً منه إمدادهم بما يحتاجون إليه من عون وزاد، ففعل وسار بهم ابن خلدون أو خرج معهم في اتجاه الغرب وعندما وصلوا إلى قطيفة بتل التيطري وجدوا أبا حمو قد أحاط بابن عمه من ناحية التل، وكان في نيته عندما ينتهي من مشكل ابن عمه أن يزحف على بجاية، وكأنه كان متأكداً من انتصاره عليه، وأن الظروف صورت له ذلك.

ولكن صاحبها أبا العباس علم مسبقاً بالخطة فجمع هو الآخر جموعاً من قبائل رياح واتجه بها نحوه، وعسكر في ثنية القطيفة التي تؤدي إلى مدينة المسيلة، وقام المعارضون من قبائل زغبة بزعامة خالد بن عامر كبير بني عامر، وأولاد عريف كبراء سويد، بالهجوم على حشد ابن خلدون بصفة فجائية وشتتوا رجاله، ففر الذواودة، وانسحب ابن خلدون ومن معه من الأتباع إلى المسيلة ثم إلى الزاب، والتحق عرب زغبة بالتيطري وانضموا إلى أبي زيان وحصين، وهاجموا معسكر أبي حمو، وهزموه ففر ناجياً بنفسه إلى تلمسان وفشلت خطته، ولكنه، لم يتخل عن محاولاته واستعداداته، للظفر بابن عمه، وصاحب بجاية وقسنطينة، فقد راسل الذواودة مرة أخرى، وراسل سلطان تونس الحفصي أبا إسحاق، وابنه خالد من بعده ووافقته أعـراب زغبـة على الدخول في طاعته، فخرج من تلمسان إلى حصين ومنها إلى بجاية آخر عام 770 هـ (1369 م) ووفد عليه ابن خلدون على رأس جمع من الذواودة أولاد عثمان بن يوسف بن

سليمان والتقى به في البطحاء وحدثه عن الأوضاع العامة بالمنطقة التي قدم منها بالزاب وبسكرة، والمناطق التي مر بها، واتفقوا على اللقاء بمدينة الجزائر في تاريخ معين لتنفيذ خطة الهجوم، فانصرف الأعراب إلى أوطانهم وتخلف ابن خلدون هناك ليقضي بعض الأغراض الخاصة التي لم يفصح عنها، وصادف حلول عيد الفطر فصلى العيد بالسلطان أبي حمو في البطحاء، وخطب، وأنشد في مدحه قصيدة شعرية طويلة بعد الانصراف من المصلى بدأها بقوله:

هذه الديار فحييهم صباحا   وقف المطايا بينهن طلاحا

لا تسأل الأطلال إن لم تروها   عبرات عينك وأكف ممتاحا

وبينما ابن خلدون وأبو حمو في هذه الحال، وصل الخبر بأن السلطان المريني عبد العزيز قد استولى على جبل عامر بن محمد الهنتاتي بمراكش واعتقل صاحبه، وأخذه معه إلى فاس وقتله وهو يستعد ليشن هجوماً على تلمسان للانتقام من أبي حمو الذي سبق أن قدم مساعدة لعامر بن محمد الهنتاتي هذا.

فقرر أبو حمو في الحال العدول عن مشروع مهاجمة ابن عمه أبي زيان، وعاد بسرعة إلى تلمسان، وأخذ يستعد للخروج إلى الصحراء بصحبة أشياعه من بني عامر الزغبيين، ليواجه هناك سلطان بني مرين ويحول دون وصوله إلى تلمسان.

ابن خلدون يتحول إلى صاحب المغرب الأقصى:

وبينما أبو حمو يستعد للخروج إلى الصحراء، طلب منه ابن خلدون أن يأذن له في الانصراف إلى الأندلس بعد أن تعذر عليه العودة إلى بلاد رياح، وأظلم الجو بكثرة الفتن والحروب، والاضطرابات وانقطعت السبل والمسالك، فأذن له وسلم إليه رسالة إلى سلطان بني الأحمر، فاتجه إلى مرفأ هنين ليأخذ من هناك سفينة، فتعذر عليه الأمر وبقي ينتظر، وعلم هناك بأن أبا حمو غادر تلمسان إلى البطحاء فاراً بنفسه وأن السلطان عبد العزيز المريني قد وصل إلى تازة في طريقه إلى تلمسان.

وبينما هو ينتظر في هنين توفر باخرة تقله إلى الأندلس سمع به السلطان

عبد العزيز المريني، وقيل له بأنه يحمل وديعة إلى سلطان غرناطة وذلك من طرف بعض الوشاة، فأرسل في الحين سرية من تازة إلى هنين لتعترض طريقه وتأخذ منه الوديعة، وعندما وصلت أبلغته مهمتها ولم تجد عنده أية وديعة، ولكنها أخذته معها إلى تلمسان، ووجد السلطان في أحوازها فاتصل به وسأله عن أمر الوديعة، فأبلغه عدم صحة ذلك، وعنفه وعزه على مغادرته لفاس وديار المغرب الأقصى، فاعتذر له بما قام به وزيرهم عمر بن عبدالله عندما كان مستبداً بالأوضاع السياسية، وشهد له لديه عدد من الفضلاء والكبراء على رأسهم كبير مجلسه وونزمار بن عريف، ووزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة، فنجا من سوء العاقبة، واستفسره السلطان عن أوضاع بجاية وصاحبها، وكاشفه بأنه يريد أن يغزوها ويستولي عليها فشرح له ابن خلدون أوضاعها، وهون عليه غزوها وفتحها فسر بذلك، ولربما سلك ابن خلدون هذا الموقف حتى يحصل على حضوة لديه، وعلى نجاته مما قد يتعرض له من عقاب.

بقي ابن خلدون ليلته الأولى بالمعتقل، وفي اليوم التالي أفرج عنه وقصد رباط العباد، ونزل بجوار ضريح أبي مدين وعزم على التفرغ للتعليم والتدريس أن تركت له الحرية، غير أن سلطان المغرب الأقصى كانت له مشاريع وأهداف أخرى معه، فبعد أن احتل تلمسان، كلف وزيره أبا بكر بن غازي بملاحقة أبي حمو ومتابعته، وطلب من ابن خلدون أن يذهب إلى بلاد رياح ليستميلهم إليه تمهيداً لخروجه هو أو اللحاق به.

فقد استدعاه من خلوته بالعباد، وتذاكر معه وأكرمه وخلع عليه ثم عرض عليه المهمة فقبل، وكتب له رسائل إلى شيوخ الذواودة ليطيعوه ويمتثلوا أوامره وكتب إلى ابن مزني، ويعقوب بن علي ببسكرة والزاب ليساعدوه في مهمته كذلك وطلب منهم أن يعملوا على إخراج أبي حمو من أحياء بني عامر، ويدفعوا به إلى حي يعقوب بن علي.

غادر ابن خلدون تلمسان، واتجه إلى البطحاء في عاشوراء من عام 772 هـ (1370 م) ووجد هنا الوزير ابن غازي وعرب المعقل وزغبة، وسلم

إلى ابن غازي رسالة السلطان وتقدم أمامه وفي طليعته، وشيعه وونزماز، وطلب منه أن يسعى لتحرير أخيه محمد المعتقل لدى أبي حمو، ويبذل كل جهده حتى لا يصاب بسوء، وأرسل معه ابن أخيه عيسى وجماعة من عرب سويد ليساعدوه في مهمته.

اتجه ابن خلدون إلى أحياء حصين، وأبلغهم فرج بن عيسى وصية عمه وونزمار، فتخلوا عن أبي زيان ولكنهم بعثوا معه أدلاء أوصلوه إلى بلاد رياح ونزل لدى أولاد يحيى بن علي بن سباع وتوغلوا به إلى بلاد الصحراء حتى ينجوا من قبضة خصومه. أما ابن خلدون فقد واصل طريقه إلى بلاد رياح، وعندما وصل إلى مدينة المسيلة وجد أبا حمو ورياح معسكرين بالقرب منها في وطن أولاد سباع بن يحيى من الذواودة، فاتصل به كبراؤهم وزعماؤهم، وحثهم على طاعة السلطان المريني عبد العزيز، فأجابوه، ووجهوا وفداً منهم إلى الوزير ابن غازي في الديالم عند نهر واصل، أعلنوا له طاعتهم، ودعوه للاتجاه إلى بلادهم لملاحقة عدوه أبي حمو، فسار معهم.

أما ابن خلدون فقد انتقل من المسيلة إلى بسكرة، واجتمع هناك بيعقوب بن علي، وابن مزني، وأقنعهما بطاعة السلطان المريني عبد العزيز، فبعث يعقوب ابنه محمد إلى أبي حمو، وأمر بني عامر أن يخرجوه من بلادهم التي أصبحت تحت سيادة السلطان فوجدوه قد أخذ طريقه من المسيلة إلى الصحراء، والتقوا به عند قرية الدوسن وطلبوا منه أن يغادر وطن أولاد سباع إلى الزاب.

وبينما هم في الحديث والمفاوضة معه إذا بقوات ابن غازي تهاجمه بصفة فجائية، وتسلب منه كل ما معه من الأسلاب والأمتعة، والزاد، ففر بنفسه ومن نجا معه إلى بلاد ميزاب، ولحقه فيما بعد أهله وأولاده الذين اختفوا وتستروا لدى بعض أصدقائهم، ونجا في المعركة محمد شقيق وونزمار.

استراح ابن غازي عدة أيام في الدوسن، ثم قفل راجعاً بجيشه إلى المغرب الأقصى، واتجه ابن خلدون إلى بسكرة لزيارة أسرته وعائلته ثم لحق

هو الآخر بتلمسان وفرح السلطان به واستقبله استقبالاً حافلاً هو وكل من شارك في تلك الحملة الناجحة.

وبعد ذلك كلفه السلطان بالذهاب إلى الذواودة لإقناعهم بطرد غريمه أبي زيان من عندهم، فاتجه إلى هناك ونجح في مهمته، ثم واصل رحلته إلى بسكرة وصادف آنذاك أن ثار بالشلف داعية من مغراوة يدعى حمزة بن علي بن راشد، وعجزت عساكر السلطان عن القضاء عليه، وتعذر على ابن خلدون أن يعود إلى فاس فاكتفى بإرسال الرسائل فقط إلى السلطان ليحيطه علماً بالأحداث.

وبينما هو ببسكرة علم بفرار لسان الدين بن الخطيب من غرناطة إلى المغرب الأقصى وأرسل إليه هناك رسالة يعلمه بذلك ومعها نص الرسالة التي حررها لسلطان بني الأحمر عندما غادر الأندلس إلى المغرب، وقد أورد ابن خلدون هذه الرسالة بحذافيرها في كتابه لأهميتها مع طولها، فأجابه ابن خلدون برسالة مثلها تاريخها يوم عيد الفطر لعام 772 هـ (1371 م).

استمر مقام ابن خلدون مدة ببسكرة بسبب كثرة الاضطرابات في ربوع المغرب الأوسط، واستفحال ثورة حمزة بن راشد ببلاد مغراوة، وعجز الوزير عمر بن مسعود على القضاء عليه في حصن تاجموت، وظهور أبي زيان الزياني من جديد في بلاد حصين.

وعندما عزم السلطان عبد العزيز على مهاجمة أبي زيان ببلاد حصين في جبال التيطري، كتب إلى الذواودة ليجندوا له رجالهم، وكذلك إلى أحمد بن مزني صاحب بسكرة وطلب من ابن خلدون أن يسير على رأسهم إلى هناك، فقادهم إلى قطيفة في أول عام 774 هـ (1372 م)، وفرضوا الحصار على أبي زيان ورجاله حتى فروا إلى الصحراء وخضع الجميع إلى السلطان المريني ووجهوا إليه وفوداً لتبايعه بتلمسان، فاستقبلهم وتقبل منهم طاعتهم وسرحهم إلى أوطانهم.

أما ابن خلدون وابن غازي فقد لاحقوا أبا زيان إلى جبل غمرة ولم يعثروا عليه وعلموا أنه رحل إلى مدينة ورقلة، فعاد ابن خلدون إلى بسكرة وكاتب

السلطان عبد العزيز بما وقع له من الأحداث والأمور خلال تلك الفترة، وبقي ينتظر حتى جاءه استدعاء من طرفه إلى مدينة فاس.

ابن خلدون بفاس مرة أخرى:

بقي ابن خلدون ببسكرة مدة من الزمن بجوار صاحبها والآمر الناهي بها وبمنطقة الزاب كلها، أحمد بن يوسف بن مزتي زعيم عرب رياح، وحدث أن قام بعض الوشاة الحاقدين بإيغار صدره ضده وحدثوه بما أحفظ عليه قلبه فكتب رسالة إلى وونزمار بن عريف ولي السلطان عبد العزيز وصاحب شوراه في الأمر وشكى له ما تقوله الناس ضد ابن خلدون، وأبلغوه إليه، فحدث هو السلطان بذلك، وأمر باستدعائه إلى فاس.

غادر ابن خلدون بسكرة ومعه أسرته صباح يوم المولد النبوي الشريف لعام 774 هـ (1363 م) وأخذ طريقه إلى فاس، وعندما وصل إلى مدينة مليانة علم بخبر وفاة السلطان عبد العزيز، ومبايعة ابنه السعيد في مكانه بكفالة الوزير أبي بكر بن غازي الذي كان في مغراوة يحارب الثائر الدعي حمزة وارتحل إلى فاس فوراً عندما علم بالخبر وفرض سيطرته على الأوضاع السياسية بها كما مر.

وقد وجد ابن خلدون بمليانة علي بن حسون بن أبي علي الهطاسي حاكماً عيها من قبل بني مرين، فسار معه إلى العطاف، ونزلوا على أولاد يعقوب بن موسى أحد أمراء الجهة، ومن هناك سار ابن خلدون إلى أولاد عريف أمراء سويد بصحبة بعض الأدلاء العطافيين، ولحقه إلى المغرب الأقصى عبر الهضاب والصحراء، حتى لا يتعرض لهم أبو حمو موسى الثاني الذي عاد من تيكورارين واستعاد تلمسان من المرنيين وشرع في تطهير المنطقة من أنصارهم وأتباعهم.

وقد تفطن أبو حمو لرحلة ابن خلدون وابن حسون وأوعز إلى بني يغمر، وشيوخ عبيدالله في المعقل، أن يعترضوا طريقهما فهاجموهما في مكان يدعى رأس العين عند مخرج وادصا، وشتتوا لهما جموعهما، وقتلوا البعض، وأسروا آخرين، وفرا القادرون على خيولهم إلى جبل دبدوا، وتشرد ابن خلدون بأسرته وأولاده في تلك القفار وتعرض لحوادث، ومشاكل كثيرة لم يفصلها، ولكنه

تمكن في الأخير من اللحاق برفاق الرحلة الناجين في جبل دبدوا، ومن هناك التحقوا بمدينة فاس في جمادي من نفس السنة، واتصل بالوزير أبي بكر بن غازي، وابن عمه محمد بن عثمان الذي له معرفة سابقة به منذ أحداث السلطان أبي سالم بجبل الصفيحة، فأكرمه ووفر له الجراية الكافية، ولأولاده المزيد من الاحترام والتبجيل.

أقام ابن خلدون بفاس معززاً مكرماً، عظيم القدر والجاه، لدى السلطان، ووزيره ابن غازي، ورجال مجلسه الخاص، وأكابر دولته، وعكف على التدريس والتعليم، وعول على الابتعاد، عن الأحداث والمشاكل السياسية التي كانت تجري آنذاك بين سلاطين بني مرين وسلطان بني الأحمر بغرناطة حول قضية الوزير لسان الدين بن الخطيب السلماني، وحتى ينجو من تبعاتها ولكن لعنة الحوادث، وحسد الحساد، كانت تتابعه وتطارده فلقد كان الأمير عبد الرحمن على علاقة طيبة ووثيقة معه، ويميل إليه ويؤثره على غيره في الاستشارة والجلوس والمسامرة، فاستغل ذلك الوزير محمد بن عثمان، وملأ صدر السلطان عليه بالحقد والوشاية والسعاية فاعتقله وعزم على إلحاق الشرّ به فأنذره في الحين الأمير عبد الرحمن وتوعده، فأطلق سراحه بعد يوم واحد من سجنه وتطورت الحوادث بعد ذلك بسرعة، وتمكن الأمير أبو العباس من الاستيلاء على عرش فاس، فغادرها الأمير عبد الرحمن وابن خلدون إلى مراكش.

وقد استوحشت الأمور على ابن خلدون، وأظلم الجو السياسي أمامه فعزم على الرحيل إلى الأندلس عبر ميناء أسفي، ولكن الوزير مسعود بن ماسي الذي كان في صحبته، أثناه عن عزمته، والتحقا معاً بونزمار بن عريف في نواحي قرسيف رسول السلطان، فأخذه معه إلى فاس واستأذن له منه في ذلك فوافق بعد تمنع ومطاولة، وعلى كره من الوزير محمد بن عثمان بن داود بن أعراب، ورجال الدولة الآخرين الذين كانوا، على ما يبدو، يودون اعتقاله وسجنه.

وكان يحيى ابن خلدون شقيق عبد الرحمن في هذه الفترة، قد فر من

تلمسان، بعد عودة أبي حمو إليها، والتحق بالسلطان عبد العزيز في فاس، ودخل في خدمته وخدمة ابنه السعيد من بعده، ولما استولى أبو العباس على عرش فاس، استأذن منه يحيى في الانصراف، والالتحاق بتلمسان، فأذن له واتجه إليها والتحق بأبي حمو، فأعاده إلى منصبه كاتباً لسره كما كان قبل ذلك، وطلب منه أن يؤلف له كتاباً عن بني زيان فشرع في تأليف كتابه الذي سماه: «بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد».

ابن خلدون يرحل إلى الأندلس للمرة الثالثة:

قصد ابن خلدون إلى الأندلس في ربيع عام 776 هـ (1365 م) بنية الاستقرار، والتفرغ للتعليم والتدريس بعيداً عن الاضطرابات والتقلبات السياسية، . واستقبله سلطان غرناطة بالتجلة والاحترام، وكان قبل وصوله إليها قد التقى في جبل الفتح، بكتاب الفقيه أبي عبدالله بن زمرك الذي كان في طريقه إلى فاس لتهنئة السلطان المريني الجديد، وأوصاه بأن يصحب له معها على أسطوله، أسرته وعائلته إلى غرناطة عند عودته.

وعندما وصل ابن زمرك إلى فاس وتحادث مع أسرته استنكرت ذلك ولم تكن مرتاحة لاستقراره بالأندلس، واتهمته فاس بأنه يسعى لحمل سلطان بني الأحمر على تأييد الأمير عبد الرحمن ضد السلطان أبي العباس ومنعت أهله من الذهاب إلى الأندلس، وخاطبت ابن الأحمر في أن يعيده إلى المغرب فرفض وطلبت منه أن يحثه على العودة إلى تلمسان.

ابن خلدون يعود إلى تلمسان:

وعندما أذنت فاس لمسعود بن ماسي بالالتحاق بالأندلس، حملته وصية شفوية إلى ابن الأحمر مفادها أن ابن خلدون كان يسعى لإنقاذ حياة لسان الدين ابن الخطيب الذي كان معتقلاً بفاس الجديد. وفعلاً كان ابن خلدون قد توصل برسالة من ابن الخطيب في سجنه يرجوه فيها أن يسعى لإنقاذه فقبل وعول على بذل مجهود لدى ابن ماسي وونزمار بن عريف، ولكن المسعى لم ينجح، وقتل ابن الخطيب في سجنه شر قتله وبسرعة فائقة لم تسمح للوساطة أن تنجح

وعندما وصل ابن ماسي إلى غرناطة حدث السلطان بهذه القصة وأطلعه عليها فأظهر امتعاضه، بل واستنكاره على ما يبدو، وسقط في يده فوافق على سفره إلى تلمسان، فسافر إلى هنين، وهناك أوعز أبو حمو موسى الثاني بإيقافه لأنه كان على علم بمواقفه ضده بالزاب، وبقي هناك حتى قدم محمد بن عريف إلى تلمسان، وسمع بأمره فعاتب أبا حمو على موقفه، وعذله، وطلب منه أن يطلق سراحه فاستدعاه إلى تلمسان، واتجه إليها وقصد إلى العباد واستقر به، واستقدم أسرته من فاس ووصلت إليه صباح يوم عبد الفطر لعام 776 هـ (1375 م) فتفرغ للتعليم والتدريس مدة من الزمن، ولا شك أنه كان يشعر بكثير من المرارة أمام هذه الخيبات السياسية التي توالت عليه طوال هذه السنين، والتي وقفت في طريق طموحاته والتي ما انفكت تتجدد أينما حل وارتحل.

ابن خلدون يرحل إلى قلعة بني سلامة:

كان ابن خلدون عازماً على التفرغ للتعليم والتدريس بعيداً عن المشاكل السياسية ولكن أبا حمو موسى عندما وافق على استدعائه من هنين كان يفكر في استخدامه لأغراضه ومشاريعه العسكرية والسياسية المختلفة فقد رأى أن يسعى لاستمالة الذواودة إليه ويعرف أن لابن خلدون تأثيراً عليهم كما سبقت الإشارة في الحوادث الماضية، فاستدعاه إليه من خلوته بالعباد وكلفه بالقيام بسفارة إليهم بعد أن شرح له هدفه فتردد في قبول المهمة لأنه كان عازماً على التخلي عن الخوض في المشاكل السياسية، والتفرغ فقط للعبادة والتدريس والتأليف، ولكنه أدرك أن الرفض سيجر عليه مشاكل هو في غنى عنها، فتظاهر بالقبول واستعد للسفر، وغادر تلمسان إلى البطحاء، وفي نيته شيء آخر، فقد عرج ذات اليمين إلى منداس، والتحق بأولاد عريف قبلة جبل كزول، فاستقبلوه بالحفاوة والتبجيل وأقام عندهم أياماً، وفاتحهم في رغبته في الإقامة عندهم وشرح لهم عدم استطاعته إتمام سفارة السلطان أبي حمو، ورغبته في تخليص أسرته من تلمسان واستقدامها إليه، فأعلنوا استعدادهم لمساعدته، وتكلفوا بترحيل زوجته من تلمسان وإحضارها إليه، وأنجزوا وعدهم، واعتذروا لأبي حمو بعجزه عن إتمام تلك السفارة التي كلفه بها.

وأنزلوه في قلعة أولاد سلامة من بلاد بني توجين التي أقطعها لهم السلطان، وأقام هناك في قصر أبي بكر عريف أربع سنوات كاملة، وتفرغ من كل المشاكل السياسية، وشرع في تأليف كتابه الكبير، وأتم هناك مقدمته التي جاءت كما قال: «على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها وكان من بعد ذلك الفئة إلى تونس كما سأذكره إن شاء الله تعالى»[1].

ابن خلدون يرحل إلى تونس:

أقام ابن خلدون بقصر أبي بكر بن عريف في حلقة بني سلامة أربع سنوات كاملة، وكان كما قال، من أحفل المساكن، وأوفقها له بحيث طاب له ولأسرته فيه المقام، وحظي بالتقدير والإكبار، والرعاية، والاحترام لدى أولاد عريف.

ولكنه كان غير مرتاح، ويتوجس خيفة من مكر ملوك فاس، وتلمسان الذين كانت له معهم ومع كبار موظفيهم ووزرائهم، مشاكل، وسوابق سياسية متعددة، ومتقلبة، ويبدو أن مقتل لسان الدين بن الخطيب على تلك الصورة البشعة بفاس الجديد قد أثر كثيراً فيه وتخوف من أن يتعرض لنفس العاقبة والمصير سيما وأنه، كما قلنا له معهم سوابق سياسية غير مشرفة.

وفي نفس الوقت فإنه لما انتهى من تأليف مقدمة كتابه، ووصل إلى صميم الموضوع عن أخبار العرب، والبربر، وزناتة، تشوف إلى مطالعة الكتب والدواوين، التي لا توجد إلا في الأمصار، بعد ما أملي الكثير من حفظه وأراد التنقيح والتصحيح. ولذلك فإنه بعد أن شفي من مرضه الذي تعرض له خلال هـذه الفترة، وكاد أن يقضي عليه لولا لطف الله سبحانه وتعالى، فكر في مكاتبة السلطان تونس الحفصي أبي العباس، واستئذانه في القدوم عليه بتونس حيث قرار آبائه ومساكنهم وقبورهم.

وكاتبه فعلاً فأجابه وطلب منه أن يعجل في القدوم، فشد الرحال إليه مع قافلة من عرب الأحصن من بادية رياح كانوا ينتجعون قطعانهم بمنداس وذلك

(1) المقدمة: ص. 444 ـ 445.

في رجب من عام 780 هـ (1387 م) وسلكوا طريق الصحراء إلى الدوسن بأطراف الزاب، ثم عرج هو إلى ناحية التل الشمالي مع حاشية يعقوب بن علي الذين وجدهم بواحة فرفار، التي كان يعقوب قد اختطها لنفسه وعندما وصل إلى ضواحي مدينة قسنطينة، وجد هناك يعقوب بن علي، وأمير قسنطينة إبراهيم ابن السلطان أبي العباس الحفصي صاحب تونس، مخيمين بعساكرهما فأكرمه الأمير إبراهيم، وبربه، وأذن له في دخول مدينة قسنطينة، وإنزال أهله وأسرته بها في كفالته، ريثما يصل إلى تونس ويتصل بأبيه الذي كان آنذاك يقوم بحملة، عسكرية إلى بلاد الجريد لاستنزال شيوخها على كراسي الفتنة التي كانوا أوقدوها فيما بينهم.

غادر ابن خلدون مدينة قسنطينة إلى تونس واتصل بالسلطان أبي العباس في ظاهر مدينة سوسة، فحياه وبر بمقدمه، وبالغ في تأنيسه من وحشته.

واستشاره في مهمات كثيرة سياسية ثم سفره إلى مدينة تونس وأوعز إلى نائبه بها مولى فارح بأن يهيء له المنزل الملائم، والجراية الكافية، وكل ما يلزم من وسائل الراحة والاستقرار.

وقد وصل إلى مدينة تونس في شهر شعبان عام 780 هـ (1387 م) واستقر بها ووفر له المسؤولون كل وسائل الراحة والاستقرار، فنعم ببعض الراحة، وأرسل إلى مدينة قسنطينة يستقدم أهله وعائلته، فحضروا إليه، وجمع شملهم بعد طول غياب، وأسفار، وأتعاب، وتنقلات.

وعندما عاد السلطان أبو العباس من حملته بالجريد قربه إليه، واصطفاه لمجالسته، ومشاورته، واتخذه رفيقاً ومستشاراً ونصوحاً، فظهر منافسون له حقدوا عليه حظوته، ومركزه، وأخذوا ينسجون حوله السعايات والوشايات ويوصلونها إلى السلطان، وكان على رأسهم إمام جامع الزيتونة وشيخ الفتيا محمد بن عرفة الذي كان في قلبه حقد وغيرة عليه منذ أن اجتمعا في قرية المرسى بمجلس علمي كبير حضره أجلة الشيوخ والعلماء، وبرز تفوق ابن خلدون علهم جميعاً، وبدت سعة علمه، وإطلاعه، فأخذ ابن عرفة وكثير من

أمثاله يبيتون له الشر، ويعقدون الاجتماعات لنسج السعايات والوشايات ولكن السلطان أصم أذنه عنهم ولم يعرهم اهتماماً، وواصل تقديره لابن خلدون، وتشجيعه لجهوده العلمية والفكرية خاصة وأنه على علم بأساس رغبته في العودة إلى تونس.

ابن خلدون ينجز تأليف كتاب العبر:

عندما استقر ابن خلدون بتونس، تصدى للإقراء والتعليم، وانثال عليه طلبة العلم من كل جهة، عندما اكتشفوا سعة إطلاعه، وحذقه في شتى العلوم والمعارف وحتى طلبه ابن عرفة التحقوا به وتخلوا عن شيخهم مما زاد في حقده، وحفزه على شن حملة شعواء ضده حتى ينفر منه الناس، واتفق مع البعض منهم أن ينقلوا للسلطان بعض الوشايات والسعايات والوشايات عنه.

غير أن السلطان سكت عنهم، واحتقرهم وشجع ابن خلدون على الانكباب على تأليف كتابه الذي سبق أن حدثه عنه يوم أن كان بقلعة سلامة في أولاد عريف لأنه كما قال ابن خلدون: «كان متشوقاً إلى المعارف والأخبار واقتناء الفضائل» فانكب على الكتابة وأكمل منه أخبار البربر وزناتة وكتب من أخبار الدولتين وما قبل الإسلام ما وصل إليه منها، وأكمل منه نسخة رفعها إلى خزانته، ورفعه معها قصيدة شعرية طويلة في مدحه حتى يسفه الذين وشوا إليه بأنه لم يمدحه بالشعر استهانة به وبسلطانه بينما أكثر من مدح السلاطين الآخرين قبله.

وقد ذكر ابن خلدون بأنه أهمل تعاطي قول الشعر وانتحاله ليتفرغ للعلم والتدريس، والتأليف، وعندما أبلغه بعض أصدقائه من بطانة وزمرة أولئك الوشاة هذه المقولة صمم على تسفيههم، واغتنم فرصة تقديمه أول نسخة من كتابه إلى السلطان، وأنشد على مسامعه قصيدة في مدحه، ومدح فتوحاته وفي الاعتذار عن انتحال الشعر واستعراض أسباب ذلك، وبدأها بقوله:

هل غير بابك للغريب مؤمل أو عن جناحك الأماني معدل

ثم تطرق إلى كتابه الذي رفعه إليه وقال:

وإليك من سير الزمان وأهله — عبرا يدين لفضلها من يعدل
صحفاً تترجم عن أحاديث الأولى — درجوا فتجمل عنهم وتفصل
تبدي التبابع والعمالق سرها — وثمود قلبهم وعاد الأول
والقائمون بملة الإسلام من — مضر وبربرهم إذا ما حصلوا
لحظت كتب الأولين بجمعها — وأتيت أولها بما قد أغفلوا
وألنت حوشي الكلام كأنما — سردا اللغات بها لنطقي ذللوا
وجعلته لسوار ملكك مفخراً — يبهي الندى به ويزهر المحفل
والله ما أسرفت فيما قلته — شيئاً ولا الإسراف مني يجمل
ولأنت أرسخ في المعاني رتبة — من أن يموه عنده متطفل
فملاك كل فضيلة وحقيقة — الناس تعرف فضلها أن بدلوا
والحق عندك في الأمور مقدم — أبداً فماذا يدعيه المبطل

ابن عرفة يواصل السعاية ضد ابن خلدون:

ورغم الجهود التي كان يبذلها ابن خلدون في ميادين التعليم والتدريس، والتأليف، ورغم كفه عن الاشتغال والمشاكل والقضايا السياسية وعدم تقلده أي منصب سياسي فإن الحاقدين عليه والموتورين، بزعامة الفقيه ابن عرفة لم يتوقفوا عن سعاياهم ووشاياهم ضده إلى السلطان عساهم ينجحون في الإيقاع به وأبعاده.

ومن جملة الخطط والدسائس التي اتفقوا عليها ونفذوها، أغراه السلطان بأخذه معه في حملته على بلاد توزر ضد الثائر بن يملول عساه يهلك هناك وإقناع نائبه عنه بتونس مولى فارح بأن لا يقبل أن يتخلف عنده خلال غياب السلطان حتى لا يتآمر عليه، وتواطأ هؤلاء المتآمرون على أن يشهد ابن عرفة لدى السلطان في غياب ابن خلدون بنيته في التآمر عندما يخرج السلطان إلى توزر، وفعل ذلك وشهد بالزور، وهو شيخ الفتيا كما عبر عليه ابن خلدون نفسه، ولم يتورع ولم يخش حتى الله، ورغم أن السلطان استنكر منهم ذلك، ووبخهم إلا أنه استدعى ابن خلدون وطلب منه أن يتهيأ للسفر معه ويبدو، أنه كان يخاف عليه إذا خلفه من ورائه، وقد قبل ابن خلدون عى مضض الخروج

معه، لأنه كره الحروب والتقلبات السياسية الكثيرة التي عاشها سنوات طويلة في معظم أصقاع بلدان المغرب والأندلس.

خرج مع السلطان ورافقه حتى إلى مدينة تبسة، ثم أعفاه السلطان عن مواصلة السير معه، وأعاده إلى تونس، وواصل هو حركته إلى توزر وقضى على حركة الثائر يملول الذي تمرد منذ عام 783 هـ (1381 م)، وأعاد ابنه إلى مركز حكمه بتوزر وفر ابن يملول إلى الزاب، واحتمى بابن مزني في بسكرة وعندما عاد ابن خلدون من تبسة لم يتجه إلى مدينة تونس، وإنما قصد ضيعة الرياحين في ضواحيها، واشتغل هناك بخدمة مزرعة له وفلاحتها وبقي بها حتى عاد السلطان من توزر فصحبه ودخل معه إلى تونس، وذلك حتى يأمن شر الكائدين عليه.

ابن خلدون يرحل إلى مصر:

وفي شهر شعبان من عام 784 هـ (1382 م) عزم السلطان على القيام بحملة إلى بلاد الزاب لمعاقبة ابن مزني الذي آوى الثائر ابن يملول وتخوف ابن خلدون من أن يطلب منه السلطان مرة ثانية أن يصحبه إلى هناك ولابن مزني فضل كبير عليه في المحن التي تعرض لها خلال السنوات الماضية مع سلاطين تلمسان وفاس، يضاف إل هذا كرهه المشاركة في الحروب والعودة إلى الخوض في الأحداث والمغامرات السياسية والعسكرية.

ولذلك فإنه اغتنم وجود سفينة اسكندرانية بالمرسى محملة بالبضائع والأمتعة، تستعد للإبحار إلى بلاد مصر، فطلب من السلطان أبي العباس وتوسل إليه أن يأذن له بالسفر لأداء فريضة الحج فقبل، وجهز نفسه بما هو ضروري وخرج إلى المرسى للسفر بصفة فجائية، وخرج معه أعيان البلد، وهم مشدوهون يتساءلون خاصة تلاميذه والشيوخ الفضلاء الذين يجلونه ويقدرون علمه.

ركب الباخرة في منتصف شهر شعبان من عام 784 هـ (1382 م) وفوت الفرصة على خصومه مما كانوا ينصبونه له من حبال، وقال بالحرف الواحد

«وفوضت عنهم بحيث كانت الخيرة من الله سبحانه وتعالى، وتفرغت لتجديد ما كان عندي من آثار العلم والله ولي الأمور سبحانه».

واستغرقت رحلته من مدينة تونس إلى مدينة الإسكندرية أربعين يوماً طواها طياً، ولم يحدثنا عن البلدان التي مر بها، والمشاكل التي لربما تعرض لها كما فعل المقري بعده بأكثر من قرن من الزمن، ووصل إلى ميناء الإسكندرية صباح عيد الفطر المبارك من نفس العام، ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر (برقوق) على عرش مصر.

وبقي بالإسكندرية شهراً كاملاً يحاول توفير الأسباب والظروف التي تساعده على مواصلة السفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ولكنه لم ينجح في محاولاته ولسنا ندري ماذا كان ينقصه هل المال أم السفينة ولذلك اتجه إلى مدينة القاهرة في أول شهر ذي القعدة، ورأى «حاضرة الدنيا، وبستان العالم ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك، تلوح القصور والأواين في جوه، وتزهر الخوانق، والمدارس، والكواكب بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطىء النيل نهر، ومدفع مياهه السماء يسقيه، العلل، والنهل، سيحه، ويجيء إليهم الثمران، والخيرات ثجه».

فانبهر ابن خلدون بهذه المدينة العلمية العجيبة، وكان قد سمع عنها من الحجاج، والتجار والعلماء، كل وصفها له بشكل، ولكن الكل معجبون بها، وممن سألهم عنها يوم أن كان ببلدان المغرب شيخه أبو عبدالله المقري، وأبو عبدالله بن إدريس البجائي وهو من شيوخه كذلك، وقاضي العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجي.

وعندما استقر المقام بابن خلدون بالقاهرة تلك المدنية العالمية العظيمة تصدي للتدريس، وأنثال عليه طلبة العلم يلتمسون منه كما قال: «الإفادة مع قلة البضاعة» فأخذ مكانه بالجامع الأزهر، وتصدى للتدريس والتعليم وتعرف على الأمير الطنبغا الجوداني، ووثق صلاته به فعرفه بالسلطان برقوق وقدمه إليه،

فأكرمه، وآنس غربته، ووفر له الجراية المادية بعد أن آنس منه الكفاءة العلمية، ولم يكتف بها فعينه مدرساً بالمدرسة القمحية التي أسسها صلاح الدين الأيوبي لتدريس الفقه المالكي، كما عينه محاضراً للفقه المالكي كذلك في المدرسة البرقوقية الظاهرية بشارع بين القصرين وذلك في يوم 9 جمادى الأولى 786 هـ (1384 م). وبقي هناك ينتظر أن تلحق به أسرته ولكن سلطان تونس منعها رغبة منه في عودته إلى تونس فتوسط سلطان مصر برقوق وطلب منه أن يتدخل لديه ففعل وأرسل إليه يرجوه السماح لأسرته بالالتحاق به في مصر فقبل.

ابن خلدون يتولى خطة قضاء المالكية:

وخلال تلك الفترة عزل سلطان مصر قاضي المالكية من منصبه عام 786 هـ (1384 م) وعين ابن خلدون في مكانه رغم تمنعه لأنه لمس فيه أهلية لذلك المنصب ومقدرة، وخلع عليه الجلباب الخاص بالوظيفة في إيوانه يوم 9 جمادى الأولى وأرسل معه من نصبه في مكانه بالمدرسة الصالحية بين القصرين وتصدى لأداء مهمته، بجد، وحكمة، وتروي، وعدل، وحزم، لا تأخذه في الحق لومة لائم، وكان القضاء في ذلك الوقت بتلك المدينة، كما حكى ابن خلدون نفسه، مسخرة، شاعت فيه الرشوة، والممالأة ومراعاة اعتبارات كثيرة شخصية لا تمت إلى الحق والعدل، وكتاب الله وسنة رسوله بصلة، وأورد طرائف وحكايات كثيرة من ضمنها جهل القضاة، وتقاهتهم، وتزوير العقود، والأحكام والإمضاءات، ففشا بسبب ذلك الضرر في الأوقاف والأملاك والمصالح العامة والخاصة:

ويبدو، حسب قول ابن خلدون أن الكثير من القضاة والعدول الصغار، كانوا من السوقة الجهلة، ووصلوا إلى تلك المناصب بالرشوة والكذب والوساطة، والجاه، وغيرها، ومنهم البعض من بلدان المغرب لم يذكر أسماءهم، اتخذوا زواياهم وبيوتهم أمكنة لنشر الأباطيل والدعايات الكاذبة.

وقد قال ابن خلدون في هذا المعنى، «فصدعت في ذلك بالحق وكففت أعنة أهل الهوى، والجهل، ورددتهم على أعقابهم، وكان فيهم ملتقون سقطوا

من المغرب يشعوذون ولا ينتمون إلى شيخ معروف مشهود ولا يعرف لهم كتاب في فن، اتخذوا الناس هزؤاً وعقدوا المجالس مثلبة للأعراض، ومثابة للحزم فأرغمهم ذلك مني وملأهم حسداً وحقداً علي» وكان موقفه هذا سبباً في بروز وشاة وخصوم ضده من هذه الطبقة وسعوا به إلى السلطان بعد أن فشلوا في إقناعه بأن يفعل مثلهم، ويسلك سبيلهم ويحكم بحسب الظاهر، ويمالىء الحكام والأمراء.

وقد بالغوا في حملتهم ضده، وسمموا الجو، فأظلم الجو أمامه وسخط الكثير من رجال الدولة التافهين عليه، وتضاعف حزنه وألمه عندما غرق أهله وأولاده في البحر قرب ميناء مدينة الإسكندرية قادمين من تونس وذلك في أوت في عام 1384 م، ففكر في الاستقالة من منصبه ونصحه بعض أصدقائه بعدم فعل ذلك حتى لا يسخط عليه السلطان ويصدق ما قيل ضده، وبينما هو في تلك الحالة والأزمة النفسية جاء الفرج من عند الله، وقرر السلطان برقوق أن يعيد قاضي المالكية المعزول إلى منصبه وذلك في 7 جمادى الأولى 787 هـ (1385 م) ففرح فرحاً شديدا واعتبر ذلك نعمة من الله عليه ورحمة وبركة منه إليه، فعاد إلى مهنة التدريس، والمطالعة والتأليف مدة ثلاث سنوات بالمدرستين، القمحية والظاهرية.

ابن خلدون يذهب إلى الحج:

وفي منتصف شهر رمضان من عام 789 هـ (1387 م) ودع ابن خلدون السلطان، والأمراء، وذوي الجاه والأحباب، وغادر القاهرة إلى مرسى جبل الطور في بحر السويس، وزوده السلطان والأمراء من أحبابه بكل ما يلزمه في سفره، وركب الباخرة من جبل الطور يوم 10 شوال، ووصل إلى ميناء ينبع بعد شهر كامل من السير، ووجد هناك موكب المحمل فرافقه إلى مكة ودخلها يوم 2 ذي الحجة وأدى فريضة الحج، وزار المدينة المنورة، وقبر الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم عاد إلى ميناء ينبع، وبقي ينتظر المركب الذي يقله إلى مصر وهناك في ينبع التقى ابن خلدون بالفقيه الأديب أبي القاسم ابن شيخ الجماعة أبي إسحاق إبراهيم الصالحي، الذي حمل إليه رسالة من كاتب سر سلطان غرناطة

أبي عبدالله بن زمرك، يشكره فيها ويثني عليه، وعلى عهود الصحبة والصداقة بينهما، وتحمل هذه الرسالة تاريخ 20 محرم 789 هـ (1387 م) كما كتب له قاضي الجماعة بغرناطة أبو الحسن علي بن الحسن البني رسالة بتاريخ صفر 790 هـ (1388 م). وركب ابن خلدون المركب من ميناء ينبغ إلى مرسى جبل الطور وعندما اقترب المركب من هذا المرسى اعترضته ريح عاتية وتعذر عليه الرسو بالميناء فاتجه به ربانه إلى ساحل القصير بالضفة المقابلة لخليج السويس، ومن هناك ساروا إلى بندرقنا، وصاحبوا الأعراب براً إلى مدينة قوص عاصمة الصعيد واستراحوا بها أياماً، ثم ركبوا سفينة نيلية أقلتهم إلى القاهرة عبر وادي النيل ووصلوا إليها بعد شهرين كاملين من السفر والمعاناة ودخل ابن خلدون إليها في شهر جمادى (الأول) من سنة 790 هـ (ماي 1388) وذهب بعد ذلك لمقابلة السلطان برقوق، حيث قدم له عرضاً عن سفرته والظروف التي حج فيها، وأبلغه بأنه دعا له في الأماكن المقدسة بطول العمر، ودوام العز، فتقبل منه ذلك، وأقام في رعايته، فأعاد إليه جرايته المالية.

ابن خلدون يعين مدرساً في الضرغطمشية:

وبعد أن استراح ابن خلدون من وعثاء السفر وأتعابه ومشاقه، عينه السلطان برقوق شيخاً ومدرساً للحديث في المدرسة الضرغطمشية التى أسسها الأمير سيف الدين ضرغتمس، وأوقفها على الفقهاء لتدريس الفقه والحديث على المذهب المالكي، لخبرته فيه وتعمقه في أحكامه، الأصولية والفرعية وذلك في شهر جانفي (1389 م) 790 هـ.

ابن خلدون يعين مديراً للخانقاه البيبرسية:

وبعد ثلاثة أشهر اعتزل وظيفته الشابقة كمدرس للفقه والحديث في المدرسة الضرغتمشية وعين مدير للخانقاه البيبرسية التي جلبت له إدارتها فوائد مادية وأدبية كبيرة ورفعت من شأنه ومنزلته، لأنها مؤسسة صرفية غنية بالأوقاف التي أوقفت عليها وهي بمثابة زاوية يؤمها شيوخ الطرق الصوفية. وقد بقي ابن خلدون على رأس هذه الخانقاه يديرها ويسيرها حتى عزل السلطان برقوق عن العرش في يوم 5 جمادى الثانية 791 هـ (1389 م) فعزل هو كذلك، فقام

بعمل مريب ليس غريباً عنه، حسبما عهدناه في بلدان المغرب، وأدى ذلك إلى عزله عن الخانقاه، فقد اشترك مع بعض القضاة في التوقيع على فتوى تجيز محاربة السلطان الظاهر برقوق، وخلعه عن العرش وقتله وذلك لاستعانته بالكفار النصارى في محاربة المسلمين.

وقد حاول هو أن يبرر موقفه، ويشرحه بكيفية أخرى، واستعرض حادثة عزله بالكيفية التالية وقال: «أن الملك الظاهر برقوق لما خلص من سجنه في الكرك، وتغلب على معارضيه، والثائرين عليه بالشام وفلسطين عاد إلى مصر، واستعاد عرشه، وأعاد للدولة هيبتها «وولى سودون على نيابته، وكان ناظراً بالخانقاه التي كنت فيها، وكان ينقم على أحوالاً من معاصاته فيما يريد من الأحكام في القضاء أزمان كنت عليه ومن تصرفات دواداره بالخانقاه وكان يستنيبه عليها فوغر صدره علي من ذلك وكان الظاهر ينقم علينا معشر الفقهاء فتاوى استدعاها منا منطاش وأكرهنا على كتابتها فكتبناها وورينا فيها بما قدرنا عليه، ولم يقبل السلطان ذلك وعتب عليه وخصوصاً علي، فصادف سودون منه إجابة في إخراج الخانقاه عني فولى فيها غيري وعزلني عنها، وكتبت إلى الجوباني بأبيات اعتذر عن ذلك ليطلعه بها، فتغافل عنها وأعرض عني مدة ثم عاد إلى ما أعرف من رضاه وإحسانه[1].

ومن ضمن أبيات هذه القصيدة الشعرية قوله في مطلعها:

سيدي والظنون فيك جميلة ... وأياديك بالأماني كفيلة
لا تحل عن جميل رأيك إني ... مالي اليوم غير رأيك حيلة
واصطنعي كما اصطنعت بإسداء ... يد من شفاعة أو وسيلة
لا تضعني فلست منك مضيعاً ... ذمة الحب والأيادي الجميلة
وأجرني فالخطب عض بنابيه ... وأجرى إلى حماي خيوله
أنهِ أمري إلى الذي جعل الله ... أمور الدنيا له مكفولة
لا تقصر في جبر كسرى فما زلت ... أرجيك للأيادي الطويلة

(1) نفس المصدر. ص 363 ـ 365.

أنـا جـار لكـم منعتـم حمـاه ... ونهجتـم إلـى المعـالـي سبيلـه
وغريب انستموه على الوحشة ... والحـزن بـالـرضـى والسهـولـة
وجمعتـم مـن شملـه فقضـى الله ... فـراقـاً ومـا قضـى مـأمـولـه
غـالـه الـدهـر فـي البنيـن وفـي ... الأهل وما كان ظنه أن يغوله

* * *

والعـدا نمقـوا أحـاديـث افـك ... كلهـا فـي طـرائـق معلـولـة
روجوا في شأني غرائب زور ... نصبـوهـا لأمـرهـم أحبـولـة
ورموا بالذي أرادوا من البهتان ... ظنـاً بـأنهـا مقبـولـة
زعموا أنني أتيت من الأقوال ... مـا لا يظـن بـي أن أقـولـه
كيف لي أغمط الحقوق وأنى ... شكـر نعمـاكـم علـي الجـزيلـة
كيـف لـي أنكـر الأيـادي التـي ... تعرفها الشمس والظلال الظليلة
إن يكـن ذا فقـد بـرئـت مـن الله ... تعـالـى وخنـت جهـراً رسـولـه
طـوقـونـا أمـر الكتـاب فكـانـت ... لقـداح الظنـون فينـا مجيلـة
لا ورب الكتـاب أنـزلـه الله ... علـى قلـب مـن وعـى تنـزيلـه
ما رضينا بذاك فعلاً ولا جئناه ... طـوعـاً ولا اقتفينـا دليلـه
إنمـا سـامنـا الكتـاب ظلـوم ... لا يـرجـي دفـاعـه بـالحيلـة
سخـط نـاجـز وحلـم بطـيء ... وسـلاح للـوخـز فينـا صقليـة
ودعوني ولست من منصب الحكم ... ولا سـاحبـاً لـديهـم ذيـولـه
غيـر أنـي وشـى بـذكـري واش ... يتقصـى أوتـاره وذحـولـه
فكتبنـا معـوليـن علـى حلمـك ... تمحـو الأصـار عنـا الثقيلـة
مـا أشـرنـا بـه لـزيـد ولا عمـرو ... ولا عينـوا لنـا تفصيلـه
إنمـا يـذكـرون عمـن وفيمـن ... مبهمـات أحكـامهـا منقـولـة

* * *

فاقبلوا العذر أننا اليوم نرجو ... بحيـاة السلطـان منكـم قبـولـه
وأعينـوا علـى الـزمـان غـريبـاً ... يشتكي جدب عيشه ومحولـه
جاركم ضيفكم نزيل حماكم ... لا يضيـع الكـريـم يـومـاً نـزيلـه

جددوا عنه رسوم رضاكم	فرسوم الكرام غير محيلة
داركوه برحمة فلقد أمست	عقود اصطباره محلولة
وأنحلوه جبرا فليس يرجى	غير إحسانكم لهذى النحيلة
يا حميد الآثار في الدهر يا	الطنبغا يا روض العلا ومقيلة
كيف بالخانقاه ينقل عني	لا لذنب أو جنحة منقولة
بل تقلدتها شعوراً بمرسوم	شريف وخلعة مسدولة
ولقد كنت آملاً لسواها	وسواها بوعده أن ينيله
وتوثقت للزمان عليها	بعقود ما خلتها محلولة
أبلغن قصتي فمثلك من يقصد	فعل الحسنى بمن ينتمي له
واغنموا من مثوبتي ودعائي	قربة عند ربكم مقبولة[1]

وبعد أن عزل عن إدارة الخانقاه عاد إلى مهنة التدريس، والكتابة والتأليف سنوات طويلة حتى مطلع القرن التاسع الهجري، ولم يفصل لنا أخبار حياته في هذه الفترة كما كان معتاداً ما عدا حادثة واحدة تتصل بصلات عرش مصر، مع سلاطين بلدان المغرب العربي، ودوره هو في ذلك.

ففي عام 793 هـ (1390 م) وصل إلى القاهرة شيخ عرب المعقل يوسف بن علي بن غانم فاراً من بطش السلطان المريني بفاس أبي العباس أحمد بن أبي سالم وراغباً كذلك في أداء فريضة الحج، ووجد سلطان مصر الظاهر برقوق غائباً في الشام للقضاء على فتنة وتمرد الزعيم المملوكي منطاش. فسعى له ابن خلدون لدى صاحب محمل الحج، وصحبه معه إلى البلاد المقدسة. وعندما عاد من هناك بعد انتهاء موسم الحج وجد السلطان برقوق قد عاد من الشام، فساعده ابن خلدون على تنظيم لقاء معه، واشتكى له محنته. ورجاه أن يتوسط له عنده فكتب له رسالة تشفع وزوده بهدية إليه تتألف من الأقمشة والعطور، وغيرها، وطلب منه كذلك أن ينتقي له عدداً من الخيول المغربية، وقد قبل السلطان المغربي هذا التشفع، وعفا عنه وأعاده إلى منزلته

(1) نفس المصدر. ص 365 ـ 370.

السابقة وشرع في انتقاء الخيول التي طلبها منه السلطان برقوق، وبعض التحف والهدايا الأخرى التي سيرسلها إليه، ولكنه توفي قبل أن يرسلها كما توفي بعده ابنه أبو فارس، وعندما تولى العرش أخوه (أبو فارس) أبو عامر جهز الهدية ليرسلها مع رسوله يوسف بن علي.

وقد استغرق هذا عدة سنوات فاستبطأ سلطان مصر وصول الخيول المغربية التي كان يرغب فيها، وأوصى عليها، فعزم على إرسال رسول آخر إلى بلاد المغرب ليشتري له الخيول بالمال، واستدعى إليه ابن خلدون، واستشاره في ذلك فأيده في فكرته، واقترح عليه أن يكتب لسلاطين بلدان المغرب ثلاثة رسائل في الموضوع واحدة إلى سلطان تونس والثانية إلى سلطان تلمسان، والثالثة إلى سلطان فاس، فعين المملوك قطلوبغا، للمهمة، وزوده بتلك الرسائل الثلاثة، وهدايا أخرى لكل واحد منهم تتألف من القماش، والطيب وغيرها.

سافر قطلوبغا إلى بلدان المغرب عام 799 هـ (1396 ـ 1397 م) وأكرمه كل السلاطين الذين توجه إليهم، وعندما وصل إلى فاس، وجد هدية السلطان أبي عامر جاهرة ومعدة إلى الإرسال بقيادة يوسف بن علي فخرج معها بعد عيد الأضحى لنفس العام عائداً إلى مصر ومر بتلمسان فزوده سلطانها الزياني أبو زيان بن حمو بهدية وقصيدة شعرية في مدح السلطان برقوق جاء فيها:

لمن الركائب سيرهن ذميل	والصبر إلا بعدهن جميل
يا أيها الحادي رويدك إنها	ظعن يميل القلب حيث تميل
رفقاً بمن حملته فوق ظهورها	فالحسن فوق ظهورها محمول

* * *

وإليكما تنبيك صدق مودتي	صح الدليل ووافق المدلول
فإذا بذاك المجلس السامي سمت	فلديك إقبال لها وقبول
دام الوداد على البعاد موصلاً	بين القلوب وحبله موصول
وبقيت في نعم لديك مزيدها	وعليك يضفو ظلها السدول

ثم مر على تونس وتسلم من سلطانها الحفصي هدية أخرى من الجياد والأقمشة، وعندما وصل إلى القاهرة قدمها إلى الملك الظاهر برقوق في موكب حافل بعد أن نهب الخاسكية ما بها من الأقمشة، والبسط، ومراكب الخيل، وبعض الجياد، ففرح بها غاية الفرح، وكانت تتألف مما يلي:

هدية سلطان المغرب الأقصى بها 35 فرساً من جياد الخيل بسروجها وألجمتها الذهبية، والسيوف المحلاة، وبحمولاتها من أجود أقمشة الحرير والكتان والصوف، والجلد.

وهدية سلطان تلمسان بها 30 فرساً من جياد الخيل بمراكبها المموهة وأحمالها من الأقمشة المنتقاة.

وهدية سلطان تونس بها 30 فرساً من جياد الخيل مجللة بأجمل الأقمشة المنتقاة.

وقد أكرم السلطان برقوق حاملي هذه الهدية، وبربهم وأعدلهم منازل أنيقة ومريحة لإقامتهم، وسفرهم مع الموكب السلطاني إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، وزودهم بالأموال اللازمة للإنفاق على شؤونهم خلال موسم الحج، وعندما عادوا من الحج إلى القاهرة أكرمهم كذلك وجهز لهم ما يلزمهم لعودتهم إلى بلدانهم معززين مكرمين.

وكان ابن خلدون خلال كل هذا محل فخر، واعتبار، وتقدير، وذكر حسن وجميل، لأنه كان الواسطة في كل ما تحقق من هذه الصلات والهدايا والرسل بين عرش مصر، وعروش بلدان المغرب وسلاطينها[1].

ابن خلدون يعين قاضياً وينتدب للسفر إلى الشام:

بعد أن عزل ابن خلدون عن إدارة الخانقاة، عاد إلى مهنة التدريس والكتابة والتأليف وإلى ممارسة أعماله الخاصة، وخدمة أرضه. ومزرعته التي كانت له بالفيوم، وذلك لعدة سنوات، وفي مطلع القرن التاسع الهجري استدعاه

(1) نفس المصدر. ص 376 ـ 383.

السلطان من الفيوم وعينه في منتصف رمضان عام 801 هـ (ماي 1399 م) قاضياً للمالكية من جديد بعد حوالي 14 عاماً من عزله عن ذلك المنصب، وذلك لما توفي القاضي المالكي ناصر الدين أحمد التنسي، ويبدو أن السلطان برقوق رضي عنه وعفا عن فعلته السابقة وتجاوز عنها بعد مرور هذه السنوات الطويلة عنها.

استمر ابن خلدون في وظيفته هذه حوالي تسعة أشهر، ثم انتدبه السلطان فرج هو وباقي القضاة الآخرين ليسافروا معه إلى الشام للقضاء على الفتنة والتمرد الذي تزعمه عدد من المعارضين وعلى رأسهم تنم، وايتمش، فسافر إلى دمشق خلال شهر جمادى الثانية عام 802 هـ (فيفري 1400 م) ووصل إليها مع السلطان فرج في أول شعبان 802 هـ (1400 م) ومكث هناك عدة أسابيع استغلها في مطالعة الكتب بخزائن مكتبات دمشق الخاصة والعامة.

وعندما انتهى السلطان من القضاء على التمرد، استأذن ابن خلدون منه في السماح له بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين، فأذن له وقام بزيارة بيت المقدس، والخليل، وبيت لحم، خلال شهر رمضان وامتنع عن الدخول إلى كنيسة القيامة التي سماها: القمامة: لاحتوائها على الصلبان، وبعض المظاهر المسيحية الأخرى، ومن هناك انتقل إلى غزة ولحق بجيش السلطان فرج بظاهر مصر، ودخل معه إلى القاهرة أواخر شهر رمضان 802 هـ (ماي 1400 م) واستمر في وظيفته القضائية حتى توفي السلطان فرج، فعزل عن وظيفته القضاء مرة ثانية في منتصف شهر محرم عام 803 هـ (سبتمبر 1400 م) وعين مكانه نور الدين بن الخلال الذي قال عنه بأنه كان دائماً يحاول أن يخلف القضاة في منصبهم عند غيابهم وبذل هذه المرة حتى أمواله وجاهه ليحصل على هذه الوظيفة[1].

ابن خلدون ينتدب للسفر إلى الشام لمحاربة تيمورلنك:

وعندما زحف تيمورلنك على بلاد الشام خلال عام 803 هـ والذي تلاه ندبه السلطان فرج للسفر مع الجيش المصري، إلى جانب باقي قضاة المَذاهب

---

(1) نفس المصدر. ص 383 ـ 387.

الأخرى كما جرت العادة، فعزف عن ذلك، وأظهر عدم رغبته، فكلف السلطان فرج دوادره (كاتب سره) يشبك الشعباني بأن يعمل على إقناعه بالسفر، فاتصل به وأقنعه، وهو ما عبر عنه ابن خلدون نفسه عندما قال: (فتجافيت عن ذلك، ثم أظهر العزم علي بلين القول وجزيل الكلام فأصخيت».

سافر ابن خلدون مع السلطان فرج وجيشه إلى مدينة غزة في منتصف ربيع الأول 803 هـ (28 نوفمبر 1400 م)، ومن هناك اتجهوا إلى دمشق، وتوقفوا في مركز شقحب أياماً، ثم قصدوا دمشق ووصلوا إليها قبل تيمورلنك، وضربوا خيامهم في ساحة قبة يلبغا، واستقر ابن خلدون في المدرسة العادلية، وعندما وصل تيمورلنك قادماً من بعلبك عسكر على مسافة غير بعيدة، منهم وحصل صدام بين الطرفين ثلاث أو أربع مرات، وفي النهاية اقترب تيمورلنك من أبواب دمشق.

ابن خلدون يتفاوض مع تيمورلنك:

وفي يوم 13 جمادى الأولى 7803 هـ (30 سبتمبر 1400 م) هرب سلطان حسن حفيد تيمورلنك إلى معسكر الشاميين ونمي للسلطان فرج وكبار أمرائه بأن بعض الأمراء يدبرون مؤامرة وانقلاباً ضده، ويفكرون في العودة إلى القاهرة لتنفيذ خطتهم فتدارس الوضع مع كبار قادته، واتفقوا على العودة إلى مصر، وترك دمشق لمصيرها ونفذوا خطتهم وغادروا دمشق إلى مصر ليلة 21 جمادى الأولى 803 هـ (7 جانفي 1401 م) عبر غزة، وتخلف ابن خلدون في دمشق مع عدد من أفراد الجيش المصري وأمراء المماليك، والقضاة وعندما فوجىء سكان دمشق في صباح اليوم الموالي بمغادرة السلطان فرج وجيشه لدمشق، اجتمع ثمانية قضاة وفقهاء وقصدوا إلى مقر ابن خلدون في المدرسة العادلية وتداولوا معه الأمر وأمروه عليهم وفوضوه التصرف لخبرته في الأمور والقضايا السياسية، وتعوده على معالجتها عندما كان ببلاد المغرب والأندلس الإسلاميين وبعد تداول الأمر، وتقليبه من عدة أوجه اتفقوا على تسليم المدينة إلى تيمورلنك، وعرضوا رأيهم على نائب قلعة دمشق يزدار، فعارضهم واستنكر ذلك عليهم، ولكنهم لم يلتفتوا إليه وصمموا على تنفيذ ما اتفقوا عليه وكلفوا

القاضي الحنبلي برهان الدين بن مفلح، وأحد شيوخ الصوفية للزاوية، والخانقاه الصلاحية السيمساطية بأن يتوجها إلى تيمورلنك ويعرضا عليه أمر الصلح والتسليم.

فتدليا من السور، بعد أن رفض يزدار نائب قلعة المدينة فتح الباب لهما وذهبا إليه فاستقبلهما، ورحب بعرضهما الذي حملاه إليه نيابة عن الفقهاء وأعيان المدينة، وطلب منهما أن يعودا إلى المدينة ليحضرا إليه وجوه القوم فعادا إلى المدينة وصحبا معهما ستة أشخاص آخرين وعادوا إليه جميعاً فاستقبلهم، واتفق معهم على فتح أبواب دمشق له في صباح اليوم الموالي وسلم إليهم رقاع الأمان، كما سلموا له الهدية التي طلبها هو منهم كإجراء اعتاد عليه هو في مثل هذه المواقف وعندما عاد هذا الوفد إلى دمشق، أخبر رئيسه القاضي ابن مفلح، ابن خلدون بأن تيمورلنك سأل عنه، واستفسر هل ما يزال موجوداً بدمشق أم رحل مع السلطان إلى مصر، فتكونت لدى ابن خلدون رغبة للاتصال به بصفة شخصية كعادته في مثل هذه المواقف التي تناسب طموحاته السياسية.

وقد حصل خلاف بين أعيان دمشق حول الاستسلام وعدمه بعد أن عاد الوفد من عند تيمورلنك، وكان نائب القلعة على رأس المعارضين، فأسرع ابن خلدون ليلاً إلى الفقهاء وألح عليهم بضرورة الوفاء بعهدهم، وتسليم المدينة إلى تيمورلنك في الوقت المحدد له، وطلب منهم أن يسمحوا له بأن يخرج بنفسه إلى تيمورلنك على الباب أو السور فعارضوه في البداية ثم عادوا إلى رأيه ووافقوه، وساعدوه على التدلي من السور إلى خارج المدينة، حيث وجد وفداً في انتظاره، أمام الباب من قبل تيمورلنك، يقوده شاه ملك، فحياهم، وردوا عليه بمثلها، وأعطاه شاه ملك دابة، ودليلاً أوصله إلى معسكر تيمورلنك، فدخل عليه في خيمته، وحياه وقبل يده، وجلس بجانبه.

وتولى الفقيه عبد الجبار بن نعمان الحنفي الخوارزمي الترجمة بينهما فسأله تيمورلنك عن بلده وسبب مجيئه إلى مصر، وما فعله معه السلطان برقوق، وعن سبب توليه منصب قضاء المالكية، وعزله عنه كما سأله عن مكان

مولده، وموقع بلاد المغرب، والأندلس، ومدن، فاس، وطنجة، وسبتة، وتلمسان، فأجابه ابن خلدون بما يسمح به الوقت، ولكن تيمورلنك لم يقتنع بما سمعه منه أو لم يستوعبه، فطلب منه أن يسجله له كتابة، وتناول معه الطعام في تلك الجلسة.

وذكر ابن خلدون بأنه كان يتوجس خيفة بأن يلحقه ما لحق قاضي قضاة الشافعية، صدر الدين المساوي الذي حبسه تيمورلنك، وعذبه حتى مات بدعوى أنه استعلى عليه واحتقره، وتتلخص قصة المناوي فيما يلي:

كان صدر الدين محمد بن إبراهيم المناوي، قد أرسله السلطان فرج إلى حاكم دمشق الثائر والمتمرد، تنم، في رجب 802 هـ (مارس 1400 م) وعندما هاجم التتار دمشق فر مع الفارين في اتجاه مصر ولكن، التتار قبضوا عليه وأخذوه أسيراً وأحضروه إلى مجلس تيمورلنك، فجلس دون استئذان منه، مظهراً التعالي، فاعتبر تيمورلنك ذلك إهانة منه له، وأمر بأن يسحب على الأرض ويسحل كما تسحل الماشية والكلب، فتمزقت ثيابه، وخدش لحمه، وضرب ضرباً مبرحاً، وأودع السجن، وعندما رحل تيمورلنك أخذه معه فمات في الطريق غريقاً بنهر الزاب في شهر شوال 803 هـ (ماي ـ جوان ـ 1401 م).

تخوف ابن خلدون من هذا المصير وزور كلاماً يخاطبه به، يسمح له بأن يصبح ذا حظوة لديه، وزعم له بأنه كان يترقب ويتشوق للقائه منذ ثلاثين أو أربعين عاماً، وهذا كله من محظ الدجل والنفاق السياسي الذي جبل عليه ابن خلدون في بلاطات تونس، وبجاية، وتلمسان، وفاس، وغرناطة.

وبينما ابن خلدون يحكي ويقص لتيمورلنك هذه المقولات، وصل الخبر بفتح أبواب دمشق، فتوقف الحديث وحمل تيمورلنك على فرسه، واتجه إلى دمشق ونزل بالقرب من باب الجابية، وحضر إليه القضاة، وأعيان البلد، ودخلوا عليه بصحبة ابن خلدون الذي التحق بهم، وسلموا عليه، فخلع عليهم، وأثبتهم في مناصبهم، كما كانوا فانصرفوا، وعاد ابن خلدون إلى مقر إقامته في المدرسة العادلية واعتكف أياماً كتب خلالها مختصراً عن تاريخ بلاد المغرب

إلى تيمورلنك كما طلب منه قيل إنه يتألف من 12 كراساً، وحمله إليه وسلمه له، فطلب بعضهم أن يترجمه له إلى اللغة المغولية على ما قيل. ضيق تيمورلنك على قلعة دمشق حتى استسلم من بداخلها وخربها، وهدمها تماماً، وصادر أموال الناس، وأباح المدينة لأتباعه فنهبوها، وأشعلوا فيها النار فاحترقت، واحترق الجامع الأموي، وذاب رصاص أبوابه وزخرفته فاستبشع ابن خلدون ذلك، وأوكل أمره إلى الله، وهذا يؤكد عدم احترام تيمورلنك لتعهداته.

ابن خلدون يحضر تحقيقاً حول مدع للخلافة:

وخلال هذه الفترة ظهر رجل كان من ضمن من حصل على الأمان من جنود قلعة دمشق، ادعى أنه من سلالة الخلفاء العباسيين بمصر الذين نصب الظاهر بيبرس جدهم خليفة، وطلب من تيمورلنك أن يعترف له بمنصب الخلافة، بدلاً من الذي يتولاها بمصر دون مستند شرعي، وأورد له حديثاً نبوياً مزعوماً يؤيد دعواه، فجمع تيمورلنك مجلساً قضائياً بزعامة القاضي عبد الجبار الخوارزمي وكان ابن خلدون من ضمن القضاة الذين دعوا لهذا المجلس، فأنكر ابن مفلح صحة حديث: أن الخلافة لبني العباس ما بقيت الدنيا، وأكد أنه كاذب ومزور، وعندما جاء دور ابن خلدون أسهب في شرح قضية الخلافة منذ قيامها إلى ذلك الوقت، واستعرض أقوال وآراء المذاهب الإسلامية حولها، وشرح قضية الذي يتولاها آنذاك في مصر، وأكد صحة نسبه.

وشرعية توليته، فالتفت تيمورلنك إلى ذلك الدعي وقال له، ها أنت قد سمعت رأي الفقهاء، ولا شيء لك عندنا، فانصرف عنا راشداً فانصرف.

ابن خلدون يقدم هدية لتيمورلنك:

بعد أن تعرف ابن خلدون على تيمورلنك، وتحاور معه، وتردد عليه مدة عدة مرات، أشار عليه بعض أصحابه بأن يقدم له هدية، ولو متواضعة، فاشترى مصحفاً جميلاً وسجادة أنيقة، ونسخة من قصيد البردة للبصيري، وأربعة علب من الحلوى المصرية الفاخرة وحملها إليه في القصر الأبلق، وعندما دخل عليه في إيوانه جلس على يمينه وقدم له الهدية، وفتح له المصحف فوضعه على رأسه

تعظيماً له، ثم سلم له البردة فسأله عن محتواها وصاحبها، وأعطاه السجادة فقبلها، ووضع علب الحلوى بين يديه وتناول منها شيئاً أكله حتى يطمئن على عدم غشها، وذلك حسبما جرت العادة، فأخذها وقسمها على الحاضرين في تلك الجلسة، وشكره على صنيعه. وقد استغل ابن خلدون الفرصة وفاتحه في أمره هو، وأمر أصحابه، وقال ثم حومت على الكلام بما عندي في شأن نفسي، وشأن أصحاب لي هناك فقلت أيدك الله لي كلام أذكره بين يديك فقال: قل قلت، أنا غريب بهذه البلاد غربتين: واحدة من المغرب الذي هو وطني ومنشئي، وأخرى من مصر وأهل جيلي بها، وقد حصلت في ظلك وأنا أرجو رأيك لي فيما يؤنسني في غربتي، فقال قل الذي تريده أفعله لك فقلت حال الغربة أنستني ما أريد، وعساك، أيدك الله، أن تعرف ما أريد فقال انتقل من المدينة إلى الأوردو وأمكث عندي، وأنا إن شاء الله أوفى كنه قصدك فقلت يأمر لي بذلك نائبك شاه ملك، فأشار عليه بإمضاء ذلك فشكرت ودعوت وقلت، وبقيت لي أخرى، فقال، ما هي، فقلت هؤلاء المخلفون عن سلطان مصر من القراء والموقعين، والدواوين، والعمال صاروا إلى إيالتك، والملك لا يغفل مثل هؤلاء فسلطانهم كبير، وعمالاتكم متسعة، وحاجة ملككم إلى المتصرفين في صنوف الخدم أشد من حاجة غيركم، فقال، وما تريد لهم قلت، مكتوب أمان يستنيمون إليه ويعولون أحوالهم عليه، فقال للكاتب، اكتب لهم، فشكرت ودعوت وخرجت مع الكاتب حتى كتب لي مكتوب الأمان، وختمه شاه ملك بخاتم السلطان، وانصرفت إلى منزلي.

ابن خلدون يهدي بغلته لتيمورلنك ويعود إلى مصر:

وعندما عزم تيمورلنك على مغادرة دمشق وبلاد الشام إلى بلاده دخل عليه ابن خلدون ذات يوم، فسأله تيمورلنك ما إذا كان عنده بغلة جميلة فأجابه بنعم وعرض عليه أن يبيعها له، فرفض وقدمها له هدية، ولكن تيمور أرسل إليه ثمنها إلى القاهرة مع أحد الرسل فيما بعد.

وعندما قابله مرة أخرى وأخيرة بعد حوالي خمسة وثلاثين يوماً من الإقامة بدمشق والتردد عليه وسأله تيمور عما إذا كان يريد السفر والعودة إلى مصر فقال

له: إن كان ذلك في خدمتك فنعم، وإلا فلا، فقال له تيمور لا بد من أن تسافر إلى عيالك وأهلك بمصر، وطلب من أحد أبنائه الذي كان على وشك السفر إلى مركز شقحب لزيارة مربع دوابه أن يتولى رعايته.

فقبل ابن خلدون في البداية أن يسافر معه، ثم تراجع بدعوى أن وجهة ذلك الابن غير معروفة، كما أن وقت سفره لم يحدد بعد، وهو يريد أن يسافر إلى صفد، وقد تكون هناك أعذار أخرى لم يصرح بها ابن خلدون خاصة وأن تيمورلنك أو أتباعه سيثير الشكوك ضده.

وقد قبل تيمورلنك عذره وأوصى به قاصداً إلى صفد، كان بالصدفة حاضراً تلك المقابلة، وجاء رسولاً إليه من قبل حاجب صفد ابن الدويداري ولكن ابن خلدون اختلف معه حول الطريق الذي سيسلكه وفارقه، وسافر مع جماعة أخرى من أصحابه، وتعرض لهم العربان في الطريق، وسلبوا لهم أمتعتهم حتى اللباس، ولم يصلوا إلى صفد إلا بعد مشقة وصعوبات كبيرة ومن هناك أخذ ابن خلدون مركباً إلى مدينة غزة، ومنها إلى القاهرة التي وصلها في شعبان عام 803 هـ (17 مارس 1401 م) ووصل من بعده رسول السلطان فرج إلى تيمورلنك، وحمل له ثمن بغلته التي أهداها إلى تيمورلنك فرفض أن يسلمه إلا بعد أن يأذن السلطان له بذلك، وبعد مدة أرسل إليه ناقصاً وقيل له بأنه تسلمه هكذا ناقصاً.

ابن خلدون يراسل سلطان المغرب الأقصى:

وبعد أن استقر ابن خلدون بالقاهرة، كتب رسالة طويلة إلى سلطان المغرب الأقصى أبي سعيد عثمان بن أبي العباس بن أبي سالم المريني حدثه فيها عما حصل له من الأحداث مع تيمورلنك، ولخص له تاريخ التتار والمغول، ومما قاله له في هذه الرسالة أو التقرير.

«وإن تفضلتم بالسؤال عن حال المملوك فهي بخير والحمد لله وكنت في العام الفارط توجهت صحبة الركاب السلطاني إلى الشام عندما زحف التتر إليه في بلاد الروم والعراق مع ملكهم تمر، واستولى على حلب، وحماه وحمص،

وبعلبك وخربها جميعها، وعاثت عساكره، فيها بما يسمع أشنع منه ونهض السلطان فرج في عساكره لاستنقاذها وسبق إلى الشام، وبقي هناك مواجهاً إياه تيمور لمدة شهر، وبعدما رجع إلى مصر، وقد تخلف الكثير من أمرائه وقضاته وكنت من المختلفين.

«وسمعت أن سلطانهم سأل عني فلم يسع إلا لقاؤه فخرجت إليه من دمشق، وحضرت مجلسه، وقابلني بخير واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق وأقمت عنده خمساً وثلاثين يوماً أباكره، وأراوحه، ثم صرفني وودعني على أحسن حال، ورجعت إلى مصر».

«وكان طلب مني بغلة كنت أركبها فأعطيته آياها فسألني البيع فتأففت منه لما كان يعامل به من الجميل فبعد انصرافي إلى مصر بعث إلي بثمنها مع رسول كان من جهة السلطان هناك، وحمدت الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا».

وبعد أن استعرض ابن خلدون تاريخ التتار وبلادهم وملوكهم وغزواتهم، قال عن تيمورلنك: «وهذا الملك تمر من زعماء الملوك وفراعنتهم والناس ينسبونه إلى العلم، وآخرون إلى اعتقاد الرفض لما يرون من تفضيله لأهل البيت، وآخرون إلى انتحال السحر، وليس من ذلك كله في شيء إنما هو شديد الفطنة والذكاء كثير البحث واللجاج بما يعلم وبما لا يعلم عمره بين الستين والسبعين، وركبته اليمنى عاطلة، من سهم أصابه في الغارة أيام صباه على ما أخبرني، يجرها في قريب المشي، ويتناوله الرجال على الأيدي عند طول المسافة، وهو مصنوع له، والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده».

ابن خلدون يتولى منصب القضاء عدة مرات:

عندما سافر ابن خلدون إلى دمشق في المرة الثانية كان قاضياً للمالكية في مكان القاضي نور الدين بن الخلال الذي توفي، وعندما عاد السلطان فرج إلى القاهرة وترك من ورائه هناك ابن خلدون أشيع بأنه توفي فعين في مكانه جمال الدين الأقفهسي قاضياً للمالكية في منتصف جمادي الثانية 803 هـ (جانفي 1401 م) وبقي في هذه الوظيفة حتى عاد ابن خلدون من دمشق وثبت كذب

الإشاعة فعزل عن تلك الوظيفة وأعيد ابن خلدون إلى منصبه في شعبان من نفس السنة (أبريل 1401 م) وشمر عن ساق الجد لأدائها، فأنصف المظلوم وقهر الظالم، وقاوم أصحاب الأغراض الخاصة، فظهر منافسون له حاقدون وموتورون وسعوا ضده لدى السلطان، وكان على رأسهم جمال الدين البساطي الذي قدم من ماله الرشاوي ليحصل على منصب قاضي المالكية، ونجحت الخطة، وعزل ابن خلدون للمرة الثالثة أواخر شهر رجب 804 هـ (مارس 1402 م) وعين البساطي في مكانه.

غير أن السلطان راجع موقفه، عندما أدرك خطأه وتراجع عن رأيه السابق وعزل البساطي، وأعاد ابن خلدون إلى وظيفته القضائية كما كان للمرة الرابعة وذلك في ذي الحجة من نفس العام (جويلية 1402 م) فمارسها كعادته لمدة سنة وبعض السنة، ثم عزل عنها للمرة الرابعة، وأعيد البساطي إليها في ربيع الأول عام 806 هـ (سبتمبر 1403 م) وبقي يمارسها حتى العام الموالي، ثم عزل عنها، وأعيد ابن خلدون إليها للمرة الخامسة في يوم 10 شعبان عام 807 هـ (11 فيفري 1405 م) وبقي يمارسها حتى شهر ذي القعدة من نفس السنة (27 مارس 1405 م)، ثـم عزل عنها للمرة الخامسة لعـدة شهور، وأعيـد إليها في شهر رمضان عام 808 هـ (فيفري 1406) وبقي يمارسها حتى توفي.

وفاة ابن خلدون:

عندما تسلم ابن خلدون منصب قاضي المالكية في المرة السادسة، كان قد عجز، وتقدم به السن كثيراً ويبدو أن التقلبات التي عاشها طوال حياته خاصة صراعه ضد الفقهاء المتزمتين بالقاهرة، قد أثرت فيه كثيراً، ولذلك لم يبق إلا أسبوعين أو ثلاثة ثم توفي يوم الأربعاء 25 رمضان 808 هـ (17 مارس 1406 م) عن عمر ستة وسبعين عاماً تقريباً، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر بالقاهرة، ولكن قبره غير معروف الآن رغم الحفريات والتحريات التي أجريت على ذلك.

أبو زكرياء يحيى ابن خلدون
(734 ـ 780 هـ = 1333 ـ 1379 م)

ولد يحيى ابن خلدون بمدينة تونس عام 734 هـ (1333 ـ 1443 م). وحفظ القرآن الكريم على الشيخ ابن بر القرشي وتعلم عنه علم القراآت السبع للقرآن الكريم. ودرس كتاب التقصي لابن عبد البر في أحاديث الموطأ. ومختصر ابن الحاجب في الفقه. وكتاب التحصيل لأبي مالك في النحو. ثم تفرغ لدراسة الآداب العربية، على بعض شيوخ تونس المشهورين أمثال: الحصايري، والبرزالي وابن القصار، ومحمد ابن بحر، الذي أشار عليه وعلى أشقائه بحفظ المزيد من الشعر العربي خاصة شعر المعلقات، وأبي تمام، والمتنبي، وأبي العلاء وغيرهم كما أشار إلى ذلك عبد الرحمن بن خلدون شقيق يحيى.

وإلى جانب العلوم اللغوية، درس يحيى ابن خلدون العلوم الدينية على أشهر شيوخ وعلماء تونس، أمثال: ابن جابر الوادي آشي. والقاضي ابن عبد السلام، والجياني، وابن القصير، وغيرهم.

وبعد أن قام السلطان المريني أبو الحسن بغزو تونس واحتلالها يوم 8 جمادى الثانية عام 748 هـ (1347 م)، شهدت مدينة تونس حركة علمية واسعة بفضل ذلك الحشد الكبير من العلماء الذين صحبهم معه إلى هناك من تلمسان وفاس، أمثال: ابن مرزوق الخطيب، والآبلي، وابني الإمام، وأبي عبدالله الشريف، والشيخ السطي، وابن الصباغ، وابن عبد النور، وابن عبد المهيمن الحضرمي، وابن رضوان، وابن شعيب، وغيرهم.

فاستفاد يحيى ابن خلدون وأخوته استفادة واسعة، وانكبوا على تحصيل العلوم والمعارف منهم بكثير من الجد، والنشاط، خاصة الشيخ محمد بن إبراهيم الآبلي، الذي خصه كل من يحيى، وعبد الرحمن، الخلدونيين بالفضل عليهما، لما له من علم واسع، وإطلاع مكثف في مختلف العلوم العربية

الإسلامية الدينية، واللغوية والنقلية، والعقلية.

وعندما رحل أبو الحسن المريني عن تونس في شهر شوال من عام 750 هـ (1350 م) اختفت أخبار يحيى ابن خلدون عنا. وبرزت أخبار أخيه عبد الرحمن كما مرّ حيث نجده يتقلد وظيفة العلامة تونس الحفصي، ويشارك في أحداثه وحروبه ضد صاحب قسنطينة بمنطقة تبسة، ثم يلتحق ببسكرة، وتلمسان، وأخيراً فاس ليعين كاتباً لأبي عنان.

وفي عام 757 هـ (1356 م) يظهر يحيى ابن خلدون في مدينة فاس، ويلازم كبار العلماء بها هو وأخوه عبد الرحمن كذلك. وعلى رأسهم العلامة أبو البركات البلقيني والعلامة أبو عبدالله الشريف التلمساني. وكانت فاس في هذه الفترة تعج بكبار العلماء الذين أحاطهم السلطان أبو عنان بنفسه، وكرمهم، ويجلهم فأعطوا لفاس جواً من العلم مزدهراً، ودفعوا بالحركة العلمية خطوات هامة إلى الأمام في مجالات مختلفة، دينية، وأدبية، وعلمية، وفنية.

وحظى يحيى ابن خلدون، وأخوه عبد الرحمن بملاقاة ذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب الذي قدم إلى فاس لاجئاً هو وسلطان غرناطة، بعد المؤامرة التي حيكت ضدهما. وتوثقت صلاتهما به، وهو صاحب علم واسع، وقلم سيال، وخيال مبدع، وشعر رائع، وفن بديع.

وقد استغل يحيى ابن خلدون هذا الجو العلمي النشيط، وهذه الحركة العلمية الواسعة والدؤوبة، فانكب على الدراسة والتحصيل عدة سنوات أكسبته مهارة في الصناعة الأدبية وأهلته ليصبح كاتباً في ديوان الإنشاء بفاس عام 761 هـ (1360 م) تحت إشراف ابن رضوان كاتب السلطان، ورئيس ديوان الإنشاء، وكان ضمن عوامل ارتقائه إلى هذا المنصب تزكية ابن رضوان ورعايتها له، بسبب انتماء أسرتيهما معاً إلى الأندلس ولكرم الضيافة والرعاية التي حظي بها ابن رضوان نفسه بتونس لدى أسرة ابن خلدون خلال أحداث ابن تافراكين، وأبي الحسن المريني.

وخلال عمل يحيى بديوان الإنشاء اكتسب خبرة ومهارة بأساليب الإنشاء

والكتابة الفنية الديوانية، وتعرف على حياة البلاط السياسية، والأخلاقية، وتوثقت صلاته هو وأخوه عبد الرحمن، بأمير بجاية السابق أبي عبدالله محمد الحفصي الذي تنازل عن عرشه بعد حركة أبي عنان وغزوته لها ولتونس. وذلك بفضل الانتماء الواحد لبلاد تونس، والنشأة في ظلال العرش الحفصي هناك. وسيكون لهذه الصحبة والصداقة تأثير في مجرى حياة يحيى وأخيه عبد الرحمن، والأمير محمد.

وعندا قام السلطان المريني أبو سالم بغزو مدينة تلمسان في شعبان من عام 761 هـ (1360 م) صحب معه يحيى بن خلدون وأخاه عبد الرحمن، إلى هناك وأطلق سراح الأمير أبي عبدالله محمد الحفصي، وحثه على غزو بجاية واستعادتها من الأمير الحفصي أبي إسحاق كما أطلق سراح أمير قسنطينة السابق، أبي العباس وحثه على غزو قسنطينة واستعادتها كذلك من أبي إسحاق الحفصي السابق الذكر.

وذكر عبد الرحمن بن خلدون بأنه اتفق مع الأمير أبي عبدالله محمد أن يعينه حاجباً له عندما يستعيد بجاية، كما ذكر يحيى بن خلدون بأنه شارك في استعادة بجاية مع الأمير محمد، وتقلد وظيفة الحجابة في مكان أخيه «حفظاً للرسم»، وذلك بإشارة من السلطان أبي سالم المريني الذي ضمه إلى زمرة الأمير محمد الحفصي، عندما جهزه ليستعيد بجاية.

وبقدر ما استطاع الأمير أبو العباس أن يستعيد مدينة قسنطينة بسهولة في شهر رمضان من عام 761 هـ (1360 م) عجز الأمير محمد على استرجاع بجاية، واضطر أن ينسحب إلى مدينة المسيلة واعتصم بها، وطلب من أبي حموموسى الثاني عام 764 هـ (1363 م) أن يساعده في تحقيق هدفه، وكان رسوله إليه هو يحيى بن خلدون الذي وصل إلى تلمسان في شهر صفر من نفس العام، وقضى هناك عدة شهور ينتظر الجواب، واستغل الفرصة للاتصال بكبار العلماء، والاستفادة من علومهم ومعارفهم واستغل فرصة الاحتفال بعيد المولد النبوي لينظم وينشد قصائد شعرية في صفات الرسول وأخلاقه، وسيرته.

ولما لم يحصل على جواب، فقد عاد إلى مدينة المسيلة ليخبر الأمير الحفصي أبا عبدالله محمد، وعاد معه إلى تلمسان بعد حوالي ثلاثة أشهر، في نفس المهمة ووصلا إليها يوم 3 جمادى الثانية عام 764 هـ (1363 م)، ولكن الأمير أبا إسحاق الحفصي، عندما سمع بالخبر، أسرع إلى تلمسان وعرض على أبي حمو أن يعتقل الأمير محمد مقابل قيامه هو باعتقال ابن عمه أبي زيان المتمرد، والمطالب بعرش تلمسان. فاستجاب للعرض لأنه كان قلقاً جداً من أحداث ابن عمه هذا أبي زيان.

فخاب أمل يحيى ابن خلدون، والأمير محمد، وانسحبا بسرعة من تلمسان، والتحقا بأولاد علي بن أحمد، من الذواودة، المستقرين بنواحي الحضنة، ثم بأحلافهم سدويكش، وأقاما هنا مدة في قرية مُقْرَة، حتى سنحت الفرصة لهما، وتمكن الأمير محمد من استعادة بجاية في رمضان عام 765 هـ (1364 م) وعين صديقه ورفيقه يحيى بن خلدون في منصب ووظيفة الحجابة مدة من الزمن، وغزا مدينة دللس شرق مدينة الجزائر في شهر ذي الحجة عام 765 هـ (1364 م) وضمها إلى إمارته ببجاية. وبعد مدة تخلى يحيى بن خلدون عن وظيفة الحجابة لصالح أخيه عبد الرحمن لأسباب لا نعرفها ولم يشر إليها لا هو ولا أخوه.

وكان من المفروض أن يسعد الأمير محمد، ويحيى، وعبد الرحمن الخلدونيان، بوضعهم الجديد في بجاية، ولكن عوامل النحس كانت لهم بالمرصاد تلاحقهم، وتطاردهم حيثما حلوا وارتحلوا، وكان السبب هذه المرة ببجاية هو سوء سياسة الأمير أبي عبدالله محمد تجاه سكان بجاية، وتجاه ابن عمه أبي العباس أمير قسنطينة، الذي شنّ عليه الحرب، وهزمه في معركته: فرجيوة، وسطيف، أواخر عام 766 هـ (1365 هـ) واقتحم عليه مدينة بجاية واستولى عليها وقتله بها في شهر شعبان 766 هـ (1366 م).

فخاب أمل يحيى بن خلدون وأخيه، وتخوفاً من الأمير الجديد أبي العباس الحفصي، فغادر عبد الرحمن بجاية بعد أقل من شهر، واتجه إلى شيخ

الذواودة يعقوب بن علي واحتمى به مدة من الزمن، وقام الأمير أبو العباس باعتقال يحيى بن خلدون وسجنه بمدينة عنابة، وحجر أملاكه وأملاك أخيه ببجاية بعد أن قيل له بأنهما يخبئان بدارهما أسلحة وذخائر، وغير مخلصين له.

وبعد فترة من السجن والاعتقال بعنابة تمكن يحيى بن خلدون من الفرار، ومغادرة المعتقل، والتحق بأخيه عبد الرحمن في مدينة بسكرة لدى أميرها وشيخها ابن مزني، وبقي معه إلى أن جاءتهما دعوة من طرف أبي حمو بتلمسان، ليقدما عليه، مع عرض منصب سياسي، اقتضته ظروف وأوضاع سلطان تلمسان.

فقد كان أبو حمو موسى الثاني يواجه مشاكل سياسية معقدة، وخطيرة، خلقها له ابن عمه أبو زيان المتمرد ابن السلطان أبي سعيد الثاني الزياني. ورأى أن يستعين بعرب رباح ضده، وليحيى ابن خلدون وأخيه عبد الرحمن تأثير عليهم، ومعرفة جيدة، فرأى أن يستعين بهما، وكان عرب زغبة خاصة بنو عامر، وسويد، والعطاف، والديالم قد ساندوا أبا حمو في البداية، ثم لما انهزم أمام بجاية انقلبوا عليه، وساندوا ابن عمه أبا زيان الذي تركزت أحداث ثورته في الجهات الشرقية لمدينة وإمارة تلمسان.

وفي خلال شهر محرم من عام 769 هـ (1367 م) قام أبو حمو بحركة متابعة، وملاحقة لابن عمه أبي زيان، ووصل إلى مدينة مليانة، وأقام بها حتى ربيع الثاني، وأرسل إلى مدينة بسكرة المدعو عمر بن محمد بن مجن، رسولاً من قبله إلى يحيى بن خلدون يطلب منه الحضور إلى تلمسان، ويعرض عليه وظيفة سياسية، وطلب منه في نفس الوقت أن يقوم بمهمة لدى عرب رياح الذواودة، وشيخهم يعقوب بن علي بن أحمد، ليتحالفوا معه، وينصروه ضد ابن عمه المتمرد، أبي زيان.

وقد قبل يحيى بن خلدون العرض، والمهمة السياسية التي كلف بها، واتصل بعرب رياح وشيخهم وعرض عليهم رغبة أبي حمو، فرحبوا بها، وأعطوه وعداً بالوقوف إلى جانبه، فشد الرحال إلى تلمسان ليحمل إلى أميرها أبي حمو هذه الأنباء السارة، ووصل إليها في أول شهر رجب من عام 769 هـ

(1368 م)، وبرفقته وصحبته أربعة من أبناء شيخ الذواودة، وحوالي 400 فارساً. ودخلوا في شبه مظاهرة، وموكب حاشد.

فرح أبو حمو بمقدمه، وعينه كاتباً له في ديوانه، وقربه منه، واتخذه مستشاراً، وجليساً، فطاب له المقام، واستقدم أسرته من بسكرة على أمل الاستقرار بها بصفة نهائية.

ويقصّ علينا عبد الرحمن بن خلدون شقيق يحيى هذه الأخبار بكيفية أخرى، ويذكر أنه تولى وظيفة الحجابة والعلامة لأبي حمو بطلب منه، وأورد في تاريخه رسالة أبي حمو إليه في نفس الغرض بتاريخ 17 رجب 769 هـ (1368 م)، واستطرد بعد ذلك قائلاً: «وكان أخي يحيى قد خلص من اعتقاله ببونة (عنابة). وقدم علي ببسكرة. فعينته إلى السلطان أبي حمو كالنائب عنّي في الوظيفة متفادياً عن تجشم أهوالها بما كنت نزعت عن غواية الرتب، وطال علي إغفال العلم، فأعرضت عن الخوض في أحوال الملوك، وبعثت الهمة عن المطالعة والتدريس، فوصل إليه الأخ فاستكفى به في ذلك ودفعه إليه».

وفي تلمسان مارس يحيى ابن خلدون وظيفته السياسية الجديدة، وانكب على الدراسة والتحصيل، في نفس الوقت، على شيوخها وعلمائها الأجلاء، وعلى رأسهم أبو علي الزواوي الذي نوه به كثيراً في بغية الرواد. وقال عنه بأنه متضلع في علوم كثيرة خاصة علم الكلام، والأصول، والمنطق، والنحو. وبذلك يكون يحيى بن خلدون قد استفاد سياسياً بوظيفة الحجابة لدى السلطان، وثقافياً وعلمياً بدراسته وتعلمه، وتفقهه على علماء المدينة وشيوخها الأجلاء.

وكان من المفروض، والطبيعي أن يتواصل هذا الجو السياسي والثقافي، ولكن عدم الاستقرار بتلمسان والمغرب الأوسط بصورة عامة، عاق يحيى ابن خلدون عن مواصلة عمله السياسي والثقافي، وعاق السلطان أبا حمو موسى الثاني عن بسط نفوذه وسلطانه على البلاد، والقضاء على فتن ابن عمه ومنافسه، أبي زيان، وإخضاع عرب زغبة البدويين إليه.

فقد عادت الخصومات والخلافات بين عرب بين عـام، وسويد،

الزغبيين، بسبب الصراع الحاد بين الأميرين، واضطر أبو حمو أن يخوض عدة حروب ومعارك ضد ابن عمه، وأنصاره.

وفي صفر عام 771 هـ (1369 م) غزا قلعة بني سلامة موطن عرب سويد، وخرب مبانيها، وعمرانها، بعد أن رفض زعيمها أبو بكر بن عريف الانصياع له. واضطر عرب سويد أن يغادروا بلادهم وموطنهم، ويلتحقوا بأبناء عمومتهم بالمغرب الأقصى الذين كان يتزعمهم ونزمار بن عريف، ويخدم السلاطين المرينيين.

وقد تعاونوا معاً على إقناع السلطان المريني عبد العزيز، بغزو مدينة تلمسان وضمها إليه. فاستعد لذلك أواخر نفس العام. وعندما علم أبو حمو بهذه الأخبار غادر تلمسان إلى البطحاء في شرقها من أجل تجنيد الناس لمواجهة هذا الغزو المريني المرتقب وهناك وافاه عبد الرحمن بن خلدون وزعماء الذواودة فعاد بهم إلى تلمسان في أوائل ذي القعدة عام 771 هـ (1370 م)، وعاد يحيى بن خلدون الذي خرج معه في البداية. وسر بلقاء أخيه عبد الرحمن، الذي كان يتوقع أن يقيم معه بتلمسان، ولكنه طلب الإذن في الانصراف، والاتجاه إلى بلاد الأندلس، فأذن له أبو حمو واتجه إلى ميناء هنين ليأخذ من هناك سفينة أو مركباً يقله إلى عدوة الأندلس، ولكن السلطان المريني عبد العزيز أمر بإيقافه وإعادته إلى تلمسان كما مر.

وعندما علم أبو حمو باقتراب السلطان عبد العزيز من تلمسان غادرها، بصحبة أهله، وأولاده، وأنصاره، واتجه إلى منداس بالسرسو في الهضاب العليا وجبال الونشريس، فانفصل هناك عنه بنو راشد، وبنو توجين، والتحقوا بأراضيهم في حوض الشلف، وهاجم عبد العزيز المريني مدينة تلمسان واستولى عليها أواخر شهر محرم عام 772 هـ (1371 م)، وواصل أبو حمو سيره إلى منطقة الزاغر ونزل لدى أولاد يحيى بن علي بن سباع الذواودة، جنوب غرب مدينة المسيلة، واستقر هناك أياماً حتى علم بملاحقة المرينيين له، واقترابهم منه فعزم على الفرار، والالتحاق بالجنوب. وهنا، وفي قمة هذه المحنة، والمصيبة، والكارثة قرر يحيى بن خلدون التخلي عن ولي نعمته أبي حمو،

والانفصال عنه، والعودة إلى تلمسان، للاتصال بصاحب العرش المريني الجديد، والعمل معه إن أمكن. ولسنا ندري الأسباب والدوافع الحقيقية لهذا التصرف من طرف يحيى بن خلدون، أهي وحشة، وخلافات مع أبي حمو أم هو طموح إلى المناصب العليا لدى من بيدهم الحل والعقد بتلمسان، أم هي إشارة من أخيه عبد الرحمن الذي أعيد إلى تلمسان وعاد له اعتباره فأراد أن ينقذ أخاه من سوء المصير الذي كان يتوقعه له مع هذا السلطان الزياني الذي تعصف به الرياح في كل اتجاه، وتداهمه الكوارث والنكبات أنّى حلّ وارتحل؟

وقد ذكر يحيى بن خلدون في كتابه بغية الرواد، ما يفيد أن هناك شيئاً، ولكنه امتنع عن الإفصاح عنه فقال: «ومن هنا فارقته أيده الله لخيالات سوداوية اعتورتني، ونزاعات شيطانية تجاذبتني، وسوء بخت تقاعس عن إدراك الفخر برحلي. وشقاء مكتوب أهوى إلى درك الخسارة بي». ثم استدرك قائلاً: «ولولا أن أفصح مستوراً، وأخلد في بطون الأوراق وصماً مشروحاً لأبنت ما جرى وقلت كيف كان، لكن فضله ومجده محا السيئات وجلا بمنصة العفو المحاسن، والاعتراف إنصاف، والندم توبة، ولا ذنب، كما ورد مع إقرار».

وكما قلنا فإن من أهم الاحتمالات تأثير أخيه عبد الرحمن عليه الذي كان يدعو لطاعة السلطان المريني بتلمسان. ونبذ طاعة أبي حمّو الزياني بمنطقة المسيلة والحضنة.

وعندما عاد يحيى إلى تلمسان التقى مرة أخرى بلسان الدّين بن الخطيب ذي الشهرة والمكانة العلمية والأدبية، والسياسية، الذي فر من الأندلس، وتخلى عن مركزه السياسي بعد أن كثر حساده والواشون ضده إلى سلطان بني الأحمر، وبقي يحيى بن خلدون بتلمسان حتى توفي السلطان المريني عبد العزيز، في يوم 22 ربيع الثاني 774 هـ (1372 م) وبويع السلطان الجديد بفاس، فرحل إليها صحبة الوزير ابن غازي، ولسان الدين بن الخطيب، والتحق بهم هناك عبد الرحمن بن خلدون قادماً من بسكرة.

وهناك تفرغ لسان الدين بن الخطيب لتأليف كتابه: «أعمال الأعلام فيمن

بويع قبل الاحتلام» لتبرير صحة مبايعة السلطان المريني الطفل الصغير، الأمير السعيد، فتأثر الأخوان: يحيى، وعبد الرحمن الخلدونيان بذلك العمل على ما يبدو، ولربما سيكون إحدى الدوافع لقيام يحيى بتأليف كتابه: بغية الرواد، وقيام أخيه عبد الرحمن بتأليف كتابه: العبر وديوان المبتدأ والخبر.

وكان من المفروض أن يطيب المقام ليحيى وأخيه في فاس، ولكن الأحداث والمشاغب السياسية سرعان ما عصفت بهما، وبغيرهما من الساسة، حتى السلطان ووزراؤه فقد حدثت اضطرابات سياسية، وفتن داخلية وخارجية بالمغرب الأقصى، وتدخل سلطان غرناطة الأندلسي فيها بسبب مشاكل لسان الدين بن الخطيب، واتصل سرّاً بالقائد محمد بن الكاس ابن عم الوزير بن غازي، واتفق معه على تقديم مساعدة عسكرية له ليجهز على الوزير ابن غازي، وسلطانه الطفل السعيد، ومبايعة أبي العباس أحمد بـن أبي سالم المريني.

ونجحت الخطة والمداخلة، وهزم ابن غازي، وحوصر داخل أسوار فاس. وتخوف لسان الدين بن الخطيب، على مصيره، وتشفع بأبي حمّو موسى الثاني سلطان تلمسان بواسطة يحيى بن خلدون، وكتب إليه رسالة. ونظم قصيدة شعرية في مدحه داخل سجنه، ولكن هذا التشفع لم ينجح، لأن الأحداث تطورت بسرعة، فاستسلم الوزير ابن غازي للمتمردين، وخلع السلطان السعيد، في يوم 6 محرم 776 هـ (1374 م)، واعتقل ابن الخطيب، وقتل بعد أن اتهم بالكفر والزندقة ليلة أول صفر 776 هـ (1374 م).

فشعر يحيى ابن خلدون بعدم الاطمئنان وتخوف من أن يلحقه نفس المصير، خاصة بعد أن عزل من مكان يحميه ويدافع عنه، وهو الوزير ابن غازي، ولذلك غادر فاس بسرعة، وعاد إلى تلمسان ليتصل بأبي حمو الذي انفصل عنه قبل ذلك، منذ أربع سنوات، ووصل إليها في أول ربيع الأول 776 هـ (1374 م) واتصل بالسلطان، واعتذر له عما بدر منه في السابق، وطلـب الصفح والعفـو، فحصل على ما يريد.

وكان رجوعه ذا فائدة لأبي حمو نفسه كذلك لأنه كان يعاني مشاكل

سياسية وعسكرية معقدة. بسبب عداء أشياخ بني عامر له، وهم خصوم تقليديون لعرب سويد. واضطر أن يتحالف معهم حتى يواجه بني عامر في مركز قوة، ولعب زعيمهم وونزمار بن عريف وأبو تاشفين بـن أبي حمو، دوراً هاماً في هذا التقارب، بعد أن كانوا في السابق خصوماً وأعداء له كما سبق أن أشرنا إلى ذلك.

وقد يكون ليحيى بن خلدون دور كذلك في هذا التقارب، بين أبي حمو، وعرب سويد، ولذلك عينه كاتباً له من جديد في ديوان الإنشاء. وسيكون هذا المنصب وهذه الوظيفة سبباً في القضاء على حياته في نهاية المطاف على أيد ابنه المشاغب والطموح، أبي تاشفين.

فلقد كان هناك صراع خفي بين أبي حمو، وابنه أبي تاشفين ولي عهده، الذي برزت شخصيته في هذه الفترة، وأخذ يلعب دوراً في الحياة السياسية للإمارة، وفي اتجاه القصر داخلياً، أقلق أباه، وكاد أن يسلم له كل السلطات في فترة من الفترات بعد أن توثقت صلاته وتمتنت بعرب سويد.

وفي هذا الجو السياسي المضطرب، والمتقلب، تمكن يحيى بن خلدون من إنجاز الجزء الأول من كتابه: بغية الرواد، الذي وصل فيه إلى أواخر عهد أبي حمو موسى الثاني وذكر في مقدمته أن أبا حمو هو الذي أشار عليه بتأليفه، وتردد في البداية ثم امتثل، وذكرنا في السابق بأنه ربما تأثر بعمل لسان الدين بن الخطيب.

وفي عام 777 هـ (1375 م) نشب صراع حاد بين بني عامر، وعرب سويد أثر في أوضاع عرش بني زيان. وانحاز أبو حمو إلى سويد طبعاً. لأن بني عامر خصوم له، وتسبب ذلك في مشاكل وصعوبات للعرش الزياني. تضاعفت وتكاثرت بمرور الزمن. ولم تأت سنة 779 هـ (1377 م) حتى أصبح بلاط بني زيان بتلمسان مسرحاً للمناورات والمؤامرات بين أصحاب السلطة والنفوذ، خاصة بين أبي حمو، وابنه أبي تاشفين.

وحدث ما أقحم يحيى بن خلدون فيها وأدى إلى مقتله.

فقد عين أبو حمو موسى، ابنه أبا زيان حاكماً على وهران بعد أن عزله عن إقليم المدية بالتيطرى، لاتهامه بإجراء اتصالات مشبوهة مع عرب البدو في

تلك المنطقة. ولكن أبا تاشفين لم يرض بهذا الإجراء، وكان يود أن يتولى هو حكم وهران وولايتها نظراً لأهميتها الاقتصادية، والاستراتيجية، ولقربها من العاصمة تلمسان مركز السلطة والنفوذ، وسانده في هذه الرغبة، أصدقاؤه من عرب سويد. وخلق لأبيه أبي حمو مشكلة، وأقلقه بتصرفاته الحمقاء، وجعله يتردّد في اتخاد قرار نهائي في المشكلة. لكونه لم يرد أن يغضب أياً من ابنيه: أبي زيان، وأبي تاشفين، وهداه تفكيره إلى المماطلة ما أمكن هو وكاتبه يحيى.

وكان يرى أن تماطله في اتخاذ القرار سيسمح له بإيجاد مخرج، وهو ما عبر عنه عبد الرحمن بن خلدون بقوله: «وإنما أسعفه ظاهراً، وعهد إلى كاتبه يحيى بن خلدون بمماطلته في كتابتها حتى يرى المخلص من ذلك».

وقد أذعن يحيى بن خلدون لرغبة أبي حمو، وتأخر في كتابة عقد الولاية. فسعى حساده والحاقدون عليه، لدى أبي تاشفين، وصوروا له وزعموا أن يحيى بن خلدون تماطل في كتابة عهد التولية له على وهران، خدمة لأبي زيان، وكان الذي قام بهذه السعاية والوشاية الكاذبة هو موسى بن يخلف، كما ذكر عبد الرحمن بن خلدون.

فنالت هذه السعاية وفعلت فعلها في نفسية أبي تاشفين، وقرر أن ينتقم منه دون أن يحاول التثبت والتأكد، فاتفق مع بعض صعاليك المدينة لتنفيذ خطته، وفي إحدى ليالي رمضان من عام 780 هـ (1379 م) اعترضوا طريقه وهو عائد من صلاة التراويح بقصر السلطان، إلى منزله، فطعنوه بخناجرهم، وأسقطوه من على دابته، وأجهزوا عليه وقتلوه، ففقدت تلمسان والفكر، والثقافة، علماً من أعلامها التاريخيين.

وعندما انتشر الخبر في الصباح عزم السلطان أبو حمو على إجراء تحقيق، ثم عدل بعد أن علم بمشاركة ابنه أبي تاشفين في المؤامرة، ولم يكتف بهذا بل أنه وافق على تعيين ابنه المتآمر والياً على وهران كما كان يرغب، على حساب حياة صديقه، ورفيقه، وكاتبه، ومؤرخ سيرته وحياة أجداده وتاريخ مدينته، وعاصمة إمارته تلمسان، يحيى بن خلدون.

الشيخ أبو عبدالله محمد بن عبد الكريم المغيلي

ينتسب محمد بن عبد الكريم المغيلي إلى قبيلة مغيلة بأحواز تلمسان، وولد وعاش في فترة كانت فيها تلمسان تتخبط في مشاكل وأحداث، وتقلبات، واضطرابات سياسية خطيرة داخلياً وخارجياً.

ففي الداخل هناك صراع حاد بين الأمراء والسلاطين الزيانيين على العرش، والسلطة، والنفوذ، وبين الأعراش، والقبائل المجاورة للمدينة حول المشاكل السياسية والاقتصادية، وحول التنفـذ السياسي، لدى العرش الزياني.

وفي الخارج كثرت غارات القراصنة الأوروبيين المسيحيين خاصة الإسبان والبرتغاليين، على مواني الإمارة الساحلية، وكل سواحل بلدان المغرب الإسلامي الأخرى شرقاً وغرباً على الجبهتين الأطلسية والمتوسطية.

ولا نعرف بالضبط متى ولد محمد بن عبد الكريم المغيلي لأن الذين ترجموا له لم يحددوا ذلك، وما اطلعنا عليه من كتاباته هو لم تشر إلى ذلك، ولكن يبدو أنه ولد في مطلع القرنين، التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي وذلك استناداً إلى تاريخ وفاته، وحفظ القرآن الكريم في صغره كعادة كل أبناء المسلمين الميسورة، ثم اعتكف على دراسة العلوم العربية الإسلامية، اللغوية، والدينية، العقلية، والنقلية، على الشيوخ والعلماء الأجلاء المشهورين وعلى رأسهم، الشيخ يحيى بن يدير، والشيخ عبد الرحمن الثعالبي، الذي أخذ عنه بصورة خاصة علم التصوف[1].

---

(1) ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان (الجزائر 1908) ص 253 ـ 256
عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. جـ 3. ط 4 (بيروت ـ 1982) ص 71 ـ 75.

وعندما توسعت مداركه ومعارفه، وتزود بما يكفيه تصدى هو الآخر للتدريس كشيخ وأستاذ، فتتلمذ عليه عدد لا بأس به من العلماء والشيوخ أمثال الفقيه أيد أحمد، والشيخ العاقب الأنصمي، ومحمد بن عبد الجبار الفيجيجي، وغيرهم.

وخلال اشتغاله بالتدريس في تلمسان، لاحظ التعفن السياسي الذي يسود عرش بني زيان، والتفسخ والانحلال اللذين يعمان مجتمع المدينة الزيانية، وتكالب القوى الأوروبية ضد البلاد وموانيها ومدنها الساحلية، وضد كل بلدان المغرب الأخرى شرقاً وغرباً. ولاحظ المغيلي كذلك خروج الأمراء عن الجادة الإسلامية، وانعماسهم في الملذات، واستسلامهم لأهواء الأجانب من اليهود، والإسبان، والبرتغاليين، فانف من العيش هناك، وتاقت نفسه للهجرة إلى حيث يكون في مقدوره أن يقوم بواجب الأمر بالعروف والنهي عن المنكر. فغادر تلمسان إلى السودان الغربي في أواخر السبعينات من القرن الخامس عشر الميلادي وقصد واحات توات ووصل إليها في حدود عام 1479 واستقر بعض الوقت لدى أولاد يعقوب في واحة تمنطيط. ثم انتقل إلى واحة بوعلي الهني، وأسس هناك زاويته الدينية التي ما تزال حتى اليوم تحمل اسمه.

أوضاع واحات توات:

وكانت واحات توات في هذه الفترة عبارة عن ممالك وإمارات صحراوية صغيرة، يسيطر على أقدارها السياسية كبار التجار، والأثرياء وذووا الجاه والنفوذ الديني والاقتصادي، ويهتم الناس فيها بصورة خاصة بقوافل التجارة الصحراوية التي تغذو وتروح بين مواني الشمال الساحلية، ومدينة تمبوكتو في أعماق الصحراء الجنوبية، ومن ضمنها القوافل التي تنطلق من وهران، وتلمسان، وفاس، ومراكش، وتمر على واحات توات في ذهابها وإيابها.

فيشترون منها سلعها، ويزودونها بسلع الصحراء المتمثلة في تبر الذهب وسبائكه، وريش النعام، وبيضه، والعبيد، وملح الطعام، والسمن، ومادة النيلة للصباغة، والجلود، والجوز، وبعض الأنسجة الملونة، وتجارة القوافل

الصحراوية في السودان العربي، مربحة كثيراً ولذلك استرعت حتى بعض المغامرين الأوروبيين الذين حاولوا أن يصلوا إليها، ليطلعوا على حقيقة الأمور، وينالوا من ثرواته، وبضائعه خاصة تبر الذهب، والعبيد. ومن هؤلاء الرحالة الجنوي مالفانت الذي غامر ووصل إلى قلب السودان الغربي عام 1447 م.

وكان محمد بن عبد الكريم المغيلي، على علم واطلاع واسع بحقيقة هذه التجارة الصحراوية وما تدره من أرباح، لأن تلمسان في عهده كانت لها صلات تجارية هامة ووثيقة بواحات توات ومعظم مناطق السودان الغربي.

كما أن التلمسانيين كانوا يتخذون لأنفسهم مندوبين وعمالاً تجاريين بأسواق توات والصحراء، يحددون لهم الأسعار الرائجة، ويرسمون لهم السلع المطلوبة، التي ينبغي أن يعدوها ويرسلوها إلى الصحراء لكثرة الطلب عليها، ويتكلفون مقابل ذلك بشراء سلع الصحراء المطلوبة لهم في الشمال.

وقد أشرنا إلى هذا عند الحديث عن علماء أسرة المقري، وتناولناه كذلك في موضوع، طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الفرنسيون في القرن التاسع عشر الذي ألقيناه في مؤتمر دولي عام 1980 بمدينة طرابلس الليبية. ونشرناه في مجلة الثقافة[1].

وحتى الأمراء والسلاطين الصحراويون مثل أمراء التكرور كان لهم نشاط تجاري، ومندوبون تجاريون بتلمسان يشترون لهم ما يريدون ويبعثونه إليهم مع القوافل الصحراوية.

وقد أُثر عن السلطان أبي حمو موسى الثاني الزياني، حسب رواية المقري في نفح الطيب قوله: «لولا رغبتي في اتقاء ما يلحق بي من شناعة لما أنزلت ببلادي تاجراً من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذي كل أمور الدنيا له تبع»[2].

---

(1) يحيى بوعزيز: طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى. مجلة الثقافة. عدد 59. (سبتمبر، أكتوبر ـ 1980). ص 13 ـ 30.

(2) أحمد المقري: نفح الطيب. جـ 1 (بيروت ـ 1968) ص 556 وما بعدها.

وكان طريق تلمسان إلى توات ومناطق نهر النيجر الأعلى إحدى طرق القوافل التجارية الصحراوية الهامة على أيام المغيلي، وهو الذي سلكه عندما اتجه إلى توات والسودان الغربي، من أجل القيام بالإصلاح الديني والاجتماعي والثقافي.

وعندما وصل إلى هناك وجد وضعاً دينياً، واجتماعياً واقتصادياً سيئاً وغير متوازن، لا يخدم مصالح السكان الأهالي، وإنما يخدم فئة خاصة من اليهود، وبعض المتعاونين معهم من التجار الشرهين، فشمر عن ساق الجد لتقويمه وإصلاحه ولو بالقوة، والعنف وهو ما حصل فعلاً.

مقاومة تنفذ اليهود في توات:

فقد وجد المغيلي في توات جالية يهودية طاغية، بمالها وثرائها الفاحش الذي اكتسبته بالربا، وتنميه بالتجارة غير المشروعة عن طريق استغلال الضعفاء، واحتكار الأموال وسلع التجارة وبضائعها. وقد هاجرت هذه الجالية اليهودية إلى توات من الأندلس، كما هاجرت جاليات أخرى يهودية إلى سجلماسة، ووادي غير، وفعلت نفس الشيء، فطغت، وتجبرت على الأهالي واستغلت سذاجتهم، وطيبتهم، لتحقيق الأرباح الفاحشة.

وقد استغل يهود توات أموالهم وثراءهم الفاحش فتحكموا في القادة والساسة، وتسلطوا عليهم، وأخضعوهم لإراداتهم، ولخدمة مصالحهم الخاصة. وكان مالفانت الجنوي قد لاحظ قبل المغيلي بحوالي نصف قرن، هذه الوضعية السياسية والاقتصادية الخاصة ليهود توات وتمنطيط، وقال: «يتكاثر اليهود هنا (تمنطيط) وتسير حياتهم في سلم وظل الرؤساء الذين يدافع كل واحد منهم على أتباعه، ولهذا يتمتع اليهود بحياة سهلة وتسير التجارة بواسطتهم، ويضع الكثيرون منهم ثقتهم فيهم».

ولا شك أن بعض الأمراء، وزعماء الأسر الغنية في تمنطيط، كان لهم دخل في تنفذ اليهود الديني والسياسي، الذي استغلوه ليمارسوا أعمالاً أخرى خسيسة أبرزها محاولتهم النيل من عواطف المسلمين الديني وكرامتهم.

ومن أغرب الأمور التي كشف المغيلي الغطاء عنها في تمنطيط وجود يهودي متنكر في زي إمام مسلم أَمَّ المسلمين طيلة أربعين عاماً وعندما افتضح أمره بواسطة المغيلي جمع حوائجه وحاول أن يفر فلاحقه المغيلي وتولى قتله بنفسه، وقد أورد هذه القصة: سلكه عبد الرحمن في دراسته عن واحات توات[1].

وزيادة على هذا قام يهود تمنطيط ببناء وتشييد بِيعَةً كبيرة لهم تجاوزت كل الحدود في ضخامتها، كما بنوا بِيَعاً أخرى في واحات توات الأخرى التي يتواجدون فيها، وكأنها مملكة يهودية لهم، وليست أرضاً إسلامية. وقد اعتبر المغيلي ذلك مساساً بالشعور الإسلامي، وكرامة المسلمين الدينية، وتطاولاً على شعب توات المسلم، واعتداء على سيادته الوطنية وآلى على نفسه أن يقاوم هذا التطاول، والاستعلاء اليهودي ويعيد اليهود إلى مكانهم الطبيعي كجالية يهودية في بلاد إسلامية.

وفي نفس الوقت الذي كان فيه المغيلي يخوض هذه المعركة في تمنطيط وواحات توات الأخرى، كان الشيخ سليمان يخوض نفس المعركة ضد الجالية اليهودية في واد غير لنفس الأسباب كذلك.

نماذج من مكر اليهود في العالم الإسلامي:

والغريب والطريف في الأمر، أن اليهود في هذه الفترة كانوا متنفذين كذلك في المغرب الأقصى لدى سلاطين بني مرين، ويعبثون بمصالح المسلمين السياسية والاقتصادية، خاصة هارون اليهودي الوزير الأول للسلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني الذي كان يتحكم في رقاب المسلمين بفاس، ويفعل فيهم الأفاعيل، وشاويل اليهودي الذي كان حاكماً على فاس. وكان ذلك سبباً في قيام مزوار الشرفاء محمد بن علي بن عمران الإدريسي، بثورته وقيامه بقتل السلطان عبد الحق، ووزيره هارون اليهودي، وشاويل، وباقي يهود فاس،

(1) SABDERRAH. H MANE SELKA: Notice sur le touat. Bul. So.G. D'ALGER (Alger-1922). PP. 522-5.

والقضاء على أسرة، بني عبد الحق المرينية ومبايعة الشريف علي الرضا الإدريسي من أسرة بني وطاس عام 869 هـ (1465 م)[1]. وليست هذه أول مرة يتصرف فيها اليهود بمثل هذه الأعمال الدنيئة وهذا المكر والخبث، والخداع، فيجلبون على أنفسهم رد فعل المسلمين وحكامهم، الذين يعملون على إعادتهم إلى رشدهم وصوابهم.

ففي نهاية القرن السادس الهجري (595 هـ) والثاني عشر الميلادي عاقبهم يعقوب المنصور وفرض عليهم لباساً خاصاً يتمثل في قميص طوله وعرضه ذراع، وفي قلانس وبرانس زرقاء، حتى يكونوا معروفين لدى الجميع ولا يقدرون على ممارسة خبثهم، ومكرهم، وخداعهم[2].

وفي عام 648 هـ (1250 م) فرض السلطان محمد المستنصر الحفصي لباساً خاصاً على اليهود بتونس كذلك، لنفس الأسباب والدوافع، بعد أن كثر مكرهم وخداعهم للناس اقتصادياً، واجتماعياً ودينياً. وبالغوا في ممارسة تجارة الربا، والتدخل في شؤون الناس. ولكن اليهود جبلوا على المكر والخبث والخداع عبر التاريخ، وسوف لن يتخلوا عن ذلك، وما هذه الأحداث، بتونس، وفاس، ووادي درعة، وسجلماسة، وتمنطيط، إلا نماذج لنفاقهم الذي لا ينتهي[3]. وليست جرائمهم حالياً بفلسطين، ولبنان، وكل بلدان المشرق العربي، إلا صورة لما قاموا به عبر التاريخ من جرائم وخبائث.

موقف العلماء من دعوة المغيلي ضد يهود تمنطيط:

وكان من المفروض أن تجد دعوة المغيلي في تمنطيط صدى واستحساناً ودعماً وتأييداً، من ذوي الحل والعقد، خاصة الفقهاء، ولكن قاضي توات أبا عبيدالله العصنوني، عارضها ووقف ضدها، واستنكر على المغيلي اتجاهه، فالتجأ إلى علماء فاس، وتلمسان، وتونس، وكاتبهم، واستفتاهم، وطرح

---

(1) الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس ـ 1966) ص 156.
(2) نفس المصدر. ص 16.
(3) نفس المصدر. ص 33.

عليهم الفكرة، وطلب رأيهم، فأيده البعض، وعارضه آخرون.

وممن عارضه بتلمسان مفتيها ابن زكري، والقاضي أبو زكرياء يحيى بن أبي البركات، وعبد الرحمن بن سبع، وبفاس مفتيها أبو مهدي الماواسي.

جواب الشيخ السنوسي للمغيلي:

ومما جاء في جواب الشيخ السنوسي التلمساني إلى المغيلي نقلاً عن البستان قوله: «إلى الأخ الحبيب القائم بما اندرس في فاسد الزمان من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى القيام بها لا سيما في هذا الوقت علم على الاتسام بالذكورة العلمية، والغيرة الإسلامية، وعمارة القلب بشرف الإيمان، السيد أبي عبدالله محمد بن عبد الكريم المغيلي حفظ الله تعالى حياته وبارك في دينه ودنياه، وختم لنا وله ولسائر المسلمين بالسعادة والمغفرة بلا محنة يوم نلقاه بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقد بلغنا أيها السيد ما حملتكم عليه الغيرة الإيمانية والشجاعة العلمية من تغييركم أحداث اليهود أذلهم الله تعالى وأخمد كفرهم، كنيسة في بلاد المسلمين وأنكم حرضتم أهل تمنطيطة على هدمها فتوقفوا من جهة من عارضكم في ذلك من أهل الأهواء فبعثتم لذلك أسئلة تستنهضون بها همم العلماء لينظروا في ذلك. فاعلم أني لم أر من وقف لإجابة هذا المقصد وبذل وسعه في تحقيق الحق وشفاء غليل أهل الإيمان في المسألة، ولم يلتفت لأجل قوة إيمانه ونصوع إيقانه، لما يشير إليه الوهم الشيطاني من مداهنة بعض من تتقي شوكته ويخشى وقوع ضرر منه سوى الشيخ الإمام القدوة الحافظ المحقق علم الأعلام أبو عبدالله التنسي أمتع الله به المسلمين، وجزاه خيراً: فقد مد باعه في إبانة الحق، ونشر أعلامه وأطال النفس، وحقق نقلاً وفهماً وبالغ في ذلك حتى أبدى من نور إيمانه الماحي ظلمات الكفر أعظم قبس، انتهى ملخصاً»[1].

---

(1) ابن مريم: البستان. ص 233 ـ 256. ويمكن العودة إلى كتاب مصباح الأرواح في أصول الفلاح للشيخ عبد الكريم المغيلي الذي حققه وقدم له المرحوم رابع بونار ونشره في عقد السبعينات حيث أورد فيه الكثير من ردود العلماء للشيخ المغيلي. كما أورد فيه رسالة المغيلي التي كتبها حول موقفه من اليهود ورأيه فيهم بوضوح.

المغيلي يهدم بيعة تمنطيط:

أخذ المغيلي برأي المؤيدين له، وجمع أصحابه وأنصاره، وطلب منهم أن يحملوا المعاول والفؤوس، ويذهبوا معه لهدم بيعة اليهود فاستجابوا لرغبته، وخربوا بيعة تمنطيط وهدموها عن آخرها كما هدموا البيع الموجودة في الواحات الأخرى، وذلك في حدود عام 1442 ووعد كل من يقتل يهودياً معارضاً بإعطائه سبعة مثاقيل ذهبية. فغضب اليهود، وحقدوا عليه، وصاروا لا يسلمون عليه وعلى أصحابه عندما يمرون عليه، وأخذوا يشيعون بعض الأقاويل ضده، فاغتاظ أصحابه من ذلك، وقاموا برد الفعل، فهاجم المدعو مبروك بن أحمد جمعاً من اليهود في واحة تاخفيف وقتل واحداً منهم.

المغيلي يرحل إلى فاس ليدافع عن قضيته:

ونظراً لتضارب الأقوال وتعارضها في فاس حول موقف المغيلي وعمله وصنيعه هذا، فقد شد الرحال إليها صحبة بعض تلاميذه ليشرح القضية لعلمائها ويوضح أسبابها وأهدافها.

وعندما وصل إليها خص باستقبال حافل في البداية من طرف السلطان والعلماء حتى المعارضين له، ثم لما جمع السلطان العلماء، والفقهاء وتم نقاش القضية في جلسة طويلة، وحادة وساخنة على ما يبدو تمكن الحاقدون على المغيلي من تغيير مجرى القضية. وتغلبوا على عقلية السلطان، وأخرجوا القضية من إطارها الديني والاجتماعي إلى إطار سياسي، وصوروا له المغيلي على أنه صاحب طموح أو طموحات سياسية وأن عمله بتوات يخفي من ورائه أهدافاً سياسية.

غير أن المغيلي دافع بشدة على موقفه، ورفض فكرة الطموح السياسي الذي حاولوا أن يلصقوه به وبقضيته، وأكد أنه تصرف في إطار الشريعة الإسلامية للحفاظ على الطابع الإسلامي والشخصية الإسلامية لشعب توات المسلم، وغادر فاس غاضباً وعاد إلى توات وقلبه يطفح بالمرارة والألم من جراء المواقف السيئة والمؤلمة التي اتخذها أنصاف الفقهاء وأرباع المتفقهين بحاضرة

فاس. وقيل بأنه حلف ألا يجتمع مرة أخرى مع أي سلطان، ولكنه سيلتقي ويجتمع بالسلطان الأسقيا محمد الكبير في ڤاو، ببلاد التكرور وبالأمير أبي عبدالله محمد بن يعقوب في كاتسنا، ويخدمهما ويقدم لهما نصائح، ومواعظ وإرشادات في أسلوب الحكم وسياسة الشعوب. ومبادىء الشريعة الإسلامية.

المغيلي يتنبأ بما يحدث اليوم في فلسطين والمشرق العربي:

لقد أعطى المغيلي بموقفه هذا في توات، وفاس، دليلاً على بعد نظره وقوة حدسه السياسي، فأوضح ما جبل عليه اليهود من مكر وخبث منذ فجر التاريخ حتى اليوم، خاصة مع الشعوب والمجتمعات الإسلامية التي آوتهم، واحتضنتهم، وصانت لهم معتقداتهم الدينية، وعاداتهم وتقاليدهم القديمة، وأفسحت لهم المجال ليصلوا إلى المراتب العليا في ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة، ولكنهم اعتادوا على العقوق والجحود والنكران.

لقد ارتكب اليهود مواقف مخزية تجاه الإسلام والمسلمين لن ينساها لهم التاريخ أبداً، فتعاونوا مع المنافقين ضد الرسول عليه الصلاة والسلام في خيبر، وغطفان، وبني قريظة، والمدينة المنورة. وارتكبوا نفس الخيانات مع المسلمين في كل البلاد الإسلامية خاصة ببلدان المغرب والأندلس، وأدرك المغيلي هذا في توات والسودان الغربي، خلال القرنين التاسع الهجري، والخامس عشر الميلادي، كما أدركه آخرون غيره قبله وبعده، وصحت مواقف المغيلي ونبوآته، فعانت الجزائر، وتونس، والمغرب الأقصى، من ويلات مشاكلهم أواخر القرن 18 ومطلع 19 م، وكانوا السبب في احتلالها جميعاً من طرف الاستعماري الأوروبي الفرنسي، وذلك من خلال مشاكل عائلة يوسف باكري، وبوشناق، وأبو قاية، الاقتصادية والسياسية بالجزائر، ومشاكل ضيعة خير الدين التونسي بتونس، ومشاكل الطبيب الفرنسي بالمغرب الأقصى عام 1907، كما كانوا السبب في مشاكل السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، وابنه، وفي احتلال مصر والشام من طرف الاستعمار الفرنسي، والبريطاني، وفي ضياع فلسطين العربية. ويعرف العالم أجمع ما ارتكبه ويرتكبه اليهود اليوم بفلسطين ولبنان من المجازر الرهيبة ضد إخواننا الفلسطينيين، وذلك بعد حوالي

ستة قرون من أحداث المغيلي وصيحته بتوات، وفاس، وأحداث الشيخ سليمان بوادغير.

المغيلي ينتقل إلى بلاد الهوسة والتكرور في غرب إفريقيا:

وبعد أحداث توات، وتمنطيط، عزم المغيلي وأنصاره على مهاجمة بني وطاس بالمغرب الأقصى الذين كانوا يمالئون اليهود ويستخدمونهم في مناصب عالية بجهات كثيرة من بلاد المغرب الأقصى، ولكن قوات الطرفين لم تكن متكافئة، لأن قوات السلطان أحمد بن يحيى بن عمران كانت أكثر عدداً، وعدة، وتنظيماً، فتفرق أنصاره، وعادوا إلى بلدانهم وديارهم.

أما هو فقد اتجه إلى بلاد الأهير شمال نيجيريا، ومن هناك أخذ طريقه إلى الهوسة، واستقر بمدينة تيقـدا (تيغزة) التي كانت تزدهر بها الحركة الثقافية والتجارية، واشتغل بالتدريس، والوعظ والإرشاد في مساجدها، وسبقته إليها سمعته كعالم ومصلح وكمقاوم للبدع والخرافات ولخبث اليهود ومكرهم.

ومن تيقدا، انتقل المغيلي إلى كانو، ثم إلى كاتسنا. واستقر هناك بعض الوقت وتزوج وأنجب، واتصل بأميرها أبي عبدالله محمد بن يعقوب الذي طلب منه أنه يكتب له: «جملة مختصرة فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام». فأجابه لرغبته وكتب له تلك الرسالة وشرح له فيها كيف يمكن أن يحكم بلاده، وشعبه، ورعيته، وفق الشريعة الإسلامية، وأن يقاوم العادات الوثنية.

وقد اتضح من خلال ماكتبه المغيلي في هذه الرسالة أنه على اطلاع، واسع بأوضاع السودان الغربي، السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والثقافية، وبسيرة وسلوك أمرائه وسلاطينه وعادات سكانه، كما اتضح أنه كان شديد الحرص على أن يسود الشرع الإسلامي في هذه البلدان، وشعوبها، وحكامها، وأمرائها قولاً، وعملاً.

وبعد إقامة طويلة في بلاد الهوسة انتقل المغيلي إلى بلاد التكرور في فولتا العليا شمال السينيغال، غرب بلاد غانة القديمة، والتحق بمدينة كاغو (ڤاو)

عاصمة مملكة الصنغاي، والتقى بأميرها الأسقيا محمد الكبير الذي حكم من عام 1493 م إلى عام 1528 م وحج عامي 1499 ـ 1500 م، وعندما عاد من حجته وجد قواته العسكرية قد ضمت إلى مملكته بلاد الكبِّي شمال نيجريا الحالية بين مملكة برنو، ومملكة الصنغاي، فجند عدداً من العلماء ليعلموا في تلك الناحية وينشروا الإسلام، ويعاونوا العادات الوثنية. ويبدو أن المغيلي عمل هو الآخر في بلاد الكبي هذه التي زارها، ونشر فيها الإسلام والنظام.

المغيلي يتعرف إلى الرحالة المصري السيوطي:

وقد تعرف المغيلي على الرحالة المصري جلال الدين السيوطي لدى الاسقيا محمد الأول الكبير، الذي كان يعمل عنده كمستشار، وواعظ ومرشد وتحاور معه في عدة قضايا علمية، وفكرية، واختلف معه حول المنطق اليوناني الذي يؤمن به هو، وينكره السيوطي، وجرت بينهما محاورات، ومراسلات طريفة حتى بالشعر.

فقد أنشد المغيلي، رغم أنه ليس بشاعر، أبياتاً يحاجج بها السيوطي حول المنطق اليوناني وقال شعراً:

سمعت بأمر ما سمعت بمثله ... وكل حديث حكمه حكم أصله
أيمكن أن المرء في العلم حجة ... وينهي عن الفرقان في بعض قوله
هل المنطق المعني إلا عبارة ... عن الحق أو تحقيقه حين جهله
معانيه في كل الكلام فهل ترى ... دليلاً صحيحاً لا يرد لشكله
أريني هداك الله منه قضية ... على غير هذا تنفها عن محله
ودع عنك ما أبدى كفور وذمه ... رجال وإن أثبت صحة نقله
خذ الحق حتى من كفور ولا تقم ... دليلاً على شخص بمذهب مثله
عرفناهم بالحق لا العكس فاستبن به لا بهم إذ هم هداة لأجله
لئن صح ما ذكرتم فكم هم ... وكم عالم بالشرع باح بفضله

فأجابه السيوطي بأبيات أخرى على غرارها قال فيها:

حمدت إله العرش شكراً لفضله ... وأهدي صلاة للنبي وأهله

عجبت لنظم ما سمعت بمثله أتـانـي عـن حبـر أقـر بنبلـه
تعجب مني حين ألفت مبدعاً كتـابـاً جمـوعـاً فيـه جـم بنقلـه
أقـرر النهـي عـن علـم منطـق وما قاله من قال من ذم شكله
وسماه بالفرقان يا ليت لم يقل فذا وصف قرآن كريم لفضله
وقـد قـال محتجـاً بغيـر رؤيـة مقـالاً عجيبـاً نـائيـاً عـن محلـه
ودع عنك ما أبدى كفور وبعد ذا خذ الحق حتى من كفور بختله
وقد جاءت الآثار في ذم من حوى علـوم يهـود أو نصـارى لأجلـه
يحـوز بـه علمـاً لـديـه وأنـه يعـذب تعـذيبـاً يليـق بفعلـه
وقد منح المختار فاروق صحبه وقد خط لوحاً بعد توراة أهله
وكم جاء من نهي أتباع لكافر وإن كان ذاك الأمر حقاً بأصله
أقمت دليلاً بالحديث ولم أقم دليلاً على شخص بمذهب مثله
سلام على هذا الإمام فكم له لـدي ثنـاء واعتـراف بفضلـه[1]

المغيلي يقدم أجوبة عن أسئلة الأسقيا محمد الأول:

وخلال إقامة المغيلي لدى الأسقيا محمد الأول سأله أن يكتب له رسالة ينصحه فيها حول سبعة مسائل ذكرها في شكل أسئلة، وطلب منه أن يعرفه بحكم الشرع الإسلامي فيها فرحب المغيلي بذلك وتسلم منه الأسئلة، وقدم له أجوبة إضافية ومفصلة، ودقيقة، عن كل مسألة، وإثبت فيها عمق اطلاعه بأصول الشرع الإسلامي، وفروعه وسعة معرفته بأوضاع البلاد وعادات سكانها وتقاليدها، فحول موضوع الخلافة أوضح أن الذي يتولاها يجب عليه أن يكون واعياً بمسؤولياته وواجباته تجاه رعاياه، وعموم المسلمين بصفة عامة. وحول قضية العلماء المزيفين الذين يدعون أكثر مما يعملون ويعرفون، ويسعون ليتبوأوا مكان الأكفاء من الرجال بواسطة الخداع والتضليل، وذكر أنه يجب الضرب على أيديهم بحزم وشدة، ودون رحمة وشفقة، وهي في نظره إحدى واجبات الأمير المسلم المستقيم الصالح كما أن من واجباته كذلك الضرب على أيدي جميع المخالفين في مملكته الإسلامية.

(1) البستان: ص 256 ـ 257.

وبالمقابل فإن من واجبات المسلين أن يخلعوا ويعزلوا الأمير الجائر غير العادل، الذي يتخلى عن مسؤولياته تجاه مجتمعه الإسلامي ورعاياه المسلمين. وزيادة على هذا فقد أوضح المغيلي في أجوبته للأسقيا جوانب كثيرة عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الصنغاي في تلك الفقرة، وفي كل المسائل التي تطرق إليها، وبذلك تعتبر وثيقة تاريخية عامة لا غنى للباحثين عنها بالنسبة لتاريخ السودان الغربي(1).

عودة المغيلي إلى توات ووفاته:

بقي المغيلي في بلاد الصنغاي مدة من الزمن يواصل عمله الإصلاحي الديني والثقافي، إلى أن بلغه نبأ قيام اليهود بقتل ابنه الشيخ عبد الجبار في توات فغضب وتألم، وطلب من الأسقيا أن يعتقل كل التواتيين في بلاده ففعل ولم يخالف رأيه، ولكن الشيخ أبا المحاسن محمد، أنكر على المغيلي ذلك وعاتبه، وقال له ما ذنب هؤلاء هنا بالصنغاي، وبما فعله أولئك بتوات فأصغى لرأيه، واستصوبه، وتدخل لدى الأسقيا ورجاه أن يطلق سراحهم فامتثل لرغبته كذلك، وهذا يدل على مكانة المغيلي لديه بحيث يفعل ما يقترحه عليه.

وبعد ذلك عاد المغيلي إلى توات ليرى بنفسه ويعاين ماذا جرى، وعاد معه جمع من أصحابه وتلاميذه ووصلوا إليها في عام 1503، واستقر في زاويته الأصلية بواحة بوعلي حتى توفي في العام الموالي 1504 م (911 هـ) ودفن في زاويته، وقيل أن أحد اليهود الحاقدين عليه ذهب إلى قبره وتبول عليه فأصيب العمى.

آثار المغيلي الفكرية:

خلف المغيلي وراءه تلاميذ كثيرين يعدون بالآلاف في غرب إفريقيا، ما يزالون حتى اليوم يدينون له بالولاء الفكري والأدبي، ويعترفون بفضله على مجتمعاتهم السودانية الإسلامية، وكتب كثيرون عنه وعن سيرته الشخصية

(1) حقق الأستاذ عبد القادر زبادية هذه الأسئلة والأجوبة ونشرها تحت عنوان: أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي (الجزائر ـ 1974) 70 ص.

والاجتماعية، والثقافية، مثل أحمد بابا التنبكتي، وابن مريم المليتي، والزركلي، وحسن غوارزو، وبروكلمان، وزبادية، والمقري، واليفريتي، وغيرهم، وعدوه من كبار المصلحين ببلاد السودان الغربي خلال القرنين التاسع الهجري، والخامس عشر الميلادي. ومع ذلك فإن جوانب كثيرة من حياة المغيلي، ونشاطه العلمي، والفكري، والأدبي ما تزال مجهولة وتحتاج إلى بحث وتدقيق، وتمحيص، وفرز. إن جهود المغيلي في قوات والسودان الغربي رائدة حتى في المجال السياسي، وجدير بأن يخلد عمله بإبراز آثاره الفكرية والأدبية، وإقامة معهد علمي إسلامي باسمه يواصل رسالته الحضارية.

وقد خلف المغيلي من ورائه كذلك إنتاجاً فكرياً غزيراً في ميدان التأليف، وما يزال الكثير منه مخطوطاً، ومحفوظاً لدى تلاميذه والمتشيعين له من الأسر الإسلامية في بلاد السودان الغربي، ومن ضمن ذلك حسبما ورد في البستان لابن مريم:

1) البدر المنير في علوم التفسير.
2) تفسير سورة الفاتحة في ورقة واحدة.
3) مصباح الأرواح في أصول الفلاح، يقع في كراسين اثنين وأشاد به الشيخ السنوسي، وابن غازي. وحققه ونشره الأستاذ رابح بونار.
4) مغني الخليل وهو شرح على مختصر خليل وصل فيه إلى موضوع القسمة بين الزوجين.
5) إكليل معنى النبيل، وهو شرح على مغنى الخليل.
6) إيضاح السبيل في بيوع آجال خليل.
7) شرح بيوع الآجال.
8) مختصر تلخيص المفتاح، وشرح علمه.
9)مفتاح النظر في علم الحديث.
10) شرح على جمل الخونجي في علم المنطق ومقدمة عليها.
11) تأليف في المنبهات.
12) منح الوهاب منظومة في علم المنطق وضع لها ثلاثة شروح.

13) تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين.
14) شرح خطبة المختصر.
15) مقدمة في العربية وفهرسة لمروياته.
16) كتاب الفتح المبين.
17) أجوبة على أسئلة الأسقيا محمد الأول الكبير.
18) جملة مختصرة فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام.
19) عدة قصائد منها الميمية على وزن البردة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام.

علماء أسـرة المقـري

أصل الأسرة وهجرتها إلى تلمسان:

تنتمي إسرة المقري إلى قرية: مقرة، قرب مدينة المسيلة، وقلعة بني حماد، بجبال الحضنة، والزاب، جنوب الإقليم القسنطيني. هاجرت هذه الأسرة في وقت مبكر إلى تلمسان، بعد أن هاجر إليها أبو مدين شعيب بن الحسين أواخر القرنين: 6 هـ و12 م.

وكان أول من هاجر من هذه الأسرة، عبد الرحمن ابن أبي بكر بن علمي المقري صاحب أبي مدين شعيب الذي «دعا له ولذويه بما ظهر فيهم قبوله وتبين» كما ذكر ذلك صاحب نفح الطيب[1].

وكان دور هذه الأسرة المقرية بتلمسان، كدور عائلة ابن مرزوق العجيسية فاشتغل أفرادها بالتجارة، والعلم، والتعليم، وبرز منها تجار، وعلماء، وفقهاء وأدباء مبرزون كانت لهم مكانتهم في العواصم العلمية الإسلامية بالمشرق والمغرب الإسلاميين، وبالأندلس، كتلمسان، وفاس، وغرناطة، والقاهرة، ودمشق، وبيت المقدس، ومكة، والمدينة، وغيرها.

اشتغالها بالتجارة:

وفي بداية أمر هذه الأسرة بتلمسان اشتغل أفرادها بالتجارة التي كانت

(1) أحمد المقري: نفح الطيب ج 1 ص 556 جـ 5 (1971) ص 203 ـ 204، 284 ـ 340. وجـ 7 ص 133 ـ 134. ويمكن العودة كذلك إلى الإحاطة لابن الخطيب. جـ 2. ص 136. ونيل الابتهاج لأحمد بابا. ص 149. وسلوة الأنفاس. جـ 3 ص 271. والتعريف بابن خلدون. ص 59. والمرقبة العليا. ص 196.

مزدهرة كثيراً مع الأقاليم الصحراوية الجنوبية. في إطار تجارة القوافل الصحراوية، ومهدوا طرق القوافل التي يسلكها التجار إلى الأسواق التجارية بالصحراء. وحفروا الآبار لتوفير المياه، وتأمين حياة التجار، واتخذوا لأنفسهم طبلاً لإعلان الرحيل، وراية للقافلة عند المسير.

وألف أبناء يحيى بن عبد الرحمن المقري، الخمسة شركة تجارية لهم، واتفقوا على اقتسام كل ما ملكوه، ويملكونه، بالتساوي فيما بينهم، ووزعوا الأعمال على الشكل التالي:

استقر أبو بكر، ومحمد، بتلمسان، واستقر أخوهما عبد الرحمن بسجلماسة واستقر الشقيقان الأصغران، وهما: عبد الواحد، وعلي، بقرية أيولاتن في الصحراء.

واتخذوا لأنفسهم في كل تلك البلدان، الديار، والمزارع، وتزوجوا، واستولدوا الإماء.

وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع، ويبعث إليه الصحراوي بالجلد، والعاج، والجوز، والتبر. والسجلماسي كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان، ويكاتبهما بأحوال التجار، وأخبار البلدان، حتى اتسعت أموالهم، وارتفعت في الضخامة أحوالهم.

وسارت أمور تجارتهم على ما يرام إلى أن قام التكرور بغزو وفتح كورة أيولاتن، وأعمالها. فتعرضت تجارتهم للبوار، والخسران. واتصل أحد الأخوين بملك التكرور ولاطفه، وتقرب منه، فمكنه من ممارسة التجارة في جميع جهات مملكته، فتذللت لتجارتهم الوسائل والسبل مرة أخرى، ونمت أرباحهم وتضاعفت حتى فاقت الحد، وكادت تفوت الحصر والعد.

وبقيت الأمور هكذا طيلة حياتهم، وعندما ماتوا، توقف أبناؤهم وأحفادهم عن العمل التجاري، وأخذوا فقط، ينفقون مما خلفه لهم آباؤهم دون العمل على استثمارها وتنميتها.

وزيادة على هذا تسلط عليهم جور السلاطين، وكثرت الفتن والاضطرابات، فأخذت أموالهم تقل وتنقص حتى كادت تضمحل تماماً. ولم يدرك منها محمد المقري في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) «إلاّ أثر نعمة قليلاً اتخذ فضوله عيشاً وأصوله حرمة، ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، وأسباب كثيرة، تعين على الطلب». فتفرغ لطلب العلم على علماء تلمسان المقيمين بها والوافدين عليها.

وسنترجم لثلاثة من علماء هذه الأسرة وهم:

- أبو عبدالله محمد المقري.
- وأبو سعيد بن محمد المقري.
- وأبو العباس أحمد المقري.

الشيخ أبو عبدالله محمد المقري:

ولد أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد ابن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن علي المقري، بتلمسان خلال إمارة أبي حمو موسى الأول بن عثمان بن ياغمراسن بن زيان في أوائل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) واعتكف في صغره على حفظ القرآن الكريم، ثم تصدى لتعلم العلوم والمعارف العربية الإسلامية، على شيوخ تلمسان وعلمائها الأجلاء أمثال: ابني الإمام، وعمران المشدالي، وإبراهيم السلاوي، والقاضي محمد بن عبد النور، والمجاصي، والقاضي حسن السبتي وابن هدية القرشي، ومحمد التميمي، ومحمد الباروني، وموسى المصمودي، وابن النجار والمكناسي، والزبيدي التونسي، وعبد المهيمن الحضرمي، والسطي، والرندي والجزولي، وابن مرزوق العجيسي، والصنهاجي، والآبلي، وغيرهم.

رحلته إلى بجاية وتونس:

وعندما استوعب ما عند هؤلاء الشيوخ من العلوم والمعارف بتلمسان، تاقت نفسه للاستزادة منها عند غيرهم. فشد الرحال إلى بجاية، وتتلمذ على الفقيهين: محمد بن يحيى الباهلي، ومحمد بن يعقوب الزروالي. وعلي

حسين بن الحسين، وأحمد بن عمران، وأبي عزيز، وأبي موسى ابن فرجان. ونهل ما عندهم من معارف وعلوم كذلك.

ثم رحل إلى تونس عبر مدينة قسنطينة، وتتلمذ هناك على قاضي الجماعة، وفقيهها ابن عبد السلام، وقاضي الأنكحة أبي محمد الأجمي، والفقيه ابن هارون، والخطيب ابن عبد الجبار، والعلامة ابن الجياب، والفقيه ابن سلمة، وأبي الحسن المنتصر، والزبيدي. وأخذ عنهم علوماً كثيرة، وروى، وتفقه، وتأدب. واكتسب معارف جديدة، ومكثفة.

عودته إلى تلمسان ورحلته إلى فاس:

ولا ندري بالضبط كم استغرقت رحلة محمد المقري إلى بجاية وتونس، ومتى بدأت، ومتى انتهت. ولكنه عاد إلى تلمسان ومنها شد الرحال إلى المغرب الأقصى. بقصد الالتقاء برجال العلم، والاستفادة من علومهم ومعارفهم، وربط الصلة معهم. فمر على مدينة تازة، واجتمع بعلمائها، ومنها اتجه إلى فاس ومتن صلاته بشيوخها وعلمائها. وأخذ عنهم ما كان يصبو إليه، ومنهم: اليزناسي، والفقيه عبد المؤمن الجاناتي، وأبو زرهون القيرواني، والجزولي، والمكناسي، واستفاد من علومهم وتجاربهم في التدريس.

ومن فاس اتجه إلى أغمات، ثم إلى سبتة، للاتصال والتعرف بالعلماء المشهورين الذين يمكن أن يستفيد منهم وهو ما عناه بقوله: «فاستوعبت بلاد المغرب ولقيت بكل بلد من لا بد من لقائه من علمائه وصلحائه».

سفره إلى الحجاز:

وبعد هذه الجولة العلمية في مدن المغرب الأقصى، عاد مرة أخرى إلى تلمسان، وعزم على الرحلة إلى الحجاز كعادة غيره من العلماء والصلحاء، لأداء فريضة الحج، والاتصال بالعلماء والصلحاء للاستزادة من علومهم ومعارفهم. وذهب فعلاً إلى المشرق عام 744 هـ (1343 ـ 1344 م) ولم يحدثنا عن الطريق الذي سلكه، والوسيلة التي استعملها في سفره. قد يكون أخذ الباخرة بحراً، وقد يكون سافر مع بعض القوافل البرية.

وعندما وصل إلى القاهرة، اتصل بعلمائها المشهورين، واعتكف على الدراسة عنهم، ومنهم: أبو حيان الغرناطي، وشمس الدين الأصبهاني، وشمي الدين بن عدلان، وشمس الدين بن اللبان، والفقيه أبو محمد المنوني، وتاج الدين التبريزي، وغيرهم. ولا شك أنه استفاد من علومهم ومعارفهم الإسلامية خاصة: الفقه، والحديث والأصول، والتفسير.

ومن مصر شد الرحال إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وذلك في نفس السنة 744 هـ. وأدى مناسك الحج، والتقى بالعالم التوزري التونسي المشهور الإمام أبي عبدالله خليل بمكة وتعرف عليه، ولعله أخذ عنه بعض الدروس، ثم رحل إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، والتقى هناك بالعالم الأثيوبي المشهور أبي محمد عبد الوهاب الجبرتي، ووثق صلاته به، ولربما استفاد من بعض علومه ومعارفه خاصة التاريخ.

ومن المدينة المنورة أخذ طريقه إلى بلاد الشام، وزار مدينة دمشق، واجتمع بالعالم ابن قيم الجوزية صاحب العالم الفقيه ابن تيمية. وتعرف على صدر الدين الغماري المالكي، وأبي القاسم ابن محمد اليماني الشافعي وغيرهم واستفاد منهم.

ومن دمشق قصد بيت المقدس بفلسطين، وزار مقام إبراهيم الخليل في الخليل وباقي مزارات الأنبياء والرسل. والمسجد الأقصى، والتقى هناك بالعالم أبي عبدالله بن مثبت، والقاضي شمس الدين بن سالم، والفقيه ابن عثمان.

عودته إلى تلمسان:

وبعد هذه الرحلة الطويلة والعريضة إلى عواصم المشرق الإسلامي، للحج، والدراسة، والتعرف، عاد محمد المقري إلى بلده، ومسقط رأسه تلمسان، واستقر بها، وتفرغ للتدريس، والتعليم وظهر تفوقه في علوم اللغة والآداب العربية، والفقه، والحديث والتفسير، وفي التاريخ، والسير، والمنطق، والأصول، والجدل وقول الشعر، بل وحتى في التصوف.

وأقبل عليه طلبة العلم للاستفادة من غزارة علومه، المتعددة، والمتنوعة

كما ذكرنا، وازدحموا حول حلقاته في مساجد تلمسان، ومدارسها.

وخلال انشغاله بالتدريس، اهتم بالتدوين والتأليف، وشرح بعض الكتب والقصائد الشعرية. ووضع بعض الموجزات والمختصرات، لبعض الكتب الطويلة، ومن ضمن التلاميذ الذين لازموه واستفادوا من علومه ومعارفه: لسان الدين بن الخطيب كاتب ووزير غرناطة المشهور، والوزير ابن زمرك، وأبو عبدالله القيجاطي، والفقيه أبو عبدالله محمد الصنهاجي الزموري نقشابو، وعبد الرحمن بن خلدون، وأخوه يحيى، وأبو إسحاق الشاطبي والعلامة محمد بن عبدالله بن جزي، والحافظ بن علاق، والشيخ العارف محمد بن عباد الرندي شارح حكم ابن عطاء الله المشهور[1].

سفره في مهمة إلى الأندلس:

وخلال إقامة محمد المقري بتلمسان قام برحلة إلى الأندلس عبر سجلماسة ووادي درعة، وزار كلاً من: الجبل، واصطبونه، ومربلة، وبلح، والحامة، وغرناطة. ثم عاد إلى تلمسان، وانقطع للتعليم والتدريس مدة طويلة، إلى أن قام السلطان المريني أبو عنان بغزو تلمسان، فاصطفاه ضمن من اصطفاهم من العلماء، وقربهم منه، وصحبه معه إلى فاس بعد عودته إليه، وأسند إليه وظيفة قاضي الجماعة: «فاستقل بها أعظم استقلال وأنفذ الحق وألان الكلمة، وآثر التسديد وحمل الكلّ، وخفض الجناح، فحسنت عنه القالة، وأحبته الخاصة والعامة»[2].

بقي في هذا المنصب، وهذه الوظيفة ما شاء الله ثم أقيل عنها لأسباب لم يذكرها حفيده أحمد المقري. وكلفه أبو عنان بمهمة سياسية لدى سلطان غرناطة بالأندلس، فذهب إليه في أوائل شهر جمادي الثانية لعام 757 هـ (1356 م) عبر مضيق جبل طارق. وسلم الرسالة التي حملها، إلى سلطان غرناطة، وأدى المهمة التي أنيطت به.

---

(1) نفح الطيب جـ 5، ص 340 ـ 341.

(2) نفس المصدر، ص 102 ـ 109.

وخلال عودته انفصل عن رفاقه الذين سافروا معه من أعضاء الوفد، واتجه إلى مالقة وأعلن عن رغبته في الانقطاع للعبادة والتهدج، والتخلي عن كل المهن والوظائف الدينية، والسياسية. ومن مالقة عاد إلى غرناطة واعتكف في مدرسة خاصة للتبتل والعبادة والتزهد، وانقطع عن الناس تماماً، ولا يخرج إلا للصلاة أو قضاء الحاجة، ولا شك أن هناك من كان يساعده في مأكله ومشربه، ويعطف عليه من الناحية العلمية وقد يكون موقفه هذا رد فعل عن عزله من وظيفته كقاضي للجماعة بفاس.

ولما بلغ الخبر إلى أبي عنان بفاس غضب عليه، واستنكر تصرفه، واتهمه بالتواطىء على القيام بأعمال غير شريفة، وأرسل في طلبه إلى صاحب غرناطة فتشفع له واعتذر عن تصرفه، وأكد رغبته في الزهد والتبتل، والانقطاع للعبادة. وحصل له على أمان من سلطان فاس، وأرسل معه عند سفره وعودته إلى هناك العالمين الجليلين: قاضي الجماعة أبا القاسم الحسني، والشيخ الخطيب أبا البركات ابن الحاج، رافقاه إلى فاس ومعهما رسالة إلى أبي عنان كتبها وزير غرناطة لسان الدين بن الخطيب السلماني تحمل تاريخ 21 جمادى الثانية 757 هـ (1356 م)، شرح فيها حال محمد المقري المتشفع فيه، وظروف انقطاعه للعبادة بغرناطة، فتقبل أبو عنان ذلك، وعفا عنه ولم يلحق به أي أذى.

وفاته:

بعد عودته إلى فاس، اعتكف في منزله، وعاد إلى التعليم والتدريس، ولم يطل عمره كثيراً. فبعد عامين من هذه العودة، وهذه الأحداث، توفي بفاس يوم الأربعاء 29 جمادي الأولى عام 759 هـ (1358 م) وحملت جثته إلى تلمسان ودفن بها في البستان الملاصق لقبلي داره الكائنة بباب الصرف الذي أصبح فيما بعد ملكاً لورثة الشيخ أبي يحيى الشريف، حسبما ذكر ذلك ابن مريم في كتابه البستان.

مؤلفات محمد المقري:

كان محمد المقري عالماً كبيراً، أثر في الجيل الذي عاصره والأجيال اللاحقة به. وألف عنه ابن مرزوق الحفيد العجيسي كتاباً سماه: «النور البدري

في التعريف بالفقيه المقري» أشاد فيه بعلمه، وثقافته، وتدينه، وتفقهه الواسع للشريعة الإسلامية، وأصولها. وقد خلف محمد المقري عدداً لا بأس به من الكتب، والمؤلفات والملخصات في أغراض شتى أهمها:

1) القواعد وبه 1100 مسألة فقهية.
2) الظرف والتحف.
3) اختصار المحصل. ولم يكمله.
4) شرح جمل الخونجي في المنطق. لم يكمله.
5) عمل من طبّ لمن حبّ، في الطرف والحكايات، والحكم، والفقه والأصول، والاصطلاحات اللفظية، واللغوية.
6) المحاضرات. في الحكايات، والإشارات، والطرف.
7) الحقائق والرقاق في التصوف، شرحه الشيخ زروق.
8) شرح لغة قصائد المغربي الخطيب.
9) مقالة في الطلعة الملكية.
10) شرح التسهيل في الفقه.
11) النظائر.
12) كتاب المحرك لدعاوى الشر من أبي عنان.
13) إقامة المريد.
14) رحلة المتبتل.
15) حاشية على مختصر ابن الحاجب الفقهي[1].

الشيخ سعيد بن أحمد المقري

ولد أبو سعيد بن أحمد بن أبي يحيى بن عبد الرحمن بن بلعيش المقري بمدينة تلمسان عام 928 هـ (1522 م)، وهو حفيد حفيدة محمد بن مرزوق أبي لحيتين، حفظ القرآن الكريم على الشيخ حاجي الوهراني، وأخذ عنه لباس الخرقة في علم التصوف.

---

(1) نفس المصدر جـ 5. ص 284 ـ 340.

ودرس الفقه، والأصول، والمنطق، على الشيخ محمد بن عبد الرحمن الوعزاني، والعربية على الشيخ عمر الراشدي، وشقرون بن هبة الوجديجي، والشيخ محمد أبي السادات المديوني. وأخذ علم التصوف على الشيخ علي بن يحيى السلكسيني والشيخ حاجي الوهراني كما سبق. وكان يميل كثيراً إلى علم التوحيد، والتصوف كما كان صاحب باع طويل في علوم الحديث، والتوحيد، والفقه، واللغة، والشعر والأمثال، وأخبار الناس، ومذاهبهم، وأيام العرب، وسيرهم، وحروبهم، وسير الصالحين والأولياء، ومذاهب الصوفية. وقد اعتبره البعض إماماً في العلوم العقلية كالحساب، والفرائض، والمنطق، والهندسة، والطب، والتشريح، والتنجيم والفلاحة وأمور البناء، وفي العلوم القديمة والحديثة.

مارس التدريس لكثير من العلوم العقلية والنقلية بمدينة تلمسان، ودرس عليه جيل من طلبة العلم وتخرجوا عليه ومنهم: محمد العشوي الندرومي، ومحمد الشمور وأحمد بن أبي عبدالله اليزناسي، وأحمد ابن أبي مدين. وأحمد بن رقية المديوني وأحمد بن محمد المقري، ابن أخيه صاحب كتاب نفح الطيب، ومحمد بن قاسم الحويل والحاج بن قاسم العبادي وآخرون غيرهم.

تولى منصب القضاء بتلمسان حوالي 46 عاماً، وهي مدة طويلة جداً تكشف على باعه الكبير في علوم الفقه والشريعة الإسلامية، كما تولى منصب الإفتاء بها.

كان ما يزال حياً عام 1011 هـ (1602 ـ 1603 م) ولا ندري بالضبط متى مات، ولكنه سوف يكون في حدود عام 1020 هـ أو قبلها بقليل.

الشيخ أبو العباس أحمد المقري

ميلاده ونشأته:

ولد أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقري الملقب بشهاب الدين عام 986 هـ (1577 ـ 1578 م) بتلمسان وذلك اعتماداً على رواية عبد الوهاب بن منصور محقق

كتاب روض الآس. وحفظ القرآن الكريم في صغره، واعتكف على دراسة العلوم العربية الدينية، واللغوية، والأدبية. فدرس على عمه أبي سعيد المقري السابق الذكر، صحيح البخاري، وكتب الحديث الستة المشهورة. وغيرها، كما درس على علماء آخرين ذوي شهرة ومكانة[1].

رحلته إلى فاس ومراكش:

وبعد أن بلغ سن الرشد تاقت نفسه لزيارة العواصم العلمية بالمغرب الأقصى فرحل إلى فاس عام 1009 هـ (1600 ـ 1601 م)، كما فعل جده محمد المقري الذي قضى بها سنوات طويلة عالماً، ومدرساً، وقاضياً للجماعة، وهناك اعتكف على الدراسة والتحصيل، ومتن صلاته بالشيوخ والعلماء الذين كانوا يقومون بالتدريس والتعليم.

ويبدو أنه كان له نشاط واسع سمح له بأن يشتهر فتعرف عليه الفقيه إبراهيم بن محمد الآسي أحد قواد السلطان أحمد المنصور الذهبي، وأعجب به وبذكائه ونباهته، وصحبه معه إلى مدينة مراكش بعد حوالي عام وزيادة من إقامته بفاس، وقدمه للسلطان وزكاه وأشاد به.

وهناك بمراكش تعرف أحمد المقري على العالم التنبكتي المشهور أحمد بابا صاحب كتاب نيل الابتهاج الذي كان في إقامة جبرية هناك بعد غزو السلطان أحمد المنصور لبلاده. كما تعرف على عدد آخر من علماء مراكش وأدبائها، واستفاد من علومهم ومعارفهم، وتجاربهم وكانت سفرته هذه إلى فارس ومراكش سبباً في تأليفه لكتابه: «روض الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس». وذلك بعد أن سافر إلى فاس وأتمه بتلمسان عندما

(1) من الذين ترجموا لأحمد المقري: محمد الأفراني في صفوة من انتشر. ص 72. والأجيمي في خلاصة الأثر. 1. ص 320. والقادري في نشر المثاني. 1. ص 157. والخفاجي في ريحانة الألباب. 2. ص 174. ومحمد بن منصور في روض الآس المعطار. ومحمد حجي في الزاوية الدلائية. ص108 ـ 113. والجنحاني في ترجمة المقري. واليواقيت الثمينة. 1. ص 29. ونفح الطيب للمترجم نفسه، جـ1. و5. وأزهار الرياض، وفتح المتعال.

عاد إليها عام 1011 هـ (1602 م). وكان في نيته أن يقدمه إلى السلطان أحمد المنصور. ولكن هذا السلطان سرعان ما توفي عام 1012 هـ (1603 م) قبل أن يعود هو إلى فاس.

وفي عام 1013 هـ (1604 ـ 1605 م) عاد أحمد المقري مرة أخرى إلى فاس وأقام بها حوالي خمسة عشر عاماً كاملة بصفة متوالية. وتولى بها الإمامة، والفتوى، والخطابة، وغيرها من الوظائف الدينية، في جامع القرويين. وارتفع شأنه حتى أصبح شخصية مرموقة يجله الجميع ويحترمه. ولا شك أنه استفاد من مركز وسمعة جدّه محمد المقري الذي ما يزال يذكر آنذاك على كل الألسنة.

عاش أحمد المقري أحداث فاس، والمغرب الأقصى في هذه الفترة. فمات أحمد المنصور، وتنازع من بعده أبناؤه على العرش والسلطان، وكثرت غارات الإسبان والبرتغاليين على مدن وسواحل المغرب، بعد أن تم طرد كل مسلمي الأندلس حتى المتنصرين منهم عام 1610 م (1019 هـ)، واستولوا على مدينة العرائش التي سلمها لهم الشيخ المأمون أحد أبناء أحمد المنصور، وحاول أن يرغم العلماء على إصدار فتوى تبيح له تسليم تلك المدينة إلى الإسبان مقابل مساعدتهم له على الاستيلاء على عرش فاس. فهاجر أغلبهم المغرب حتى لا يتورطوا في مثل تلك الجريمة السياسية والعسكرية، والخلقية، في آن واحد.

أحمد المقري يتولى وظيفة الإفتاء بفاس:

صبر المقري وتحمل هذه الأحداث على مضض، وعين مفتياً بفاس عام 1022 هـ (1613 م)، بعد أن توفي شيخه محمد الهواري الذي كان يلي ذلك المنصب، واستمر في وظيفته هذه حتى عام 1027 هـ (1618 م) ثم قرر مغادرة فاس لظروف أشار إليها مجرد إشارة، ولم يشرحها ويفصلها.

غير أن محمد حجي، والجنحاني، ذكرا أن أحمد المقري اتهم بميوله وولائه لبعض القبائل الشرقية بشرق المغرب التي كانت تعادي السلطان محمد الشيخ السعدي.

ومهما يكن من أمر فإنه غادر فاس وقال: «ثم ارتحلت بنية الحجاز، وجعلت إلى الحقيقة المجاز»، واستأذن من الأمير عبدالله بن الشيخ السعدي، فأذن له ولا يستبعد أن يكون الحسد والغيرة من طرف بعض الحساد المنافسين له من طبقته، ضمن الأسباب والدوافع لمغادرته لفاس، والمغرب الأقصى بصفة كلية.

رحلته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج:

ففي أواخر شهر رمضان من عام 1027 هـ (1618 م). غادر أحمد المقري مدينة فاس، في طريقه إلى المشرق، وقال: «لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقب، أو ردّ، ولا محيد عما شاءه سواه كره ذلك المرء أو ردّ، برحلي من بلادي ونقلتي عن محل طارقي وتلادي، بقطر المغرب الأقصى الذي تمت محاسنه لولا أن سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصاً، وطما به بحر الأهوامل فاستعلمت شعراء العبث في كامل رونقه من الزحاف إضماراً وقطعاً ووقصاً». وهذا يؤكد كيد الكائدين والحساد له.

وأخذ طريقه إلى ميناء تيطوان على ساحل البحر المتوسط الغربي. ووصف خطواته إلى هناك بقوله: «ثم جد بنا السير في البر أياماً، ونأينا عن الأوطان التي أطنبنا في الحديث حباً لها وهياماً، وكنا عن تفاعيل وصلها نياماً، إلى أن ركبنا البحر وحللنا منه بين السحر والنحر، وشاهدنا من أهواله وتنافي أحواله ما لا يعبر عنه ولا يبلغ كنهه».

وصل أحمد المقري إلى تطوان في شهر ذي القعدة من نفس العام، وركب السفينة مع من كان معه من الرفقاء، ونقلتهم إلى تونس عبر بجاية، ومن هناك إلى سوسة وصفاقس وجربة، وطرابلس، في طريقهم إلى الإسكندرية، وتعرض خلال رحلته إلى مخاطر الطبيعة، ومخاطر القراصنة الأوروبيين، وتحدث عنها. في كتابه نفح الطيب.

فقال عن مخاطر البحر وأمواجه وعواصفه: «فكم استقبلتنا أمواجه بوجوه بواسر وطارت إلينا من سراعه عقبان كواسر قد أزعجتها أكف الريح من وكرها،

كما نبهت اللجج من سكرها، فلم تبق شيئاً من قوتها ومكرها. فسمعنا للجبال صفيراً، وللرياح دوياً عظيماً، وزفيراً، وتيقنا أنا لا نجد من ذلك إلا فضل الله مجيراً وخفيراً، (وإذ مسكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلاّ إياه)، وأيسنا من الحياة لصوت تلك العواصف والمياه. فلا حيا الله ذلك الهول المزعج، ولا بياه، والموج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب، فكأنه من كأس الجنون يشرب، أو شرب، فيبتعد ويقترب، وفرقه تلتطم وتصطفق، وتختلف ولا تكاد تتفق، فتخال الجو يأخذ بنواصيها، وتجذبها أيد له من قواصيها حتى كاد سطح الأرض يكشف من خلالها، وعنان السحب يخطف في استقلالها، وقد أشرفت النفوس على التلف من خولها واعتلالها. وتراءت في صورها المنون، والشراع في قراع مع جيوش الأمواج التي أمدت منها الأفواج بالأفواج، ونحن قعود، كدود على عود، ما بين فرادى وأزواج. وقد نبت بنا من القلق أمكنتنا، وخرست من الغرق ألسنتنا، وتوهمنا أنه ليس في الوجود أغوار ولا نجود إلاّ السماء والماء، وذلك السفين ومن في قبر جوفه مدفون».

وقال عن مخاطر القراصنة المسيحيين خاصة فرسان مالطة: «مع ترقب هجوم العدو في الرواح والغدو، لاجتيازه على عدة من بلاد الحرب دمر الله سبحانه من فيها، وأذهب بفتحها عن المسلمين الكرب، لا سيما مالطة الملعونة التي يتحقق من خلص من معرتها، أنه أمدّ بتأييد إلّهي، ومعونة، فقد اعترضت في لهوات البحر الشامي شجا، وقل من ركبه فأفلت من كيدها ونجا، فزادنا ذلك الحذر الذي لم يبق ولم يذر على ما وصفناه من هذا البحر قلقاً. . . فكيف وانضم إليه خوف العدو الغادر الخائن، والكافر الخائن، إلى أن قضى الله سبحانه وتعالى بالنجاة».

وعندما تراءى له ساحل مدينة الإسكندرية آخر عام 1027 هـ (1618 م) فرح فرحاً شديداً، وبدت عليه تباشير السرور، والارتياح، ووصف ذلك بقوله: «فرأينا البر وكأنا لم نره، وشفيت به أعيننا من المرة وحصل بعد الشدة الفرح، وشممنا من السلامة أطيب الأرج. فيا لها من نعمة كشفت عن وجهها النقاب. . . ثم وصلنا بعد خوض غمار بحار يدهش فيها الفكر ويحار، وجوب

فياف ومجاهل يظل فيها القطا عن المناهل، إلى مصر المحروسة، فشفينا لرؤيتها من الأوجاع، وشاهدنا كثيراً من محاسنها التي تعجز عن وصفها القوافي والأشجاع[1].

ومن الإسكندرية انتقل إلى القاهرة، واستقر بها حوالي عام يدرس، ويشاهد، ويتصل، ويتعرف على محاسنها، وجمال مساجدها، وإحيائها، وحيوية شعبها، ونشاط الحركة العلمية والفكرية بها خاص في الجامع الأزهر الذي كان بمثابة جامعة إسلامية، كبرى آنذاك، بكثرة شيوخه، وطلابه، وتعدد أروقته، التي كانت تأوي المئات، بل الآلاف من الطلبة، والعلماء، والشيوخ، من مختلف البلدان الإسلامية.

وبعد ذلك شمر المقري عن ساعد العزم إلى المهم الأعظم والمقصد الأكبر، وهو السفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، فسافر عن طريق البحر إلى جدة، ومنها إلى مكة. فأدى سنة العمرة، في أوائل ذي القعدة عام 1082 هـ (1619 م)، وانتظر حتى واصل موسم الحج في ذي الحجة، فأحرم وأدى مناسك الحج كلها، وسافر بعد ذلك إلى المدينة المنورة، وزار قبر الرسول، وتبرك به، وجاوره عدة أيام، ثم عاد إلى مصر في شهر محرم 1029 هـ (1619 م) وبقي بالقاهرة حتى شهر ربيع الأول من نفس العام (1620 م)، ثم سافر إلى فلسطين وزار بيت المقدس والمسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وتجول في معالم فلسطين الحضارية الدينية والمعمارية. وزار قبر الخليل إبراهيم عليه السلام. وقضى أياماً ممتعة ومفيدة له معنوياً، وعلمياً.

العودة إلى القاهرة والتزوج من عائلة الوفائية:

بعد هذه الجولة في معالم القدس وفلسطين، عاد أحمد المقري إلى القاهرة وتزوج من عائلة ثرية ودينية في نفس الوقت، وهي العائلة الوفائية التي كانت تتولى وظيفة نقيب الأشراف، ولها طريقة دينية صوفية: وتتبوأ مكانة اجتماعية بفضل غناها، وبرها. وهذا يوحي بأن المقري احتل بسرعة مكانة

(1) نفس المصدر جـ 1 ص 5 ـ 8 و13 و33 ـ 35.

مرموقة في القاهرة، رغم كونه غريباً عنها، ومهاجراً. ولا شك أن مركزه العلمي البارز، ونشاطه الفكري والأدبي في ميدان التدريس هما اللذان أهلاه إلى تلك المكانة، وذلك المركز البارز، إلى جانب عوامل أخرى.

اتخذ المقري القاهرة مستقراً له ومقاماً بعد زواجه، وحج واعتمر خمس مرات، وزار المدينة المنورة سبع مرات، لغاية عام 1039 هـ (1629 ـ 1630 م) وجاور مكة المكرمة. ودرس بالحرم المكي مدة من الزمن، وزار المدينة لمنورة، وألقى بها دروساً كذلك، وقال: «ثم رجعت إلى القاهرة، وكررت منها الذهاب إلى البقاع الطاهرة فدخلت لهذا التاريخ الذي هو عام تسع وثلاثين وألف، مكة خمس مرات، وحصلت لي بالمجاورة فيها المسرات، وأمليت فيها على قصد التبرك دروساً عديدة. ووفدت على طيبة المعظمة ميمماً مناهجها السديدة، سبع مرات. . وألقيت بحضرته صلى الله عليه وسلم بعض ما من الله به علي في ذلك الجوار، وأمليت الحديث النبوي، بمرأى منه عليه الصلاة والسلام ومسمع».

ثم عاد المقري إلى مصر بعد الحجة الخامسة في شهر صفر من عام 1037 هـ (1627 م): وتفرغ للتدريس بالأزهر الشريف، وللتدوين والتأليف غير أنه كان لا يطيق صبراً على السفر، والرحلات، أو أن التدريس بالأزهر لم يقنعه، وكان لربما يطمح لما هو أكبر منه. فشد الرحال إلى بيت المقدس بفلسطين مرة أخرى، في شهر رجب 1037 هـ (1628 م)، ووصل إليها في منتصف نفس الشهر، وأقام بها خمسة وعشرين يوماً ألقى خلالها عدة دروس بالمسجد الأقصى، وزار مقام الخليل إبراهيم عليه السلام وباقي مقابر الرسل والأنبياء الآخرين.

السفر إلى دمشق والتدريس بها:

وفي شهر شعبان من نفس السنة سافر إلى مدينة دمشق الفيحاء «ذات الحسن والبهاء والحياء والاحتشام، والأدواح المتنوعة، والأرواح المتضوعة حيث المشاهد المكرمة، والمعاهد المحترمة، والغوطة الغناء، والحديثة

والمكارم التي يبارى فيها المرء شائنه وصديقه، والأطلال الوريفة، والأفنان الوريقة، والزهر الذي تخاله مبتسماً، والندى ريقه، والقضبان الملد التي تشوق رائيها لجنة الخلد».

وصل المقري إلى دمشق أواخر نفس الشهر، شعبان، فأنزله بعض المغاربة الذين استقبلوه في مكان لم يعجبه، ولم يسترح إليه، ولم يكن يليق به حسب رأي مؤلف: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر». فأرسل إليه المولى أحمد أفندي بن شاهين مفاتيح المدرسة الجقمقية، وذهب إليها فأعجبته واستقر بها، وربط صلاته بمفتي دمشق الشيخ عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام عماد الدين الذي تعرف عليه بالحجاز خلال موسم الحج في إحدى حجاته والذي حثه وحبب إليه زيارة دمشق، فأكرمه، وبجله، وعرف له حق قدره، وعرفه إلى علماء دمشق وأدبائها، وفضلائها. فقدروه وبجلوه، وأكرموه.

وأقام أحمد المقري بدمشق حوالي أربعين يوماً تعرف خلالها على المدينة وأحوازها فاستهوته مناظرها الطبيعية الجميلة، والخلابة، وذكرته بوطنه الجزائر، ومسقط رأسه تلمسان، ومهجره الأول المغرب الأقصى، كما ذكرته ببلاد الأندلس الضائعة، والمنكوبة، وأثارت في نفسه ذكريات عزيزة، وأشجاناً آسية، فأطنب في وصف ما رأى من حدائق غناء وأنهار دفاقة، ومناظر طبيعية خلابة، وأشاد بما طوقه به الناس من جميل وأفضال، واعتكف على تدريس صحيح البخاري بالجامع الأموي تحت قبة النسر، بعد صلاة الصبح من كل يوم.

ولما تكاثر الناس حوله في حلقة درسه، وازدحموا وضاق بهم المكان، انتقل إلى صحن المسجد تحت قبة الباعونية، وكان أغلب أعيان دمشق يهرعون لدرسه لكونه كان على ما يبدو ثرياً بالمعلومات، فصيحاً، بليغاً، عميقاً.

وكان يوم ختمه لصحيح البخاري مشهوداً، وذلك صباح يوم الأربعاء 17 رمضان من عام 1037 هـ (1628 م) حيث احتشد الناس حوله بالمئات، وانهمرت أعينهم بالدموع من شدة التأثر، واضطر أن ينتقل إلى وسط الصحن

الجامع بجوار الباب الذي يوضع عليه العلم النبوي في أيام الجمع لشهور: رجب، وشعبان، ورمضان، وأتي له بكرسي الوعظ وصعد عليه ليراه الجميع، واستعرض سيرة وحياة الإمام البخاري صاحب الكتاب الذي كان يدرسه لهم، واستغرق درسه مدة طويلة من طلوع الشمس إلى اقتراب موعد صلاة الظهر. وعندما انتهى ونزل من كرسيه، ازدحم حوله الناس ليسلموا عليه، ويقبلوا يديه، ويشكروه. ولم يتفق لغيره من العلماء الذين وردوا على دمشق، ما اتفق له هو، من الحظوة، وإقبال الناس عليه[1].

أهل دمشق يطلبون منه تأليف كتاب عن لسان الدين بن الخطيب:

وخلال إقامة أحمد المقري بدمشق، قام بزيارات عديدة لمعالمها الحضارية: الدينية، والتاريخية، والمعمارية، كالجامع الأموي، وقبر صلاح الدين الأيوبي، والغوطة والقصور، والمنازل الجميلة، والمدارس، والمكتبات. وكثر حديثه مع مزوريه، والمرافقين له، على بلاد الأندلس، ورياضها، وبساتينها، وحيضانها، وقضاياها وقصة ضياعها، وعلى وزير غرناطة المشهور، لسان الدين بن الخطيب، الكاتب البارع والشاعر المفلق، والسياسي الذكي، والأديب المتفوق، وتكرر منه ذلك مرات عديدة فأثار بذلك أشجانهم وفضولهم، وخلق في نفوسهم شوقاً لمعرفة الكثير عن هذا البلد، ووزيرها، وتاريخها، وقصة المسلمين بها.

فطلب منه المولى أحمد أفندي بن شاهين، أن يتصدى للتعريف بلسان الدين بن الخطيب، في كتاب خاص يؤلفه عنه. حتى يستطيع المشارقة أن يعرفوا شخصيته ومنزلته، فاعتذر له في البداية وقال له: «بأن هذا العرض غير سهل، ولست علم الله، له بأهل من جهات عديدة: أولها: قصوري عن تحمل تلك الأعباء الشديدة إذ لا يوفى بهذا الغرض إلا الماهر بطرق المعارف الشديدة. وثانيها: عدم تيسر الكتاب المستعان بها على هذا المرام، لأني خلفتها بالمغرب. وأكثرها في المشرق كعنقاء مغرب، وثالثها: شغل الخاطر بأشجان

---

(1) خلاصة الأثر. جـ 1. ص 305.

الغربة الجالبة للفكر غالب الكربة. وتقسم البال بين شغل عائق، وبلبال»[1].

غير أن أحمد بن شاهين طلب منه وألح مرة أخرى على إنجاز ذلك. فقبل ووعده: «بالشروع في المطلب عند الوصول إلى القاهرة المعزية». وأزمع السفر، ورحل عائداً إلى مصر يوم 5 شوال 1037 هـ (1628 م) وكان يوم مغادرته لدمشق مؤثراً جداً، حسبما وصفه في كتابه نفح الطيب، فبكى لفراقه أصحابه الذين أسفوا هم الآخرون لمغادرته دمشق، وفراقه لهم وحزنوا كذلك، وعندما وصل إلى غزة نزل ضيفاً على الشيخ الغصين وتوسط له أحد تلاميذه الذي هو ابن الشيخ الغصين، ويدعى عبد القادر، ليطلب من أمير غزة بأن يسمح له أن يبني بيتاً له في بعض رحاب المسجد، حتى يكون قريباً من عمله، ويؤدي وظيفته كقارىء ومقرىء.

فقبل المقري رجاءه، ورغبته، وصحبه معه إلى قصر الأمير، وشرح له الأمر فقال الأمير لصاحب الرغبة: مثلك لا يليق به البناء داخل المسجد، ولكن هذا موضع نحبسه لك، وهو موضع المدرسة. وتم له ما أراد، وكان المقري سبباً في بناء وتشييد تلك المدرسة، وذلك المنزل.

ومن النوادر التي حكاها أحمد المقري في كتابه نفح الطيب، أن الشيخ الغصين اشتهى طعام الكسكسي الذي يشتهر به المغاربة، فطلب من أحمد المقري أن يصنعه له فصنعه، وتناولوه جميعاً قبل أن يغادر غزة إلى القاهرة.

شروعه في تأليف كتاب نفح الطيب:

وعندما وصل أحمد المقري إلى القاهرة، اختلف مع زوجته التي أنجبت له بنتاً ولكنها توفيت عام 1038 هـ (1628 ـ 1629 م) وطلقها، فزاد ذلك في همومه ومتاعبه، ومع ذلك شرع في كتابة تأليفه عن لسان الدين بن الخطيب، وخطا خطوات هامة فيه، وقال: «إنني شرعت بعد الاستقرار بمصر في المطلوب، وكتبت منه نبذة تستحسنها من المحبين الأسماع والقلوب، وسلكت في ترتيبه أحسن أسلوب، وعرضت في سوقه كل نفيس غريب من المغرب إلى

(1) نفح الطيب، جـ 1. ص 69 ـ 72.

المشرق مجلوب، تستحسن الأبصار ما عليه احتوى وتعرف الأفكار أنه غير مجتبى».

غير أنه بعد مدة من الزمن، توقف عن الكتابة لظروف ألمت به، فكاتب صديقه أحمد بن شاهين وأعلمه بذلك. فلم يرتح للخبر، وكاتبه مجدداً طلبه ورغبته وإلحاحه في إتمام ما بدأ فيه، وامتثل المقري لرغبته، وعاد للكتابة من جديد، واعتكف عدة شهور، وقال في هذا الصدد: «ولما حصل لي كمال الاغتباط، بما دل على صحة حال الارتباط، نشرت بساط الانبساط، وحدثت لي قوة النشاط، وانقشعت عني سحائب الكسل، وانجابت، وناديت فكرتي فلبت مع ضعفها وأجابت فاقترحت من القريحة زنداً كان شحاحاً، وجمعت من مقيداتي حساناً صحاحاً».

فألف كتاباً عن ابن الخطيب سماه في البداية: «غرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب»، تناول فيه حياته وصفاته، وثقافته وأساتذته، وأسرته، ومآثره وجانباً من نظمه ونثره، ومراسلاته ونكبته، وقتله وحرقه، ومما قاله في هذا الصدد: «وكنت كتبت شطره، وملأت مما تيسر هامشه وسطره، ورقمت من أنباء لسان الدين بن الخطيب، حللاً لا تخلق جدتها الأعصر، وسلكت من التعريف به رحمه الله مهامه لكل فيها واسعات الخطأ وتقصر».

ثم توقف عن الكتابة مدة حتى اختمر في ذهنه ما كتبه، وعاد بعد ذلك إليه ورأى أن يضيف إليه مقدمة عن تاريخ الأندلس، وأحداثه السياسية، وجغرافيته، وسكانه، والفتح الإسلامي له، وتاريخ المسلمين به، وعلماء المسلمين الأصليين، والوافدين عليه، والمهاجرون منه إلى البلدان الإسلامية الأخرى خاصة بلاد المشرق.

وقد استغرقت كتابة هذه المقدمة، وقتاً أطول من موضوع الكتاب نفسه دام عاماً وبضعة أشهر، وجاءت طويلة في حجمها كذلك حتى أصبحت تمثل نصف الكتاب. وأعطى له عنواناً ملائماً للمقدمة والموضوع ذاته، وهو: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب»

وانتهى منه في آخر شهر ذي الحجة من عام 1039 هـ (1630 م)، وعزم أن يحمله بنفسه إلى دمشق ليطلع عليه أصدقاؤه الذين اقترحوا عليه تأليفه وكانت تراوده فكرة الهجرة إلى مدشق بصفة نهائية بعد أن: «وجد بمصر الحسد والنفاق، وتجارة الأدب ليس لها بسوقها نفاق»[1].

وفاته:

وبينما هو يستعد للسفر مرض وتوفي في جمادى الثانية عام 1051 هـ (يناير 1632 م) فدفن في قرافة المجاورين قرب الجامع الأزهر إلى جاذب صفوة ممتازة من علماء الإسلام الذين جاؤوا إلى القاهرة مثله زائرين، ودارسين، ورحالة، ومدرسين، ومجاورين، آخى بينهم العلم، ووحدت بينهم اللغة، والدين، والحضارة، والثقافة الإسلامية، ووافاهم الأجل بها مثله فدفنوا بها.

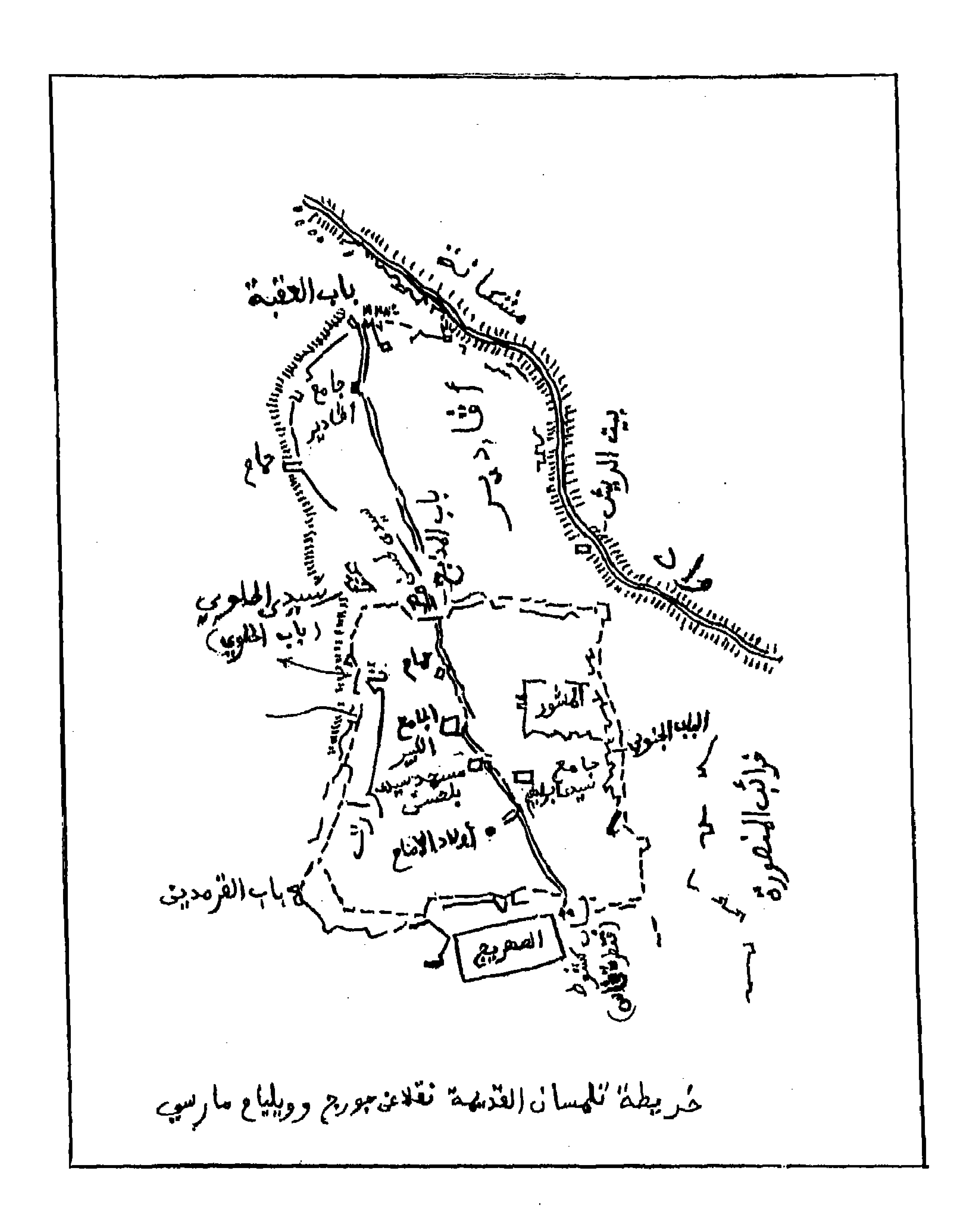
مؤلفات أحمد المقري:

عاش أحمد المقري بمصر أربعة عشر عاماً قضاها كلها في الأسفار، والرحلات إلى الحجاز، والشام، وفلسطين، والإسكندرية، وخلال ذلك اعتكف على الكتابة والتأليف في أغراض شتى، وخلف لنا من ورائه عدة مؤلفات أهمها:

1) روض الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحاضرتين مراكش وفاس. ألفه بين 1011 و1012 هـ (1602 ـ 1603 م) وطبع بالرباط عام 1964 بتحقيق عبد الوهاب بن منصور.
2) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ألفه بفاس بين عامس 1013 ـ 1004 هـ (1604 ـ 1605 م) وتم طبعه.
3) إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة، وهو عبارة عن نظم في العقيدة نظمه بالحجاز، ودرسه بالحرمين، وأتمه بالقاهرة، وطبع عام 1304 هـ (1886 م) على هامش شرح العقيدة السنوسية للشيخ عليش.
4) إتحاف المغرم المغري في شرح السنوسية الصغرى.

---

(1) ريحانة الألباب. جـ 2. ص 175.



خريطة تلمسان القديمة نقلاً عن جورج ووليام مارسي

5) إعمال الذهن والفكر، في المسائل المتنوعة الأجناس، وهو عبارة عن أجوبة عن مسائل علمية وجهها إليه استاذه محمد بن أبي بكر الدلائي، وتوجد ضمن كتاب البدور الضاوية بخزانة الرباط.

6) حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي، ذكرها المحبي، واليواقيت.

7) عرف النشق من أخبار دمشق. ذكره المحبي كذلك.

8) شرح مقدمة ابن خلدون، ذكره حاجي خليفة.

9) قطف المهتصر في شرح المختصر، على مختصر خليل. ذكره المحبي.

10) فتح المتعال في مدح النعال، طبع بالهند.

11) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب طبع مرة أولى في مصر، وحققه وأعاد نشره الدكتور إحسان عباس خلال عقد السبعينات.

12) مجموعة أراجيز شعرية في أغراض متنوعة، وعددها 17 أرجوزة. أشار إليها د. إحسان عباس في تحقيقه على نفح الطيب.

تراجم بعض علماء وهران

بعض الشخصيات العلمية التي أنجبتها وهران أو عاشت بها:

شهدت وهران خلال تاريخها الطويل، ازدهاراً فكرياً، وثقافياً، وأكسب مسيرتها الطويلة عبر التاريخ، خاصة في العهود الإسلامية المختلفة، وشب بها وعاش عدد كبير من رجال الفكر والأدب، ذاع صيتهم في أصقاع المغرب، والمشرق الإسلاميين، وشارك الكثير منهم في بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية هنا في جزيرة المغرب، وفي الأندلس، والمشرق. ومن ضمن هذه الشخصيات على سبيل المثال لا الحصر:

ـ الشيخ سيدي هيدور الذي أصبح اسمه علماً على الجبل الشامخ الذي يشرف على المدينة من الغرب. لكونه اتخذ فيه خلوة للتعبّد. وهو من رجال أواخر القرن الثالث الهجري، ومطلع العاشر الميلادي، وعندما توفي دفن في مسقط رأسه بتسالة.

ـ الشيخ أبو عبدالله محمد الغريب الذي دفن بجوار القصبة خارج السور، في سفح الجبل، وما تزال هذه المقبرة إلى اليوم تحمل اسمه: «مقبرة سيدي الغريب» وما يزال قبره بها كذلك.

ـ الشيخ المحدث أبو إسحاق إبراهيم الوهراني، شيخ عبد البر النمري الأندلسي، وهو من أهل القرن الرابع الهجري، والعاشر الميلادي.

ـ الشيخ دادة أيوب المغراوي، الذي ينتسب إليه «حمام دادة أيوب» على

طريق المرسي الكبير، شمال غرب وهران قرب ساحل البحر، وهو من أهل القرن الرابع الهجري كذلك الموافق للعاشر الميلادي.

ـ الشيخ أبو بكر يحيى الوهراني الذي اشتهر بتضلعه في شرح الحديث النبوي، حتى لقب بالمحدث، وتوفي عام 430 هـ (1039 م).

ـ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله بن خالد الهمداني الوهراني المعروف بابن الخراز. تتلمذ على الشيخ أبي بكر محمد بن صالح الأبهري، وعلى الشيخ علي أبي حيان الأندلسي. وهاجر إلى بجانة (بيشينا)، ثم إلى قرطبة، واشتغل بالتجارة وتوفي هناك عام 411 هـ (جوان، جويلية 1020 م). وقد عرف به ابن بشكوال.

ـ الشيخ أبو تمام الوهراني الذي سكن بجاية، ودرس بها، وترجم له ابن أبي زرع، والغبريني[1]. وقد اشتهر بسعة إطلاعه في العلوم الشرعية والفقهية وهو من علماء القرن السابع الهجري. وتحدث عنه كل من شربونو، وديدي.

ـ الطبيب أبو محمد عبدالله ابن يونس بن طلحة بن عمرون الوهراني، ولد ونشأ بوهران أواخر القرن الرابع الهجري وانتقل إلى إشبيلية عام 429 هـ (1037 ـ 1038 م) ومارس الأعمال التجارية إلى جانب التعليم، واشتهر بخبرته في الطب، والمداواة، وفي علوم الحساب، والرياضيات، وترجم له ابن بشكوال، وتحدث عنه ابن الخرّاز تلميذ يحيى الوهراني الآنف الذكر.

ـ القاضي أبو عبدالله محمد الوهراني الذي تولى منصب قاضي الجماعة للموحدين في مراكش، عام 1188 (584 هـ)، ثم بإشبيلية عام 1195 م (592 هـ)، وذلك لتضلعه في الفقه والحديث. وكذلك بوهران، وتلمسان، وقد توفي بمراكش عام 1205 م (602 هـ).

ـ وهناك أيضاً أبو محمد عبدالله بن الجبل الذي كان أحد أعضاء مجلس أعيان مدينة وهران.

---

(1) أبو العباس أحمد بن عبدالله الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية (الجزائر ـ 1328 هـ ـ 1910 م) ص 116.

- أبو عبدالله بن مروان، وكلاهما في عصر الموحدين.

العالم الأديب ابن محرز الوهراني

أبو عبدالله بن محمد بن محرز بن محمد الوهراني، عالم جزائري عاش في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). ولا ندري بالضبط السنة التي ولد فيها. ولم تحدثنا المصادر التي ترجمت له عن ذلك، ولكن يبدو أنه ولد في مطلع القرنين لأننا نعرف السنة التي توفي فيها وهي 575 هـ (1179 م)، إذ من الممكن جداً أن يكون قد عاش ثلاثة أرباع القرن أو دون ذلك بقليل[1].

وزعم أنه ينتسب لوهران إلا أننا لا ندري هل هو منها بالذات، أو من بعض القرى الصغيرة المجاورة لها. حفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه، أو بعضاً منه، لا ندري، ودرس وتعلم العلوم والمعارف العربية الإسلامية الدينية واللغوية حتى تضلع فيها وتبرز كما يدل على ذلك إنتاجه الأدبي المتنوع، والغزير، والبليغ.

ولا ندري هل تنقل في مدن وعواصم بلدان المغرب الإسلامي والأندلس للدراسة والتعلم كما فعل غيره من العلماء، أم اكتفى فقط بالدراسة في مدينة وهران وحدها.

فلم يشر إلى ذلك فيما خلفه لنا من آثار، ولم تتحدث المصادر التي ترجمت له على ذلك. ولكن عمق ثقافته اللغوية والأدبية يدل على أنه صاحب إطلاع واسع، بأحوال المغرب وتطوراته السياسية، والثقافية، والدينية، والاجتماعية،

---

(1) ممن ترجم لابن محرز الوهراني: ابن خلكان في وفيات الأعيان بالجزء الرابع. وابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار. والصفدي في الوافي بالوفيات. وابن قاضي شهبة في الأعلام. والسيوطي في الكنز المدفون. ومحمد كردعلي في مجلة المقتبس (1906 ـ 1908 م). وخير الدين الزركلي في الكنز المدفون. ومحمد كردعلي في مجلة المقتبس (1906 ـ 1908 م). وخير الدين الزركلي في الأعلام. وفريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين. وعبد اللطيف حمزة في دراسة عن الأدب المصري.

وذلك يوحي إما بسفراته وتنقلاته إلى مدن وعواصم المغرب المختلفة، وإما بقراءته وإطلاعه على كل ما كتب عن بلاد المغرب والمشرق في مختلف الجوانب.

ففي مقامته البغدادية، تحدث عن الفاطميين، والمرابطين، والموحدين، والأيوبيين، والعباسيين، ومدن الأندلس، والعراق، والشام، والمغرب الأوسط، والأقصى، ومصر، كما تحدث عن عبد المؤمن بن علي، وصلاح الدين الأيوبي، والأمير أسد الدين شيركوه، وعدد لا بأس به من العلماء، والفقهاء، والشعراء، والوزراء، والكتاب، والسياسيين والفلاسفة، والعظماء.

ويبدو أنه كان طموحاً إلى المعالي، ولم يجد سبيلاً إليه في وهران وبلدان المغرب الإسلامي الأخرى خلال عهد الموحدين رغم أنه صاحب قلم سيال. وقدرة فائقة في الإنشاء والكتابة الديوانية. كما يتضح من مقامته البغدادية. كما يبدو أنه لم يتصد للتدريس في وهران أو بعض عواصم المغرب حتى يكون له تلاميذ. ويشغل وقته ويعمره، فيعوظه ذلك عن التفكير في الهجرة ومغادرة الوطن. ولم تحدثنا المصادر عن نشاط علمي قام به، ولم يشر هو إلى تلاميذ له تخرجوا على يديه. وهذا يشعر بأن الطموح طغى عليه، وشغله على غيره.

ولذلك هاجر وهران والجزائر، إلى بلاد المشرق العربي الإسلامي. فاستقر بمصر في المرحلة الأولى، ولا ندري متى رحل، ولكن ذلك تم في عهد صلاح الدين الأيوبي، وعبد المؤمن بن علي أو قبل ذلك في عهد نور الدين زنكي. واستقر في مدينة القاهرة المعزية، وطمح أن يلتحق بديوان الإنشاء ككاتب نظراً لمقدرته اللغوية، والبلاغية، والإنشائية.

ولكن هذا الديوان كان يشتغل به فطاحل الكتاب والبلغاء، الذين لا يقوى على مناهاتهم من أمثال: القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني الكاتب. فأدرك أنه ليس من طبقتهم. أو أن السياسة تحول دون مضاهاته لهم، فقرر أن يسلك سبيل الهزل والسخرية، ويتخذ أسلوب الكتابة الهزلية التي لا ينافسه فيها أحد، ولا يقدر على مجاراته. واهتدى إلى كتابة: المنامات، والمقامات، والرسائل،

والتعريضات، والرقاع، ليصل بواسطتها إلى ما يصبو إليه، وهو إلفات نظر الناس إليه على الأقل حسبما يبدو، أو الحصول على منصب لطموحه بهذا الأسلوب.

وإلى هذا أشار ابن خلكان في كتابه: وفيات الأعيان عندما ترجم له وقال: «أبو عبدالله محمد بن محرز بن محمد الوهراني الملقب بركن الدين، وقيل جمال الدين، أحد الفضلاء الظرفاء، قدم من بلاده إلى الديار المصرية في أيام صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى، وفنه الذي به صناعة الإنشاء. فلما دخل البلاد ورأى بها القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني الكاتب في تلك الحلبة، علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم، ولا تنفق سلعته مع وجودهم، فعدل عن طريق الجد، وسلك طريق الهزل، وعمل المنامات، والرسائل المشهورة به، والمنسوبة إليه، وهي كثيرة الوجود بأيدي الناس. وفيها دلالة على خفة روحه، ورقة حاشيته، وكمال ظرفه، ولو لم يكن فيه إلا المنام الكبير لكفاه، فإنه أتى فيه بكل حلاوة ولولا طوله لذكرته»(1).

أما ابن فضل الله العمري فقد أشار إلى تأثير القاضي الفاضل فيه، وفي مستقبله الفكري، والسياسي، والأدبي، بالمشرق، ووقوفه حاجزاً ضد طموحه. فقال: «الوهراني أديب اخترع طريقاً طلعت شمسه من المغرب، ولم يغلق (فيه) للرحمة باب، وقدم والدولة الصلاحية قد استعلت، ويد تصرفها من البلاد قد استولت، والمجلس الناصري معمور بأجلاء، مأهول بالقاضي الفاضل وأقرانه من الفضلاء، وريح الأدب قد هبت، ووقود الخواطر قد لبت، والحظ الفاضل قد أخذ معه حظ كل، فأخذ ما للكل، ولم يترك لهم إلاّ الفاضل. وكان يغار على كل بيت فكر، وكان الوهراني لوذعياً تحميه لألاؤه، وألمعيا تريه البصيرة آراؤه. فخاف نقاص ذلك الصل وعبثات ذلك السيف الذي لا يكل. فمال إلى السخف إذ كان لا يحسد على مكبيه، ولا ينافس في ترديه وتجليه. وجعل هذا سبباً لإظهار ما عنده من الإحسان، وتكلم ولم يخف عثرة القلم ولا زلة

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان. تحقيق الدكتور إحسان عباس (بيروت 1971) جـ 4. ص 385 ـ 386.

اللسان، فرفرف عليه جانب من الحنو الفاضلي، ورق عليه كما يرق غسق البابلي».

وقد عبر الصلاح الصفدي بوضوح أكثر على محاولات أبي محرز للتعريض بالقاضي الفاضل عن طريق التلميح فقال: «وكان قد سلطه الله على الشيخ تاج الدين الكندي، وعلى المهذب بن النقاش، وعلى القاضي الفاضل، أما القاضي الفاضل فإنه ما كان يجسر على التصريح بذكره بل يعرض به كقوله في رسالة كتبها إلى مجد الدين بن المطلب وقد ذكر حمام الفيوم: فلم أشعر إلاّ والحائط الشرقي قد انشق، وخرج منه شخص عجيب الصورة، ليس له رأس ولا رقبة، البتة. وإنما وجهه في صدره، ولحيته في بطنه مثل بعض الناس». وهذه إشارة إلى القاضي الفاضل الذي كان ضئيل الجسم، ذميم الخلقة، ذا حدبة ظاهرة، ولكنه فرض نفسه بأدبه، وقلمه السيال، وفصاحته وبلاغته، حتى قال عنه صلاح الدين الأيوبي لرجال جيشه: «إنني ما فتحت البلاد بسيوفكم وإنما بقلم القاضي الفاضل».

وهذه السخرية بالرجال الكبار، كالوزراء والكتاب، وهذا الأسلوب الهزلي بهم ويقيهم، جلب له المزيد من المتاعب، ولو أنه نفّس على نفسه بذلك. وقيل إنه كان أحد الأسباب في تعيينه خطيباً في مسجد داريا بأحواز دمشق الشام، لإبعاده عن مصر وتجنب غائلة لسانه، الساخر، مع ضمان مورد لعيشه حتى لا يعود. فانتقل إلى هناك في تاريخ لا نعرفه، وقد يكون مطلع السبعينات من القرن السادس. وقضى هناك بقية حياته حتى توفي.

ولم يحدثنا عن سفراته وزياراته، إلى بلدان أخرى ما عدا صقلية والعراق الذي أكد زيارته لهما في مقامتيه البغدادية، والصقلية. ونرجح أنه زار فلسطين في طريقه إلى الشام، وزار الحجاز لأداء فريضة الحج، وتنقل في عدة مدن من بلاد الشام قبل أن يستقرّ في قرية داريا بصفة نهائية. وحدد ابن خلكان تاريخ وفاته فقال: «ثم إن الوهراني المذكور تنقل في البلاد وأقام بدمشق زمناً، وتولى الخطابة بداريا، وهي قرية على باب دمشق في الغوطة، وتوفي بها سنة خمس

وسبعين وخمسمائة بداريا رحمه الله تعالى. ودفن على باب تربة الشيخ أبي سليمان الداراني. نقلت من خط القاضي الفاضل، ووردت الأخبار من دمشق في سابع عشر رجب بوفاة الوهراني»(1). وقد ترجم الغبريني لابن محرز البلنسي المتوفى عام 655 هـ (1257 م) ولا ندري هل هو من عائلة الوهراني هذا أم لا(2).

آثار ابن محرز الوهراني الأدبية

لقد كان ابن محرز الوهراني خلال استقراره بمصر والشام يكثر من الكتابة الأدبية في أغراض شتى، بأسلوبه الهزلي الساخر، المصحوب بكثير من التعمية، والإيحاء، والنقد اللاذع وخلف لنا مجموعة لا بأس بها من اثار الأدبية المكتوبة في شكل رسائل، ومقامات، ومنامات ورقاع، جمعت كلها أو جلها في حياته، أو بعد مماته لا ندري. وتحمل عناوين مختلفة أحياناً: «رسائل الوهراني»، وأحياناً: «منامات الوهراني» وأحياناً: «مقامات الوهراني»، وأحياناً: «منشآت الوهراني»، وأحياناً: «دليل الترسل»، وأحياناً: «جليس كل ظريف وهراني».

وتوجد منها ثلاث نسخ مخطوطة معروفة هي: نسخة دار الكتب المصرية. ونسخة آيا صوفية بتركيا، ونسخة مكتبة جامعة برينستون بأمريكا، وهي التي اعتمدها كلها: إبراهيم شعلان، ومحمد نغش، في تحقيقهما لمنامات الوهراني ومقاماته، ورسائله التي نشراها تحت هذا العنوان عام 1968. ولكن للأسف لم يشيرا ولو بكلمة واحدة لسيرة هذا الأديب اللامع، وحياته الشخصية. وهذا لا يقلل من الجهد الذي بذلاه في الكشف عن آثار الوهراني وإبرازها ونشرها. إثراء لأدب المقامة، والإنشاء الساخر، والأسلوب الهزلي بما فيه من العمق البلاغي، والألفاظ النابية، والسخيفة والأفكار المبتذلة والصفة أحياناً.

---

(1) يوافق 17 رجب 575 هـ تاريخ ديسمبر عام 1179 م.

(2) أبو العباس أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية تحقيق رابع بونار. ط 2، (الجزائر 1981) ص 241 ـ 244.

النسخة الأولى: توجد في دار الكتب المصرية تحت رقم 24. وعنوانها «رسائل الوهراني»، وتحتوي على عدة رسائل في الأدب والمخاطبات، والترسل، من بينها رسالته التي قدم فيها القاضي أبا الثناء محمود بن يحيى بن أفلح، عند تقليده منصب القضاء. ورسالته التي تحمل اسم: منام الوهراني. وهذه النسخة ناقصة لا تحتوي إلّا على 94 لوحة أو صفحة. وتبدأ برسالة ابن أفلح، ونسخت عام730 هـ (1329 ـ 1330 م). أي بعد قرن وخمسة وخمسين عاماً من وفاته.

النسخة الثانية: توجد بخزانة جامع أيا صوفيا في مدينة اسطمبول بتركيا تحت رقم 4299. وصورت منها نسخة وضعت بمكتبة معهد المخطوطات العربية في القاهرة. وهذه النسخة أتم من الأولى، تشتمل على كثير من رسائل الوهراني ومناماته، ورقاعه، وتعريضاته، ونسخت كذلك في القرن الثامن الهجري (14 م). وتقع في 204 صفحة، ولوحة، وتحمل عنوان: «مقامات الوهراني».

النسخة الثالثة: توجد في مكتبة جامعة برينستون بالولايات المتحدة الأمريكية، تحت رقم 97، وتحمل اسم: «جليس كل ظريف للوهراني». وتقع في 52 لوحة.

وقد اطلع محمد كرد على نسخة أخرى بعنوان: «منشآت الوهراني»، ذكر أنها تقع في تسعة كراريس عثر عليها في بعض خزائن الكتب، ولكنه لم يصرح بمكانها، وصارت في حكم المعدوم، إلّا إذا تم العثور عليها مرة أخرى.

وتوجد بمكتبة أحمد تيمور، في دار الكتب المصرية مخطوطة تحت رقم 492 تحمل عنوان: مجموعة رسائل، ومقامات، بينها عدة رسائل للوهراني مطبوعة من صفحة 61 إلى صفحة 71. ومن صفحة 234 إلى 237.

وفي كتاب الكنز المدفون والفلك المشحون الذي ينسب خطأ لجلال الدين السيوطي، وهو في الحقيقة لشريف الدين يونس المالكي. في هذا الكتاب عدة رسائل للوهراني وقد طبع هذا الكتاب عام 1871 م وأعيد طبعه بعد ذلك

مرتين على الأقل. وقد ذكر صلاح الدين الصفدي أثراً آخر للوهراني بعنوان: «دليل الترسل».

وهذه الآثار كلها لا تخرج على شكل مقامات، ورسائل، ومنامات، وتعريضات، ورقاع، ومحاورات، سلك فيها ابن محرز الوهراني، مسلك أبي العلاء المعري في: «رسالة الغفران». وابن شهبة في: «التوابع والزوابع» وبديع الزمان في «مقامته الإبليسية». والأسعد بن مماتي في: «الفاشوش في حكم قراقوش». وسار على منوالهم فيما بعد: دانتي أليجري الإيطالي في روايته: «الكوميديا الإلهية».

إن ابن محرز الوهراني بأسلوب مناماته، وتعريضاته، ورقاعه يعد كاتباً مسرحياً كبيراً، وروائياً ساخراً من الدرجة الأولى في زمانه، على غرار برنارد شو، وموليير، ورابلي، حديثاً وقل من نجا من سخريته اللاذعة في زمانه. ولهذا قال عنه الصفدي: «وعلى الجملة فما كان يسلم من شرّ لسانه أحد ممن عاصره. ومن طالع ترسله وقف على العجائب والغرائب، وما كان يخلو سامحه الله من تجر».

واستاء العمري من أسلوبه الساخر هذا وقال: «وتخرص المنام الذي أتى فيه بالأكاذيب، وحسن باطله بحسن الترتيب، وذكر فيه الملائكة الكرام، وانتهك عرض السلف الحرام، وغير ذلك من كباره التي لا تطاق، ومنكراته التي لا يصبر عليها».

أما محمد كردعلي فقد قال: «وكلام الوهراني على خلطه وخبطه، يضحك العبوس، وقلما تنقبض منه النفوس. إلا لدن سماع الألفاظ السخيفة التي تنبو عنها الأذواق السليمة في هذا العصر».

نماذج من منامات ومقامات ابن محرز الوهراني

إن الذين يتصفح منامات الوهراني، ومقاماته، ورسائله التي حققها ونشرها الأستاذان: إبراهيم شعلان، ومحمد نغش[1] يجد بها حوالي 42 مقامة،

(1) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله (القاهرة ـ دار الكتب العربي للطباعة والنشر ـ 1387 هـ ـ 1968) 308 ص.

ومنامة، ورقعة ورسالة، ووصية، ووصفاً، وتقديماً منها:

1) مقامته البغدادية، التي وصف فيها رحلته إلى بغداد، والمدينة، ومدح الخليفة.
2) ومنامه الكبير الذي سار فيه على غرار أبي العلاء المعري. فتصور نفسه ميتاً، وبعث إلى يوم المحشر، والتقى هناك بالعلماء والفقهاء، والشعراء، والملوك، والأمراء، والخلفاء، والوزراء، والمتصوفين، وتحاور مع البعض منهم، ووصف أحوال وأوضاع آخرين بأسلوبه الناقد والساخر، والغامض، والغريب، مع خفة الروح، وطرافتها على عكس أسلوب المعري الذي يمتاز بالجدية والصراحة، والميل إلى أفكار المتصوفين.
3) ومقامته في شمس الخلافة على لسان علي بن حماد الصقلي.
4) ورقعته على لسان مساجد دمشق وجامعها الكبير.
5) ورقعته على لسان بغلته ريحانة إلى الأمير عزالدين موسك.
6) ورسالته إلى قاضي الفاسقين، وهو بمصر، عن نائبه بدمشق يخبره فيها بما صارت إليه الأحوال بعد توجهه إلى مصر. ونرجح أنها في ذم القاضي الفاضل.
7) وعهد تقليد عن قاضي الفاسقين لأبي الثناء محمود بن يحيى بن أفلح اللخمي المعروف بأتكوا.
8) وخامته على صقلية.
9) وكلامه عن أبواب البر العشرة التي تسخط الله وترضى الشيطان.

وفيما يلي نورد بعضاً من هذه النماذج لإبراز أسلوب الوهراني وسخريته وهزله، وظرافته، وطرافته، وبلاغته، ونذالته كذلك في بعض الأحيان، وسخفه وإسفافه.

النموذج الأول: قطعة من مقامته البغدادية

«قال الوهراني: لما تعذرت مآربي، واضطربت مغاربي، ألقيت حبلي على غاربي[1]، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي، ومن أخلاف الأدب رضاعتي، ولا وزير إلاّ قرعت بابه، وطلبت ثوابه، ولا بقاضي إلا أخذت سيبه،

(1) نفس المصدر ص 1 ـ 9.

وأفرغت جيبه. فتقلبت بي الأعصار، وتقاذفت بي الأمصار، حتى قربت من العراق، وسئمت من الفراق. فقصدت مدينة السلام لأقضي حجة الإسلام. فدخلتها بعد مقاساة الضر، ومكابدة العيش المر. فلما قربها قراري وانجلى فيها سراري، طفتها طواف المفتقد، وتأملتها تأمل المنتقد، فرأيت بحراً لا يعبره زاخره، ولا يبصر آخره، وجنة أبدع جنّانها، وفاز باللذة سكانها، لا يميل عنها المتقون، ولا يرتقي إلى صفتها المرتبون، «كمثل الجنة التي وعد المتقون». فأرحت نفسي من سلوك الغو والفج، وجلست أنتظر أيام الحج، وتاقت نفسي إلى محادثة العقلاء، واشتاقت إلى معاشرة الفضلاء، فدلّني بعض السادة الموالي، إلى الشيخ أبي المعالي، فقال: هو بستان الأدب، وديوان العرب، يرجع إلى رأي مصيب، ويضرب في كل علم بنصيب. فقصدت قصده، حتى جلست عنده، فحين نظر إلي، ورأى أثر السفر عليّ، بدأني بالسلام، وبسطني بالكلام، وقال: من أي البلاد خرجت، وعن أيها درجت؟ فقلت: من المغرب الأقصى، والأمد الذي لا يحصى، ومن البلد الذي لا تصل إليه الشمس حتى تكل أفلاكها وتضج أملاكها، ولا القمر حتى يتمزق سرجه، ويتناعى برجه، ولا الريح حتى يحجم أقدامها، وتحفى أقدامها».

ومضى الوهراني في استعراض أفكاره على هذا النمط وقال قبل نهاية المقامة وهو يجيب عن رأيه في الوزير عضد الدين «فقلت له: إذن والله أشكره شكر الأرض للسماء والروض الزاهر للماء، ولا سيما أن أخذ لي من الخليفة خلعة سنية منيفة، أستضيء باقتباسها وأتبرك بلباسها، وأنشرها على منارة الإسكندرية، وأطرحها على ساحل المرية، وأكتب لها الأقران في وهران، وأطلق بشكره اللسان في تلمسان، وأدعو له في مدينة فاس على عدد الأنفس، وأثنى عليه في أغمات إلى وقت الممات. فقال: أبشر ببلوغ الأمل، ونجاح العمل».

والنموذج الثاني: قطعة من منامه الكبير عن يوم الحساب

«... فبينا نحن في المعاورة وإذا نحن بمالك خازن النار قد[1] هجم علينا، وقبض على أيدينا، ورمى السلسلة في أرقابنا، وسحبنا إلى النار، فارتعنا إلى ذلك ارتياعاً عظيماً. وقلت لك: هذا الذي خوفتك منه قد وقعنا فيه. فقلت له: يا سيدي يا مال اسمع عني كلمتين لوجه الله تعالى، فيقول لك: كيف أسمع منك وقد حذفت ربع اسمي في النداء فتقول: والله ما حذفته للترخيم في النداء الجائز عند جميع النحاة، وإني لفي شغل عن ذلك وما حذفته إلا من شدة الهلع وانقطاع مادة الكلام فيقول: هات كلمتيك، قل ما تشاء أن تقول. فتقول: يا سيدي هذا رجل مغربي من أهل القرآن، وأنا رجل محدث عن رسول الله ﷺ، فبأي جرم تأخذ قبل وقوف الرب سبحانه على حسابنا فلعله يتجاوز عنا. فيقول لك: يا خبيث أنت كنت من المتفننين في اللياطة، ومن المتظرمين، فقلت له: أنا كيف ذلك يا سيدي؟ فقال لي: هذا كان يفسق بأولاد المسلمين، وقال لك: كنت... أولاد المسلمين وتثبت أسماءهم في جريدة عندك على حروف المعجم، حتى لم يبق عليك منها إلا القليل. وأتى عليك أجلك وأنت مجتهد في تعليق بقية الحروف يا ديوث، أليس أنت الذي أدخلت فلاناً الأمر إلى الخراب المظلمة. ونيمته تحت ضوء الروزنة فلما لم يطبق الضوء حجره قلت له بتحنين وتلطيف: يا سيدي قرّبها إليّ بفضلك يا خنزير وأي فضل يكون لأمر منكوح يا مرجوس. أليس أنت الذي أخذت يحيى المطرز وما قام عليك وراح عنك وأنت مغبون فلما اجتمعت به بعد ذلك بمدة طالبته بالتمام؟ ولو عددت عليك المخازي التي رأيتها أمس في صحيفتك لضاع علي الزمان.

وأما هذا المغربي فرجل قواد لا شك فيه، فاستشطت أنا عند ذلك غضباً وأظهرت القلق العظيم وقلت له: ألمثلي يقال له هذا الحديث؟ والله لتندمن على هذا الكلام فقال لي مالك: لعلك تريد أن تهجوني بشعر مثل ما رأيت في صحائفك اليوم أو تعمل فيّ مقامة تذمني فيها مثل ما تفعل مع بني آدم، والله

---

(1) نفس المصدر. ص 29 ـ 32.

لألطمنك بالفلع حتى يبول القندلاني على ساقيه، واشتهيت أن أعلم ما سبب غيضك عليّ هل تقدر تحلف أنك ما كنت تقود على رفيقك هذا في دار الفوارة بحبرون في سنة ثلاثة وخمسين وخمسمائة من الهجرة (2 فيفري 1158ـ22 جانفي 1159). فلما سمعنا خرسنا وأبلسنا وعلمنا أن الناقد بصير لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فرجعنا حينئذ إلى الملاطفة والسؤال وقلنا له: سألناك بالله لا تعجل علينا فنحن صائرون إليك بعد قليل، وما لنا عليك من محيص، فتركنا بعد الجهد الجهيد، فدخلنا في غمار الناس، فقلت لك: يا أخي قد طير هذا الجبار عقولنا، ومرت لنا معه ساعة تشيب الولدان فأطلع بنا إلى جبل الأعراف لنشرف منه على أهل الموقف ونتفرج على بساتين الفردوس. فتستريح صدورنا، وترجع إلينا أرواحنا في ذلك المكان، فقلت لي: احذر أن تفعل ذلك الله الله في نفسك، فقلت لك: ولم؟ فقلت: لأن يأسنا من الجن أكثر من رجائنا فيها، ومتى رأينا أشجارها وأنهارها وفاتنا دخولها تضاعفت علينا الحسرات والأحزان وعظمت المصيبة بالحرمان، وعدم ذلك في التخيل خير من وجوده في العيان، فإنه يقال في المثل: «عين لا ترى قلب لا يحزن».

النموذج الثالث: رقعته على لسان مساجد دمشق إلى الجامع الأموي تشكوه فيها حالها

«قال بعض العارفين بطريق الانتحال على لسان الحال[1] لما تحكمت يد الضياع، وارتج باب العدل، وغلق ونبذ كتاب الله وحلق، فزعت المساجد إلى جامع جلق، وهو يومئذ أميرها، وعليه مدار أمورها، فلما اجتمعوا على بابه، ودخلوا تحت قبته ومحرابه كتب له جامع النيرب قصة إليه، وسألوا عرضها عليه، وكانت الرقعة مصطورة على هذه الصورة: المماليك مساجد الكورة يقبلون الأرض بين يدي الملك المعظم البديع الرفيع المكرم، كهف الدين جمال الإسلام والمسلمين، بيت الأنبياء والصالحين، مدفن الأنبياء والمرسلين، ملجأ الفقراء والمساكين، مأوى الغرباء والمقلين، بيت الأتقياء والصالحين، معبد

(1) نفس المصدر. ص 61 ـ 71.

الملبين، صاحب الدواوين، بنية أمير المؤمنين، أيّد الله أنصاره وأعلا مناره، وعمر بالتوحيد أقطاره، وينهون إلى مجلسه السامي ما يقاسونه من جور العمال وتضييع الأعمال، ونهب الوقوف، وخراب الحيطان والسقوف، قد ألفهم الظلم والظلام، وأنكرهم المؤذن والإمام، فلا تسمع لهم حسيساً، ولا ترى فيهم أنيساً، إلاّ أذان البوم وتسبيح الغيوم، وقد ركعت حيطانها وسجدت سقوفها وأركانها، وانصرفت من الصلاة أربابها، وسكانها تنوح عليهم الأجراس والنواقيس، وترثى لهم البيع والنواويس.

يرثي لها الشامت مما به: يا ويح من يرثي له الشامت

وقد فزعنا أيها الملك إلى بابك، وأوينا إلى جنابك، فافعل معنا ما هو أولى بك، ورأيك العالي في ذلك والسلام.

فلما وقف الملك على هذه الشكاية، وعلم بمقتضى هذه الحكاية، استوى جالساً في مقعده، وضرب بيده، وقال: كيف وإني أم للإنسان ما تمنى؟ ثم رفع صوته وغنى:

ومـــا شـــرب العشـــاق إلا بقيتـــي ولا وردوا في الحب إلا على وردي

ثم أشرف الملك من إيوانه بين جنده وأعوانه، فاستقبلوه بالسلام، والتحية والإكرام، وأقبل هو يقلب طرفه في الجموع، ثم رد عليهم السلام، وأذن لهم في الكلام، فابتدأ جامع المزة المقال، وتقدم بين يدي الملك وقال: الحمد لله الذي قضى علينا بالخراب وصير أموالنا كالسراب، وجعلنا مأوى البوم، والغراب، أحمده حمد من كان فقيراً ثم استغنى، وأدرك بمال الوقوف ما تمنى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عالم عامل محتمل لثقل الأمانة حامل، وأشهد أن محمداً عبده المكين، ورسوله الصادق الأمين، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الأكرمين، أما بعد أيها الملك السعيد، ثبت الله قواعد أركانك، وشيد ما هي من بنيانك، فإن الخراب قد استولى على المساجد حتى خلت من الراكع والساجد، فأصبحت مساجد الغوطة غيطان، لا سقوف لها ولا حيطان، وجوامع حوران مخازن وأفران، ومشاهد البقاع صعصعاً كالقاع فكم

بنية لعب الجور، بأثوابها، فنسج العنكبوت على بابها، وكم بيوت لله غلقت دون أصحابها فعشعش الحمام في محرابها، . . . «فمن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها». وقد دخل أيها الملك على الوقوف بحجة العمارة والسقوف، فاختلفت فينا الأهواء، واتفقت علينا الأنواء، فلا يزال المسجد ينهار، وتأخذه السيول، والتيار، والأنهار، حتى يمتحى رسمه ولا يبقى منه إلاّ اسمه، وأنت أيها الملك عمادنا، وإليك بعد الله معادنا، فاكشف عن حالنا، وانظر في صلاح أحوالنا، يصلح الله أحوالك، ويسدد أقوالك وأفعالك، والسلام. ثم جلس فقال الملك: قد سمعنا كلام المساجد، فما بال الشاهد فبرز مسجد برزة متوكئاً على مشهد الأرزة، وهو يصلصل ويصول، ويلطم وجهه ويقول:

كلما حاولت أشكو قصتي لا ألاقي غير ذي قلب جريح

يشتكي مثل شكواي محنتي يا لقومي ما عليها مستريح

أما بعد أيها الملك السعيد أدام الله جمالك، وبلغك في عدوك آمالك، فإن مقام إبراهيم أصبح في كل واد يهيم، ومغارة الدم لا تستفيق من الذم، ومشهد الكهف لا يفتر من اللهف، ومشهد هابيل قد رمى بطير أبابيل، ومشهد شيث قد استأصله الخبيث، ومشهد نوح يبكي عليه وننوح، وقبر حلة ما لنا فيه حلة، وقبر إلياس، قد وقع منه اليأس، فلحقت المشاهد بأربابها، وأمست رميماً كأصحابها، قد محتها الغوادي، وحدا بها الحادي:

جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد

فتنحنح الملك عجباً، وحرك رأسه طرباً، وقال:

رب طارق غير وعد وفي كل واد بنو سعد

ثم استفتح المقال بأن قال: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، فصب العدل سواه وأمده بعونه وقواه. «فمن أظل ممن اتبع هواه»، فأهواه بسلبه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، أحمده على ما رزقني من الاحتمال، وأشكره عل ذهاب العرض والجاه والمال، وأشهد أن لا إله إلا الله

رب العالمين وحده لا شريك له، شهادة من أعطى الأمانة حقها، وكان أهلاً ومستحقها، وأشهد أن محمد عبده المختار، ورسوله الصادق البار، صلى الله عليه وعلى آله الأبرار. أما بعد يا معشر المتكلمين، وطائفة المساجد المتظلمين، إنه والله لا ينتهي إليكم من الجور إلا ما يفضل عني، ولا يصل إليكم إلا ما يستعار مني، فلولا أن أركاني سليمة، وبنيتي قديمة، لأصبح جامع بني أمية يغني عليه، يا دار مية، وقد والله شرقت بغصّتكم وحرت في قصتكم، أن رفعت أمركم إلى الملك العادل، ردكم إلى الشيخ الغافل، فلا يرعى لكم حرمة، ولا يكشف لكم غمة، ولا يرقب فيكم إلاّ ولا ذمة. شكوى الجريح إلى الغربان والرخم. والرأي عندي أن تكتبوا إلى الشيخ قصة، ولا تتركوا في صدوركم غصة، وأن تجعلوا في الكتاب أنواعاً من العتاب، فإن التأم رأيه برأيكم، وإلا فالسلطان من ورائكم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فنادوا بالغلام فأتى بالدواة والأقلام، فقال: استعذ بالله من الشيطان الرجيم واكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، من ملك الجوامع بجيرون إلى سعد بن أبي عصرون:

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ... ولكن لا حياة لمن تنادي

أما بعد يا غدار لقد هيجت الألم، وأبهمت الظلم، ومن استرعى الذئب فقد ظلم. طالما تغافلنا عن خيانتك. وتغاضينا عن جنايتك حتى اكتنزت الأموال واختزلتها، وجمعت الذخائر واعتزلتها، من أجل هذا كانت سياحتك، ولأجله طالت نياحتك، وبسببه كنت تسيح وتصيح، حتى غبطك المسيح لقد عجبت أيها الشيخ من محالك في ابتداء حالك، ومن فساد أمرك، عقد آخر عمرك، ومن فساد دينك وضعف يقينك، صليت بالمسوح والقيد، حتى ظفرت بأنواع الصيد، وتقلدت بالقرون والعظام حتى تقلدت الأمور العظام، كنت في هذا العمل إلا كما قيل في المثل:

صلّى وصام لأمر كان يأمله ... حتى حواه فما صلى ولا صاما

وعرفني أيها الشيخ المفتون، والبائع المغبون، لم بعت الآخرة بالدّانية، والباقية بالفانية؟ إن فعلت هذا إلاّ لعلة أو لتحقيق ملة، أما أن تكون قد استطبت السكباح واستلنت الديباج، وأما أن نصدق أهل الأحقاد في أنك نصيري في الاعتقاد، لا تقول بالنجعة، ولا تصدق بالرجعة، وكلاهما أنت فيه ملموم ومعاقب، ومذموم، وحسبك وقد بلغني عنك ما أنت عليه من قلة الوفاء لهؤلاء الضعفاء، فاسحم عني أداؤهم، ولا تمكن منهم أعداءهم والسلام.

فلما وصل الكتاب إليه وقرأ ما قد انطوى عليه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم نظر ثم عبس، ثم أدبر واستكبر ثم لعن المساجد وبانيها. وشتم المشاهد وقانيها، ثم قلب الرقعة وكتب فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلت رقعتك أصلحك الله كأنها ضربة موتور، أو نفثة مصدور، وتخلط فيها الهزل بالجد، وتبدى غيظ الأسير على القدر، وأيم الله لقد فرقت سرياً، وقذفت برياً، وجئت شيئاً فرياً، فاشدد من عقلك، وتأيد من مقالك، فما كل شكل يذم شكله، ولا كل طائر يحل أكله، وما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء فحمة، ولو كان لك عقل يهديك أو رأي يهديك أو رأي يهديك لواريت أوارك، ولسترت عوارك، أليس قد اشتهر عند الداني والقاصي بأنك قطب ما يتم فيك من المعاصي، حتى لقبوك بسوق الفسوق، وميدان المروق ورحاب القحاب، حتى قال فيك القائل:

تجنّب دمشق فلا تأتها	وإن راقت الجامع الجامع
فسوق الفسوق به قائم	وفجر الفجور به طالع

فلا جرم أن الله قطعك بالطريق، وعاقبك بالحريق، وجعل الميض على أبوابك، الزط في قبلة محرابك، وعذبك بالنيران وقرنك بأشر الجيران، وجعل خطيبك أتوها دائضاً وإمامك أعمى ناقصاً. فلو أنك البيت المعمُور، لهجرت أو حرم مكة لما حججت. فقف عند مقدارك وانظر في إيرادك، وإصدارك والسلام.

فلما وقف الجامع على رقعته، ورأى ما فيها من رقاعته قام وقعد، وأبرق

وأرعد، وقال: اكتب يا غلام باسم الملك العلام، من العاتب الواجد، إلى الملك الزاهد، قال الحافظ للوتد لم تشفني؟ قال: سل من يدقني لم يتركني ورائي الحجر الذي من ورائي. أما بعد أيها الملك العادل أدام الله أيامك ونشر في الخافقين أعلامك. فقد طاولت بعدلك القمرين، وسرت سيرة العمرين وأنت تعلم أن الله قد طهر بقعتي وكرمها، وشرف بنيتي وحرمها، طالما زوحمت بالمناكب، لما كنت هيكلاً للكواكب، وكم أمست مشكاة للأنوار، وبيت لاستقص النار، ثم انتقلت إلى اليهود بعد انقراض ملة هود، فتأنست بالزبور، وبالأنبياء في القبور، ثم جاءت دولة الصلبان، فقربت بالقربان ومعاشرة الرهبان، ثم جاء الإسلام فتشرفت بدين محمد عليه أفضل السلام، فأنا المشرف في كل قرآن والمعظم في كل أوان، فكسف يسعك أيدك الله أيها الملك التغافل عن حالي والتحين لنهب أموالي، ويدك مبسوطة في العباد، ومطلقة في جميع البلاد، ما يكون جوابك يوم النشور، إذا بعثر ما في القبور، وقد أوقفتك موقف الذليل بين يدي الملك الجليل؟ وأقول: أي رب سل هذا لم أهملني وسلمني لمن أكلني؟ فلا ترد يومئذ جواباً ولا تجد خطاباً، ولا أقبل منك جميلاً ولا كفيلاً ولا أقبل عنك شفيعاً ولا وكيلاً، فتقول: «يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً، يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً». فقدم أيها الملك السعيد لنفسك ما تجده غداً في رمسك وخذ هذا المذكور في الحساب قبل يوم الحساب، فتبرأ من التباعة وتدخل في أهل الشفاعة والسلام على من حمى مساجد الإسلام ورحمة الله وبركاته.

فلما وقف الملك العادل على كتابه، وتجرع كأس عتابه التفت إلى المساجد فرثى لهم وسدد أحوالهم، ولما علم فحوى شكيتهم، وعرف كنه قضيتهم أزال عنهم ظلمهم وأسرها يوسف في نفسه، ولم يبدها لهم. ثم نظر إلى ابن أبي عصرون فأنزله واعتزله وحجبه على بابه واختزله وألقاه. في سجن الصدود، وخلده فيه إلى يوم الخلود، وقرأ عليه: «إلا بعداً لمدين كما بعدت ثمود»، والسلام.

النموذج الرابع: مقامته في شمس الخلافة

. . «حدثني عيسى بن حماد الصقلي[1] قال: لما اختل في صقلية الإسلام وضعف بها دين محمد عليه السلام، هاجرت إلى الشام بأهلي وجعلت جلّق محط رحلي فدخلتها بعد معاناة الضر، ومكابدة العيش المر. فلما تجلى فيها سراري وقر في بعض محلاتها قراري، رأيت معي في الحارة رجلاً ثقيل الإشارة. نيطي الشكل والعبارة يأخذه التيه ويدعه، ويرفعه الإعجاب ويضعه، فقلت في نفسي: ليت شعري من ذا؟ ومن أي كنيف خرج هذا، وبعد علي غوره، وأشكل علي أمره، فاعترضته في الطريق وسلمت عليه سلام صديق وأنشدته:

أجـارتنـا إنـا غـريبـان هـاهنـا وكـل غـريـب للغـريـب نسيـب

وبسطته بالحديث حتى جاء بالقديم وبالحديث، وقال: مولدي منوشهر، ومنشأي ما وراء النهر، لكن بالشام والعراق مداري فأيقنت بالشكل المغرب، أنه من بلاد المغرب وبأن لي من خلال ألحاظه وفلتات ألفاظه أن الرجل يقطينة وأنه مغربي الطينة.

قال عيسى بن حماد فقلت في نفسي: أكون فضولي الأرض بالطول والعرض، ويدخل علتي هذا المحال المحض، واستدللت عليه برجل كان يأنس إليه فقال الرجل: أنا جهينة أخباره وأحذق الناس بأدباره أعرفه صغيراً وكبيراً، وإن شئت فاسأل به خبيراً، فقلت: عرفني مريضه، وأي بحر لفظه، فقال: أما الطينة فمن قسنطينة، وأما القبيلة فمن زويلة، وأما النحلة فمن حمير الفحلة، فقلت له كيف ذاك جعلني الله فداك؟ فقال: اعلم أنه دخل هذه المحجة محرماً بحجة، يعوزه من القوت ثمن رطل من الياقوت، يتمنى رفسة من رجل رزاز، أو صفعة من كف خباز، وحاول كل معيشة فلم يقدر على حشيشة فساقه القلفندر، والقضاء المقدر إلى عجوز مغربية، محكّمة في خمسين صبية، تعلم

(1) نفس المصدر، ص 97 ـ 102.

البنات الغزل، وتجنبهم المجون والهزل، قد اشتهرت بالرفق والأناة، والحذق في تعليم البنات، قد أخصب مكانها وامتلأ بالكسر أركانها. فجاء هذا الشيخ أبو الخرا يطلب عندها بيتاً للكراء، وهو كما رأيت قد جمع بين الحفا وغلظ القفا، فأبصرته العجوز على تلك الحالة، فتوسمت عظم الآلة، فسرى خيالها، وسال عليه ريالها، ولم يفارق بابها حتى كتبت عليه كتابها، ولما اختلاها واعتلاها، وكنف من ليلته خلاها، أيقنت أنه يبرد عليلها، ويداوي عليلها، فقامت على الفور، وهو من ورائها كالثور، حتى دخلت السوق بالهيمان المسوق، ففتحت له العباب، وفصلت عليه الثياب ولم يفارق الدكان حتى قالت له: كن فقيهاً فكان.

قال عيسى بن حماد، فقلت للراوي: مثلك من أفاد، وشفى بحديثه الفؤاد، فكيف تمشي حاله. وتغطى على الفقهاء محاله، فقال: اعلم أنه لما اجتمعت العجوز على تعليمه ورده إلى المدرسة وتسليمه، تخوف من ذلك الأمر، وبات ليلته على الجمر. فلما أصبح قال لها: يا هذه اعلمي أني كنت في بلدي إسكافاً. وأصبحت اليوم في مرحاضك كنافاً، فكيف لي بالمدارس وأنا كالطفل الدارس؟ ومن أين لي بالخير وأنا مثل حمار العزيز؟ والله ما أفرق بين الحروف وبين قرون الخروف، فقالت: أنا أعلمك العلم كلّه إلاّ أقله، وأعلمك فصلاً في التدريس تغلب به محمد بن إدريس، فقال لها: يا هذه والله ما أرجو من المدرسة نفعاً وإني أخاف أن يقتلوني صفعاً، فدعيني من اقتحامك وإقحامك، ووفريني على لطم أرحامك، فقالت: أريد أن أخرجك من المدابر وأضعك على رؤوس المنابر، فأحضر ذهنك وأفتح لهذا الدرس أذنك، اعلم أن الألف قائم كالغزل، وهو كباب المنزل، والباء كالصّنارة أو كرجل المنارة، والهاء كالثقالة، وفيها شيء كالعرقالة، والطاء كالخف أو كطارة الدف، وكل مدور رميم، وكل معوج جيم، والصاد تشبه نعالك، والذل تشبه قذالك وأن القاف والكاف، تشبهان اللكاف، فاحفظ هذا الكلام، وقد أصبحت مفتي العراق والشام واحذر مخالفتي، واعتزالي، واعلم أن بهذا الفصل تقدم الغزالي، فأقبل التيس يكرر لفظه، حتى أجاد حفظه، وعندما خرج في القمة والعمة، وعزم على

مدرسة جمال الأمة. فخرجت تبحره من العين، وتقرأ عليه المعوذتين، وقالت له: إذا جلست فتربع، ولا تتقنبع، وانشر أكمامك، وأظهر للناس أعلامك، فإن الغريب ابن ثويبة، والمقيم ابن جديه، فقال لها: أوصيني رحمك الله، فقالت له إذا حضرت فانفخ حضنك وبطنك، وانفش بين الفقهاء دفتك وباكر المدرسة في الصباح، وسابقهم إلى الرواح، وإن غلبوك في العلم، فلا يغلبوك في الصباح. فقال لها: أخاف والك أن أقتل باللواك، ولكن أوصيني، فقالت: خذ اللفظ بأناملك من شفتيك، وزاحم الفقهاء، بمنكبيك، وابصق في وجه الشيخ ولا جناح عليك. فقال فهاتي إذن شيئاً من قماشك ألقى به صفح الشماشك، فقالت: أجسر على القوم فما هو إلا بياض اليوم، واعلم أن الفقه ليس هو شيء غير النفاق والزعاق، وتلويث وجه الخصم بالبصاق. أما سمعت ما قاله الشيخ أبو جابر المغربي لما رأى حالهم وخبر محالهم:

يـا طـالـب العلـم مـن كتـاب	ومـــن معيـــد ومـــن مفهـــم
بـــدون هـــذا تـــرى فقيهـــاً	فـــوسـع الثـوب ثـــم عمـــم
وألبـس مـن الثـوب طيلسـانـاً	وأعقـده فـي المنكبيـن وانظـم
واقعـد مـع القـوم فـي جـلال	لا بـــالبخـــاري ولا بمسلـــم
إلاّ صيـــاحـــاً ونفـــض كـــمّ	وعقـــد لا لا وجمـــع لـــم لـــم
فمـــا أرى عندهـــم علـــومـــاً	أكثـــــــر مـــن لا ولا أســـلـم

فقال لها: إن صدقت فأنا أكون أمام الوقت. وقام في ذلك الأوان حتى دخل على الفقهاء في الإيوان فهابته قلوب الجماعة، وخافوا أن يكون من أهل البراعة، فأنصفوه في السلام، وبسطوه بالكلام، وآنسوه بالمحاضرة حتى جاء وقت المناظرة، فحينئذ برز بالوجه الوقح والأفك الصراح، وأرهج المدرس بالصياح، وأخذ يقول نوعاً من الهذيان، وضربٌ من الباذنجان، فوقع الناس في البلاء، وعلموا أنه دلو من الدلاء، وتحققوا أن الرجل كالسطل، لا يصلح إلا للاصطبل، فخرجت هيبته من صدورهم، ونبذوه وراء ظهورهم. قال الراوي: ولما ارتفعت عنه وحشته، وزالت عن فؤاده دهشته ضاق بالعلم باعه، ونفرت منه طباعه، وعاد إلى ما يعرفه من الأخلاق الذميمة، والسعي بالنميمة حتى طال

على القوم أمره، وانتهى فيهم عذره، وعلم الشيخ من شيمه الردية وأخلاقه الدنية أنه لا يصلح إلا للعوانية، فأشار به في بعض الأعمال، فأخرج عاملاً من العمال، فكثرت عند ذلك بضاعته وازدادت دياصته ورقاعته، واستخدم الجندار والسلاح دار، واستعمل التركاش، والحوائج كاش، وصار بالأعوان والحاشي والغلمان، والفاشية، وصار الشيخ زوج العلافة يلقب بشمس الخلافة.

قال عيسى بن حماد: ولما ارتفعت الهمة وامتنعت الذمة، تغير على زوجته بعد أن كان يفديها بمهجته، وصار يجري بينهما في المجالس ما يحفظ عنهما في المدارس، ولقد رأيتهما يوماً يشالقها وتشالقه، ويخالفها وتخالفه، ويقول لها ألست تعلمين يا جيافة أنني لقيت من أجلك برزوج العلاقة فلعن الله الأشفار والأظفار، وما تحويه الأخصار من حانوت العطار.

النموذج الخامس رقعته على لسان بغلته ريحانة

«المملوكة ريحانة[1] بغلة الوهرانية تقبّل الأرض بين يدي المولى عز الدين حسام أمير المؤمنين، نجاه الله من حر السعير. وعظم بذكره قوافل العير، ورزقه من القرط والتبن والشعير ما وسق مائة ألف بعير، واستجاب فيه صالح أدعية الجم الغفير من الخيل والبغال والحمير. وتنهى إليه ما تقاسيه من مواصلة الصيام، وسوء القيام، والتعب بالليل والدواب نيام. قد أشرقت مملوكته على التلف وصاحبها لا يحتمل الكلف، ولا يوقن بالخلف. ولا يحل به البلاء العظيم، إلا في حاجتي إلى القضيم، لأنه في بيته مثل المسك والعنبر، وإلا طرفيل الأكبر، أقل من الأمانة في الأنباط، والعقل في رأس قاضي سنباط.

فشعيره أبعد من الشعري العبور، لا وصل إليه ولا عثور، وقرطه أعزّ من قرط مارية، لا تخرجه صدقة، ولا هبة ولا عارية، والتبن أحب إليه من الابن، والجلبان عنده أعزّ من دهن ألبان، والحب أقل من الياقوت في بيت النبطي والعقل في رأس البلطي، والقضيم بمنزلة الدر النظيم، والفضة أجل من سبائك

(1) نفس المصدر، ص 90 ـ 94.

الفضة، وأما الفول فمن دونه باب مقفول. فما يهون عليه أن يعلف الدواب إلا بعيون الآداب، والفقه اللباب، والسؤال والجواب، وما عند الله من حسن الثواب، ومعلوم يا سيدي أن البهائم لا توصف بالحلوم ولا تعيش بسماع العلوم ولا تطرب إلى شعر أبي تمام، ولا تعرف الحارث بن همام، ولا سيما البغال التي تشتغل في جميع الأشغال، شبكة من الفصيل أحب إليها من كتاب التحصيل، وقفة من الدريس أشهى إليها من قفة محمد بن إدريس، ولو أكل البغل كتاب المقامات مات، وإن لم يجد إلا كتاب الرضاع ضاع، ولو قيل له أنت هالك إن لم تأكل موطأ مالك ما قبل ذلك، وكذلك الجمل لا يتغذى بشرح أبيات الجمل، وحزمة من الكلأ، أحب إليه من شعر أبي العلاء وليس عنده طيب شعر أبي الطيب، وأما الخيل فما تطرب إلا لسماع الكيل، وإذا أكلت كتاب الذيل ماتت في النهار قبل الليل، والويل لها ثم الويل، ولا تستغني الأكاديش عن أكل الحشيش بكل ما في الحماسة من شعر أبي الحريش، وإذا أطعمت الحمار شعر ابن عمار حل به الدمار، وأصبح منفوخاً كالطبل على باب الإصطبل، وبعد هذا كله فقد راح صاحبها إلى العلاف، وعرض عليه مسائل الخلاف، وطلب من بيته خمس قفاف، فقام إليه بالخفاف، فخاطبه بالتعقير، وفسر له آي العير وطلب منه ويبة شعير، فحمل على عياله ألف بعير، وأكثر له من الشخير والنخير، فانصرف الشيخ منكسر القلب مغتاظاً من الثلب، وهو أنحس من الكلب، فالتفت إلى المسكينة وقد سلبه الغيظ ثوب السكينة وقال لها: إن شئت أن تكدى فكدّى لا ذقت شعيراً ما دمت عندي، فبقيت المملوكة حائرة لا قائمة ولا سائرة. فقال لها العلاف: لا تجزعي من حبله، ولا تلتفتي إلى سبابه، ولا تنظري إلى نفقته، ولا يكون عندك أخس من عنفقته. هذا الأمير عز الدين سيف المجاهدين يده أندى من الغمام، وعزيمته أمضى من الحسان، ووجهه أبهى من البدر ليلة التمام، يرثى للمحروب، ويفرج عن المكروب وهو نبي بني أيوب، لا يرد قائلاً ولا يخيب سائلاً، فلما سمعت المملوكة هذا الكلام، جذبت الزمام، ورفست الغلام، وقطعت اللجام، وشقت الزحام حتى طرحت خدها على الأقدام، ورأيك العالي والسلام».

النموذج السادس رسالته إلى قاضي الفاسقين يخبره فيها بما صارت إليه الأحوال بعد توجهه إلى مصر

«المملوك النائب عن مجلس الفسق الوضيع بالشام ـ أوله: كل من في الوجوه نحس إلا واحد[1].

أطال الله قرون مولاي القاضي الأجم الفاضل، الإمام العالم، قاضي الفاسقين إمام اللاطة، مفتي الفسقة، تاج الزناة، عز العلوق، مجال المشارب، قطب الدساكر، مقدم الخرابات، رئيس المواخير، فخر البدود، ذو القرنين الحاضر أقود، العالم مصطفى غلام أمير المؤمنين، مسخرة نفاط غلام أمير المؤمنين، وأدام الله سروره وأفراحه، وبلغه أمله واقتراحه، وأدام اعتباقه واصطباحه، ولا زالت يمينه مطية، لفصوص القداح، وفلكاً لشموس الأقداح، ومنزله مأهولاً بالولدان، معموراً بالقحاب، والمردان، ونغانغه بمجون العلوق مخمرة، وأحداقه بأكفهم مخضرة، وخيول اللهو إلى فنائه مسرعة، وسحائب الصفع عن ربوع أكتافه مقلعة، ولا جعل لسلطان الدرة على قفاه سبيلاً، ولا لظوارق القلع إلى رأسه دليلاً.

كتب هذه الأحرف إليه يسر الله معاصيه، وبارك له في مخاصيه، أشكو إليه ما عندي من الشوق إلى طلعته وصلعته، والحنين إلى قاعته ورقاعته، والارتياح إلى قامته وشامته، فشوقي إليه شوق الفاسق اللايط إلى المباعر، والمنقطع إلى لحوق الأباعر، وحنين إليه حنين الجعل إلى الأرواث، واللايط إلى شم الأخباث وارتياحي إليه كارتياح الأرملة إلى البعال، ورأسه إلى مباشرة النعال، فأقسم له بالغصن إذا استوى، والحقف وما احتوى، والصدغ إذا التوى فلو خط بعض شوقي إليه على وجوه الحسان لكسفها وعلى ربى الأكفال لنفسها، أو حل بالعاشق لسلاه، وبالأمر الفارح لجلاه فنسأل الذي قضى بالبين أن يؤلفنا بالنيربين، والذي ابتلانا، بالصدود أن يجمعنا في بعض البدود، بمنه

(1) نفس المصدر، ص 144 ـ 149.

وكرمه، وأما غير ذلك كثر الله أرباحك، وأدام على المعرفة نباحك فلا تسأل عما يقاسيه الخادم من جور العلوق، واهتضام المشوق، وبعدما بين القهوة والحلوق، وما قد ابتلينا به من القضاة المخالفين، والأئمة المسخفين، في إقامة الحدود، وتعطيل البدود، وتحريم الزمر، وتبطيل أبواب الخمر، وضربهم للسكران ولو أنه الحكيم بن المطران وأخذهم أشد العهود على النصارى، واليهود، فصارت القهوة أقل من أخلاط الجسد، وأعز من جبهة الأسد، لا تبصر في الليالي إلا كطيف الخيال ولا في النهار، إلا عند إراقتها في الأنهار، ونحن معهم في شدة، إلى أن تنقضي هذه المدة، وعند التناهي يكون الفرج. وكلما تزايد إنكارهم، وتفرغت للتعذير أفكارهم، ذكرنا عزه الله تعصبك ووفاك، وردعك لنا بقفاك، وأما العلوق لعنهم الله ورد كيدهم في نحورهم، ومكن رماحنا من ظهورهم، فإنهم لما علموا بسفرك، وأمنوا من بوادر ظفرك، اشتدوا بنفوسهم، وركبوا في الجور على رؤوسهم، يعذبون العشاق ويقتلون المشتاق، ويضعونهم بالتشريح، ويصقلون أقفيتهم بالتمريخ، ويجوزون. . . كالأذقال، ويتعامون للعاشق عن الأدخال، مع الغير بالفلوس، ويبخلون على العاشق بالفلوس، فأقسمت يا سيدي بمداسك ورأسك، وحق النعل إذا طن، والوقتر إذا رن، والركب إذا عش، والعلق إذا شرش لو كنت فيهم كالأمير. لأشهرتهم على الحمير، وحرمت عليهم نتف الذقون، ودلك الساقات والبطون، حتى يريحن الشعر من الصداع، ويبقى أحدهم على أكلة والوداع، وأعجب من ذلك يا سيدي أن أحدهم إذا عبث الشعر بساقه، تجبر على عشاقه، وإذا تسولت إليته، عظمت بليته، وكلما طال شعره ارتفع بين العلوق سهره، وليس ذلك إلاّ لطول غيبتك عنا، وبعد أوبتك منا. فنسأل الباري جلت قدرته أن يردك إلى الأهل والقرابات، ويشرف بك البدود، والخرابات، وأشد من ذلك يا سيدي ما حدثني به من ينتمي إلى هوى أبي بكر اختمي، إن قيمته وقرعته محلوقة، كخده لما كانت له دبوقة. وهذه من النعم التي يجب أن تكفر، ومن الذنوب التي لا يجوز أن تغفر، فلو نتف أحدنا أصلحك الله سبابه. ومزق سرباله، لما وصل إلى بغيته، ولو عمل الخرافي جوف لحيته، فإن كان لك حاجة لولايتك، فاطلع

علينا برايتك، من قبل أن يسلوا العاشقون ويتوب إلى الله الفاسقون، فيتغير الهندام وتكدس أسواق المعاصي بالشام والسلام.

ومتى عزمت على الإياب فحصل النفقة والثياب، لكيلا تموت بالجوع، وتندم على الرجوع ولا تطمع في التكسب بالشعر، فقد راج ذلك السعر. ولو قلت اليوم الحماسة، ما حصل لك بها كناسة، ولو أنك امرؤ القيس، كنت عندهم مثل التيس، ولو أنك ابن منير، حملوا على عيالك الحمير، وما ذاك إلاّ لأن الجود قد استقل، والكرم قد انتقل، وقد وصل إلى قليوب، ملازماً لبني أيوب، ونحن كما قال الوهراني في قصيدة له:

أنست بنو شاذي بمصر وأهلها   فبكت دمشق عليهم والشام

رحل الندى والجود يوم رحيلهم   وتخلف الحرمان والإعدام

كانوا لنا كالوالدين تعطفاً   فاليوم نحن لبعدهم أيتام

فانظر لنفسك، واتعظ بأبناء جنسك، ورأيك في ذلك أعلى والسلام».

النموذج السابع، مقامته الصقلية

قال الوهراني: دخلت مدينة صقلية في الأيام المتوالية[1]. فرأيتها محافل الأوصاف، على طريق الإنصاف، فعشقها شيطاني، فأقمتها مقام أوطاني، فحضرت يوماً في بعض بساتنها، مع طائفة من أهل دينها، وفيهم أبو الوليد القرطي، سلطان الكلام بأمره فيوالفه، وينهاه فلا يخالفه، وجرى بينهم حديث أهل البلد ومن فيها من الأعيان والكلد، فقالوا: يا أبا الوليد أنت حجر محكمنا وبوتقة سبكنا، وها نحن سائلون ليذهب عنا دياجي الغيهب، ففضل من يستحق وعيب، ليميز الله الخبيث من الطيب فقال: أنا أوضح أشكالكم، فاسألوا عما بدا لكم، فقلنا له ما تقول في القاضي ابن رجاء؟ قال: مصباح دجى وشيخ علم وحجى، وهو بيت القضاء، وكلمة حكم وعدل، ورضا، نزه نفسه عن الرشا والولائم، فلا تأخذه في الله لومة لائم، غير أنه عظيم الشقشقة، كثير البقبقة، بسيفه على الخصمين، ولو أنهما ملكين، ويضيع مواقيت الصلاة، ويمنع

---

(1) نفس المصدر، ص 219 ـ 221.

يواقيت الصّلات، لا يرثي للغريب ولا يتوجع ولا يؤسى ولا يسأل، ولا يتفجع فنكب عن ذراه فلأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

وإن يقـوم سـودوه لحـاجـة   إلـى سيـد لـو يظفـرون بسيـد

قلت: فما تقول في الشيخ أبيه، قال: كان رحمه الله عليه يتناعس على الخصمين، فلا يوقظه إلا سلسلة الكفين، ولو قبضت على أنفه بالكلبتين، في حلقه سواء لا سبيل فيه لهوى، قلت: فما تقول في ولده، قال: ابن لبون لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب، وأنشد:

إن الفروع من الأصول ولن ترى   فـرعـاً يطيـب وأصلـه الـزقـوم

قال: فما تقول في الفقيه ابن بقية؟ قال: لن يبـق من العلم بعد موته بقية. وكأنه بدر ثم كسف، وطوف علم نسف، وبحر علم غاض، وإناء أدب فاض، فسر الأعداء بفقده، وانتشر البغاء من بعده:

وما كان قيس هلكه هلك واحد   ولكـن بنيـان قـوم تهـدمـا

قلنا: فما تقول في الكاتب يوسف؟ فقال: الرجلة، والشهامة، والتقدمة والزعامة، غير أن في أسفله داء اسأل الله منه السلامة، قلنا: فما تقول في ولده أبي علي؟ قال: هشاش بشاش وإن مازحته فحشاش، وإن نازعته فأخلاق جدّه أبي دكاش، حلو اللسان، بعيد الإحسان:

يـريـك البشـاشـة عنـد اللقـاء   ويبـريـك فـي السرّ بـري القلـم

قلنا: فما تقول في أخيه؟ أبي الفتوح، قال: القرض من القرض، وذرية بعضها من بعض، حذوك النعل بالنعل: كما قسم الترب المفايل باليد. وذو الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهاً.

النموذج الثامن: البر الذي يسخط الله ويرضي الشيطان

قال الوهراني[1] عشرة أشياء من أبواب البر تسخط الله وترضي الشيطان، وهي: انقطاع ابن الصابوني إلى الله عز وجل في القرافة، وتعصب الخبوشاني

(1) نفس المصدر. ص 232 ـ 233.

لقمر الشافعي وتنفل القاضي قبل صلاة الجمعة وبعدها. وظهور سجارة في هذه الأيام على وجه السديد الطبيب للتراويح في شهر رمضان. وبكاء الفقيه البهاء على المنبر يوم الجمعة. وقراءة الوهراني السبع في صبيحة كل يوم. وسماع ابن عثمان لحديث الرسول ﷺ في جمعة واحدة. وإقراره لذلك على رؤوس الأشهاد. وحضور ابن مماتي لمجالس الوعظ في القرافة. وبكاؤه عند قراءة القرآن. وإنكار أبي عبدالله البغدادي على الموازين خاصة، ولا يلتفت إلى غيره من الذنوب، وبنيان ابن أبي الحجاج لقبر آسية، وترتيب القراء في كل جمعة فيه، ذكروا أن هذه الأعمال الصالحة لا يعبأ الله بها، وهي أحبّ إلى إبليس من كبار الذنوب».

الشيخ بختي: من علماء القرن التاسع الهجري (15 م) عاصر الشيخ الهواري وتتلمذ عليه. وكان زميلاً للشيخ الحسن أبركان بن مخلوف التلمساني الذي درس هو الآخر على الشيخ الهواري وتتلمذ عليه. وكان الشيخ بختي عالماً فاضلاً، ودرس عليه عدد لا بأس به من الطلبة والعلماء. وعندما توفي دفن في غمرة، وزرنا قبره للتعرف عليه.

الشيخ أبو العباس أحمد بن أبي جمعة النجار الوهراني: من أهل القرنين التاسع والعاشر الهجريين (15 و16 م). تتلمذ على الشيخ غانم بن يوسف الغمري دفين جبل ماخوخ بأولاد علي. وعاش بوهران مدة من الزمن. وألف كتاباً تربوياً سماه: جواهر الاختصار والبيان فيما يعرض من المتعلمين وآباء الصبيان[1]. استعرض فيه خبرته في هذا الميدان، وهذا يدل على أنه قضى سنوات طويلة في تعليم القرآن الكريم.

الشيخ محمد بن أبي جمعة الوهراني: شقيق أبي العباس أحمد بن أبي جمعة السابق الذكر. كان عالماً فاضلاً متضلعاً في علوم اللغة والآداب العربية، ووضع شرحاً على لامية كعب بن زهير سماه: تسهيل الصعب على لامية كعب.

وإلى جانب تضلعه في علوم اللغة والآداب العربية، تضلع كذلك في علوم

(1) حقق هذا الكتاب ونشر الدكتور عبد الهادي التازي بالمملكة العربية السعودية.

الحساب، والرياضيات والفلك. ومن شيوخه بفاس ابن غازي، وينتسب هو وأخوه إلى عائلة الشيخ محمد بن عمر الهواري. وتوفي عام 910 هـ (1504 م)، وهو الذي أصدر فتوى للأندلسيين بجواز إخفاء إسلامهم والتظاهر بالمسيحية حتى يمكنهم تربية أولادهم تربية إسلامية. ومما جاء فيها قوله: «فأعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم، أو رياء لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور، وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان، . . وإن أكرهتم في وقت صلاة على السجود للأصنام أو حضور صلاة فأحرموا بالنية، وأنووا صلاتكم المشروعة، وأشيروا إلى ما يشيرون إليه من صنم، مقصودكم الله، وإن كان لغير القبلة، تسقط في حقكم، كصلاة الخوف عند الالتحام، وإن أجبروكم على شرب الخمر فاشربوه، لا بنية استعماله، وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه، ناكرين إياه بقلوبكم، ومعتقدين تحريمة. وكذلك إن أكرهتم على محرم، وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب. وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم، فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو وجدتم قوة لغيرتموه، وكذلك إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم وتتصدقون بالباقي إن تبتم لله تعالى. وإن أكرهوكم على كلمة الكفر، فإن أمكنكم التورية والألغار فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون له «ممد» ناوين أنه الشيطان، أو ممد اليهود. فكثير بهم اسمه. . . »[1].

الشيخ عبدالله بن الطيب بن حوه التيجاني: شيخ الطريقة الدرقاوية خلال القرن الثالث عشر الهجري (19 م). كان قاضياً عند الأتراك وقتله الباي حسن بوهران في سنواته الأخيرة.

---

(1) تاريخ هذه الفتوى أول رجب 910 هـ (28 نوفمبر 1504 م) وهي نفس السنة التي توفي فيها، وقد نشر الأستاذ عبدالله عنان هذه الفتوى في كتابه: نهاية الأندلس، وتاريخ العرب المتنصرين.

القاضي محمد الصادق الحميسي: سليل أبي زكرياء، المغيلي صاحب كتاب: الدرر المكنونة في نوازل مازونة. كان قاضياً بمزونة، ثم انتقل إلى وهران وتولى بها منصب القضاء في عهد الأتراك.

القاضي أحمد بن الطاهر الرزيوي: أصله من مدينة ارزيو شرق وهران. تولى منصب القضاء للأتراك بوهران. ودرس عليه الأمير عبد القادر في صدر شبابه عندما فرض الباي حسن الإقامة الجبرية على والده محيي الدين بوهران وصحبه معه إليها وأقام معه بها أكثر من عامين. وعندما تزعم الأمير عبد القادر ثورته ضد الفرنيين قدمه للمحاكمة وأعدمه في مدينة معسكر بعد أن ثبت تعامله مع الفرنسيين أعداء البلاد.

الشيخ الشريف وابنه الشيخ أحمد ابن الخوجة: أصلهما من مدينة مستغانم واستوطنا مدينة وهران، وألف أحمد بن الخوجة كتاب: در الأعيان في أخبار وهران. وتتلمذ عليه الأمير عبد القادر أثناء إقامته بوهران مع أبيه كذلك.

الشيخ محمد بن عمر الهواري

(751 ـ 843 هـ = 1350 ـ 1439 م)

ولد محمد بن عمر الهواري بهوارة في أحواز كليميتو على بعد عشرين كلم شرق مدينة مستغانم عام 751 هـ (1350 م) وتربى بين أهله وعشيرته، الأقربين من المغراويين، وأوكله أبوه الشيخ عمر إلى الشيخ علي بن عيسى ليعلمه ويحفظه القرآن الكريم. فلاحظ عليه نوعاً من الغفلة والتواكل والبلة وعدم الاهتمام بهندامه، وأخذ ينهره ويضربه فعاتبه والده وقال له لا تضربه حتى ولو كان كسولاً، ومغفلاً، لأن ذلك من علامات ولايته ونجابته.

وعندما بلغ سن العاشرة ذهب إلى كلميتو، وتعرف هناك على ولي صالح يتعبد في غار، ولازمه حتى نال سره وأخذ عليه طريقته الصوفية وبقي عنده مدة من الزمن ثم غادره، وتنقل في مناطق البلاد المختلفة ومنها الواحات الصحراوية، وركب البحر وزار بعض جزر البحر المتوسط، وخالط الوحوش والضباع.

وبعد ذلك اتجه إلى مدينة بجاية واعتكف على الدراسة وتتلمذ على الشيخ أحمد بن إدريس، والشيخ عبد الرحمن الوغليسي، شيخي وأستاذي عبد الرحمان بن خلدون، وأخيه يحيى، المعاصرين له. وأعجبته بجاية وطاب له المقام بها، كما طابت للشيخ أبي مدين شعيب قبله، فأثنيا عليها وعلى كانها المضيافين، وعلمائها وأمرائها، وذلك لتقديرهم للعلماء وطلبة العلم، وإيوائهم للغرباء وتقديم العون والمساعدة لهم.

يضاف إلى هذا استقطاب هذه المدينة للعلماء الفضلاء أصحاب الباع

الطويل والواسع في مختلف فروع العلم والمعرفة، وقد سجل هذا الثناء في نظمه الملحون المسمى بالتسهيل. وفي هذه المدينة بجاية ألف كتابه المسمى: بالسهو والتنبيه في أحكام الطهارة والصلاة، ونظم قصيدته التي سماها: التسهيل ولا ندري كم سنة قضاها في بجاية، وما هي السنة التي غادرها فيها.

ومن بجاية عاد الشيخ الهواري إلى مسقط رأسه، ثم قصد مدينة فاس للدراسة والتعلم كذلك. وجلس إلى حلقة الشيخ العبدوسي والشيخ القباب، وذكر ابن صعد بأنه أتم في فاس حفظ كتاب المدونة للإمام مالك عام 776 هـ (1374 مً)اا وهو في سن الخامسة والعشرين كما ذكر أنه في هذا السنة أتم نظم كتابه: «السهو في الطهارة والصلاة»، علماً بأن ذلك تم في بجاية وليس بفاس. ولعل المقصود بذلك هو إتمام هذا الكتاب، وتنقيحه في فاس وإدخال بعض التعديلات عليه. وهناك بفاس تصدى الشيخ الهواري للتعليم والتدريس بعد أن أصبح عالماً، والتف حوله طلاب العلم وأثنوا عليه.

ومن فاس شد الرحال إلى المشرق عبر تونس وليبيا، وعندما وصل إلى مصر أقام مدة في الجامع الأزهر، وتتلمذ على الشيخ الحافظ العراقي وآخرين، ثم التحق بالحجاز وأدى فريضة الحج بمكة. وزار المدينة المنورة، وتبرك بزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا شك أنه أخذ العلم على عدد من علماء مكة والمدينة المجاورين وما أكثرهم، وما أوسع علمهم.

ومن المدينة المنورة انتقل إلى فلسطين عبر غزة، والتحق بمدينة بيت المقدس، وزار المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وقبر الخليل إبراهيم عليه السلام، وباقي المزارات الأخرى، وحضر عدداً من الدروس في المسجد الأقصى. واتصل بالعلماء الموجودين هناك وتعرف عليهم، وانتفع بعلمهم وآدابهم، ولربما ألقى دروساً هناك، كما فعل في المدن والعواصم الأخرى التي أقام بها أو زارها في المغرب والمشرق.

ومن بيت المقدس اتجه إلى بلاد الشام وقصد مدينة دمشق الفيحاء وأقام بها مدة من الزمن يَدْرُس على علمائها، ويُدَرِّسُ لطلبة العلم المتعطشين بها

خاصة ما يتصل بتاريخ المغرب وحضارته، ولو كمجرد حكايات وأقاصيص عنه. وخلال إقامته بدمشق اعتاد الخروج إلى الغوطة للانفراد بنفسه، واستعراض ما حصل عليه من علوم ومعارف، والتفكير فيما يعتزم عمله مستقبلاً.

وبعد هذه الرحلة الطويلة إلى بلدان المشرق العربي الإسلامية التي لا نعرف متى بدأت ومتى انتهت، قفل الشيخ محمد بن عمر الهواري راجعاً إلى بلاده عبر مدن وعواصم كل من مصر، وليبيا، وتونس، والجزائر. واستقر به المقام في مدينة وهران، التي كانت آنذاك تعج بالنشاط الاقتصادي والعمراني، والثقافي، والاجتماعي، واستقطبت جموعاً غفيرة من المهاجرين الأندلسيين الذين حملوا إليها حيويتهم السياسية، ومهاراتهم الفنية: المعمارية، والصناعية، والثقافية، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

ويبدو أن الشيخ الهواري استهوته كذلك وفضل الإقامة والاستقرار بها لتلك الأسباب وتصدى للتعليم والتدريس، والتف حوله عدد لا بأس به من طلبة العلم أغلبهم قدم إليه من الآفاق البعيدة. كما تصدى لتلقين الأذكار والأوراد لعدد آخر من المريدين. من الناحية الدينية، وصادف نجاحاً وإقبالاً كبيرين. ولما كان كتابه: «السهو والتنبيه» ألفه باللغة الدارجة، فقد حاول تلميذه أبو زيد عبد الرحمن مقلاش أن يصلح ما به من أخطاء نحوية ولغوية. فاعترض عليه وقال له: دع سهوك عندك. واترك سهوي لي، ونهره عن فعله ذاك.

وقد عاش الشيخ الهواري أحداث زحف سلطان تونس الحفصي أبي فارس عزوز على مدينة تلمسان فتوسط أميرها الزياني أحمد العاقل بالشيخ الحسن أبركان التلمساني ليطلب من الشيخ الهواري أن يتدخل لدى سلطان تونس من أجل إبرام الصلح، وحقن الدماء وتجنيب تلمسان مخاطر الغزو، وهذا يدل على المكانة التي كانت للشيخ الهواري آنذاك.

ولما كان الحسن أبركان تلميذاً للهواري فقد أسرع بإبلاغه رغبة أحمد العاقل، فرفض في البداية بدعوى أنه لا شأن له بالملوك والأمراء، ثم بعد

الإلحاح والمراجعة قبل وقال له قل لصاحبك سلطان تلمسان أن يطمئن فسوف لن يرى ولن يتقابل مع سلطان تونس، وصادف أن توفي أبو فارس عزوز فجأة في سفح جبل الصدر من جبال الونشريس صباح يوم عيد الفطر من عام 837 هـ (11 ماي 1434 م) بينما كان الناس ينتظرون خروجه لأداء صلاة العيد، وهو في طريقه إلى تلمسان فأخفى ابنه وفاته، وتوقف عن مواصلة الزحف إلى تلمسان وحمل جثته وعاد بها إلى تونس وكفى الله تلمسان وأميرها شره، وشاع يومئذ بأن الشيخ الهواري هو الذي دعا عليه.

وهناك إشاعة أخرى نقلها كثيرون من تلاميذه ومنهم إبراهيم التازي، والحافظ أبو راس، وشاعت بعد ذلك وانتشرت في كتابات الأوروبيين. ومفادها أن الشيخ الهواري هو الذي دعا على وهران حتى احتلها الإسبان. ذلك أن بعض الناس من سكانها قبضوا على ابن له هائج لمرض ألمّ به على ما يبدو حتى لقبوه بالهائج. وقتلوه وزعموا أنهم حكموا فيه الشرع الإسلامي. فسكت هو وتحمل المصيبة على مضض، ولكن زوجته غضبت وألحت عليه في الاقتصاص، وضربت له عدة أمثلة من الواقع حتى أثرت فيه فاتصل بقاتلي ابنه وحاججهم، وزعموا له بأن ابنه هائج استوجب القتل وطبقوا في قتله أحكام الله فعارضهم وأكد براءة ابنه مما نسب له، واشتد غضبه فدعا على وهران بقوله: «رُوحي يا وهران الفاسقة يا كثيرة الجور والبغي والطارقة، يا ذات الأهل الباغية السارقة، إني بعتك بيعة لنصارى مالقة وجالقة إلى يوم البعث والتالقة، مهما ترجعي فأنت طالقة». ولما سأله أحد تلاميذه قائلاً: والفرج يا سيدي استدرك وقال: «والفرج لاحقه»، وهذا التلميذ هو الشيخ إبراهيم التازي.

وفعلاً احتل الإسبان وهران بعد 72 عاماً من تاريخ هذا الدعاء الذي لا ندري مدى صحته ونسبته إلى الشيخ الهواري، الذي لا يرضى ولو مع غضبه بأن تسقط مدينته أو أية مدينة إسلامية أخرى في أيدي عدو نصراني كافر خاصة في مثل تلك الظروف التي تكالب فيها النصارى الإسبان وغيرهم على احتلال واستعمار البلدان المغربية الإسلامية في إطار الحروب الصليبية البغيضة، وإلا فلا معنى لولايته وتزهده، وعلمه، وتدينه.

بقي الشيخ الهواري يواصل نشاطه الديني والثقافي والاجتماعي بوهران حتى توفي عام 1439 م (843 هـ) ودفن بأسفل حي القصبة العتيق، وبني على قبره ضريح ومسجد ما يزالان قائمين حتى اليوم. الضريح مزار، والمسجد عامر تؤدى فيه الصلوات الخمس. والجمعة، وبه تشتهر وهران حتى اليوم وتنسب إليه. ولكن الضريح يوجد داخله تابوت من الحطب، ولا وجود هناك لأي علامة قبر تحته بل هناك أرضية عادية، ودفن معه عام 1944! مفتي وهران الشيخ بولحبال القسنطيني.

حول مدفن الشيخ الهواري

وهناك عدة روايات متضاربة حول مدفن الشيخ الهواري، فزعم جان كازناف في مجلة جمعية الجغرافية والآثار لمدينة وهران عام 1926 م بأن حوش الشيخ الهواري المحاط بسور ما يزال موجوداً وقائماً في قرية بني تالة قرب مدينة وهران، ولكنه لم يحدد مكانه ومكان القرية بالضبط.

وأورد المقدم ديدي في الجزء الرابع من كتابه: وهران، عام 1931 صوراً لأفراد أسرة زعم أنها من أحفاد الشيخ الهواري عددهم أربعة أفراد أخذت لهم يوم 9 أوت 1931 وهم: الهواري، وحامد، ومحمد، وبدرة، يحملون جميعاً لقب ابن ستى البشير بن الهواري. وروى عنهم بأن جدهم الشيخ الهواري مدفون في ضريح صديقه الشيخ سيدي المسعود بقرية حاسي الغلة غرب مدينة وهران على الطريق المؤدي إلى عين تموشنت وتلمسان. وأما الضريح والمسجد الحاليان اللذان يحملان اسمه بمدينة وهران فقد أسسهما حفيداه: الحاج حاجي، وحمو بويعزار عام 1793، أي بعد عام من تحرير المدينة من الاحتلال الإسباني الأخير.

ومن أجل الزيادة في التحري، والتحقيق قمنا بزيارة إلى ضريح سيدي المسعود قرب قرية تارقة شمال قرية المالح على بعد حوالي 65 كلم من وهران، صباح الخميس 5 ذو الحجة 1407 هـ (30 جويلية 1987 م). ولم نجد في الضريح سوى قبر واحد. وبجواره مسجد صغير بدأ يتداعى سقفه،

ولكن هناك على بعد بضعة أمتار منه آثار لقبر داخل حويطة، محاطة بثلاثة جدران، ولم يحدثنا أحد لمن لهو.

ثم قمنا بزيارة اضريح آخر غرب قرية تارقة بحوالي 4 كلم يحمل اسم: سيدي الهواري صباح الخميس 25 ذو الحجة 1407 هـ (20 أوت 1987) ووجدناه داخل ضريح تهدم سقفه بفعل السلطات الاستعمارية خلال ثورة التحرير المباركة الأخيرة (1954 ـ 1962) على ما قال لنا أحد الرجال هناك. وأكد لنا رجل آخر في تارقة بأن هذا الوالي الصالح ليس هو الشيخ الهواري الوهراني، وإنما هو رجل آخر كان صديقاً وتلميذاً للشيخ بختي بن عياد دفين قرية سيدي بختي ببلاد غمرة شمال قرية حمو بوتليليس، كما أكد لنا بأن بني تالة يوجدون بين قرية زفيزف، وحمام بوحجر قرب سيدي بلعباس، وأن سيدي شافع يوجد قرب قرية عين البيضاء بجوار حاسي الغلة على طريق حمام بوحجر. وأكد الآغا المزاري في كتابه: طلوع سعد السعود بأن الهواري مدفون بوهران، وكل الروايات الأخرى باطلة.

إن الحقيقة ضائعة بين هذه الأقوال والروايات، فالإسبان الذين احتلوا وهران ما يقرب من ثلاثة قرون حولوها إلى محتشد للجنود الإسبان وغير المرغوب في إقامتهم بإسبانيا، ولم يبقوا فيها أي أثر للمعالم العربية الإسلامية فكيف سلم قبر الشيخ الهواري، ومسجده من التخريب؟ اللهم إلا إذا بلغتهم دعوته عليها باحتلالهم لها، وعندما تحقق لهم ذلك كرموه بالإبقاء على قبره وضريحه ومسجده. ولو أن هذه الرواية مشكوك في صحتها. لأنه مهما بلغ غضب الشيخ الهواري على سكانها فلا يقعل أن يرضى أن يحتلها النصارى المسيحيون الكفار، وهو رجل مربي وعالم وولي صالح متصوف، وإلا فلا معنى لعلمه، وتدينه، وتصوفه، وتزعمه لعلماء عصره.

والروايات العديدة المتواترة عن دفنه بوهران يصعب تكذيبها خاصة وأنه عاش بها، وشهرت به، ونقل ذلك تلاميذه وعلى رأسهم الشيخ إبراهيم التازي

وآخرون. ومع ذلك فالرأي الذي أورده ديديي جدير بالدراسة والبحث والتدقيق والله أعلم في الأخير بحقيقة الأمر.

وقد أورد ديديي ملحقاً خاصاً في كتابه المشار إليه آنفاً، يحتوي على أكثر من ثلاثين رسالة بين طويلة وقصيرة، تتضمن الأوقاف التي حبست على ضريح الشيخ الهواري ومسجده والكيفية التي ينبغي اتباعها لصرف مواردها المالية بعض هذه الرسائل لباشوات الجزائر، والبعض لبايات بايليك الغرب الوهراني، والبعض لأشخاص آخرين أثرياء، أو لهم قرباة بعائلة الشيخ الهواري، وتواريخ هذه الرسائل متنوعة بعضها في القرن 18 م والبعض في القرن 19 م.

ومما ينبغي تسجيله هنا هو أن الشيخ الهواري رغم مركزه العلمي والديني فإن ثقافته العربية ضعيفة فهو ينظم الشعر بالدارجة ويكتب كذلك بالدارجة وهو ما أدى بتلميذه عبد الرحمن مقلاش إلى إصلاح أخطائه في كتابه: السهو والتنبيه، ولكنه رفض ذلك وأصر على إبقائه لغته الدارجة على ما كانت عليه، ونهر تلميذه كما سبق أن ذكرنا، ورد عليه إصلاحاته[1].

---

(1) من جملة من ترجم للشيخ الهواري: محمد بن يوسف الزياني في دليل الحيوان. والآغا المزاري. في طلوع سعد السعود. وأبو راس الناصر في رحلته، وابن مريم في البستان، والحفناوي في تعريف الخلف، ودلبيش في المجلة الإفريقية (1884). وبارجيس في كمبليمانت: Complement، وديستيف في المجلة الآسيوية. وديدي في كتابه: وهران. وجان كازناف في مجلة جمعية الجغرافية والآثار لمدينة وهران (1926 م)، وابن صعد التلمساني في كتابه النجم الثاقب. وكتابه روضة النسرين وهو تحت الطبع في دار الغرب الإسلامي. وابن سحنون في الثغر الجماني، وآخرون.

الشيخ إبراهيم التازي

(توفي يوم 9 شعبان 866 هـ ـ 9 ماي 1962 م)

من مواليد مدينة تازة بالمغرب الأقصى، ومن قبيلة بني لنت البربرية، ولم تتحدث المصادر التي ترجمت له على تاريخ ميلاده.. والغالب أنه كان في أواخر القرن الثامن الهجري. أوكله أبوه إلى الشيخ أبي زكرياء يحيى الوازعي الذي اعتنى به كثيراً، وحفظه القرآن الكريم ورعاه تمام الرعاية. ومن تازة انتقل إلى مدينة تلمسان وتتلمذ على الشيخ محمد بن مرزوق الحفيد الذي أجازه. ثم انتقل إلى وهران وتعرف على الشيخ محمد بن عمر الهواري، ووثق صلاته به، ومنها رحل إلى تونس وتتلمذ على الشيخ أبي القاسم عبد العزيز العبدوسي. ثم شد الرحال من هناك إلى الحجاز لأداء فريضة الحج عبر ليبيا ومصر، وفي مدينة مكة المكرمة أخذ على الشيخ القاضي تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الحسني الفاسي، علم الحديث، والرقائق، وأجازه عام 830 هـ (1427 م)، وعندما انتقل إلى المدينة المنورة أخذ على جماعة من العلماء بينهم الإمام أبو الفتح ابن أبي بكر القرشي في نفس العام والذي تلاه.

أتقن الشيخ إبراهيم التازي علوم القرآن، والحديث، واللغة وقواعدها، والأصول، والمنطق، كما أتقن تجويد القرآن الكريم بصوت جميل حتى أصبح يضرب به المثل وينصب إليه الجميع عندما يتلوه ويجوده. واشتهر بنظم الشعر في الزهد والتصوف، وكان له كناش كبير من الأشعار متداول في الحجاز، ولبس الخرقة الصوفية على الشيخين: شرف الدين المراغي، وصالح بن محمد الزواوي، ثم على الشيخ محمد بن عمر الهواري عندما عاد إلى وهران.

ومن المشرق عاد الشيخ التازي إلى مدينة تلمسان بعد أن أدى فريضة الحج، واستقر بها بعض الوقت، وأخذ على جماعة من علمائها أمثال الحافظ التنسي، والإمام السنوسي وعلي التالوتي. ثم تصدى للتدريس، وتتلمذ عليه الشيخ أحمد زروق الذي أجازه عام 832 هـ (1429 م).

ومن تلمسان انتقل إلى وهران، واستقر بها إلى جانب شيخه محمد بن عمر الهواري، ولازمه طيلة حياته، واتخذ لنفسه زاوية خاصة بأمر منه ونشط في التعليم والوعظ والإرشاد وتلقين الأذكار، وتحدث عنه الرحالة القلصادي في فهرسته وذكر أنه اجتمع به في وهران، وعندما توفي شيخه الهواري عام 843 هـ (1439 م) خلفه في مشيخته ونشاطه العلمي والتربوي.

ومن الأعمال الكبرى التي أنجزها إدخال الماء إلى مدينة وهران من منابعه البعيدة عنها، بعد أن اتفق مع أثريائها على تقديم الأموال اللازمة لذلك. وجرى احتفال كبير بذلك الحدث الذي خفف على الناس عناء الإتيان به من منابعه البعيدة خاصة النساء اللاتي كن يقضين ساعات طويلة من اليوم لإحضاره على ظهورهن في القرب.

توفي الشيخ إبراهيم التازي يوم 9 شعبان عام 866 هـ (9 ماي 1462 م) ودفن قرب ضريح شيخه الهواري لمدة خمسين عاماً، وعندما احتل الإسبان مدينة وهران، واتخذوا قبره شبه مخمرة، استنكر ذلك تلاميذته، ونقلوه سراً إلى قلعة هوارة التي تعرف اليوم بقلعة بني راشد، ودفنوه هناك وبنوا عليه قبة وضريحاً ما يزالان حتى اليوم مزارين خاصة بالنسبة للعنصر النسوي، وذكر الآغا المزاري في كتابه طلوع سعد السعود، بأن محل قبره بوهران كان ما يزال محاطاً بحويطة يتبرك بها الناس وذلك أواخر القرن التاسع عشر. ولكن هذه الحويطة غير موجودة اليوم.

إن الشيخ إبراهيم التازي ذو ثقافة متينة، وله شعر غزيرٌ في أغراض شتى خاصة الزهد، والتصوف، وذم الدنيا، نورد فيما يلي نماذج عديدة ومتنوعة منها:

قال في ذم الدنيا وزخرفها:

أمــا آن ارعــواؤكَ عَــنْ شنــارِ ... كفي بالشَّيبِ زجراً عن عُوارِ
أبعــدَ الأربعيــنَ تــرومُ هــزلاً ... وهَــلْ بعْــدَ العَشيَّــةِ مــن عَـرَارِ
فخلِّ حُظوظَ نفسِكَ والهُ عنها ... وعَــنْ ذِكـرِ المنَــازلِ والـدِّيـارِ
وعَـدِّ عـن الـرَّبـابِ وعَـنْ سُعـادٍ ... وزينــبَ والمعــارفِ والعُقــارِ
فمـا الـدُّنيـا وزخـرُفُهـا بشـيءٍ ... ومــا أيَّــامُهــا إلاَّ عــواري
وليـسَ بعــاقـلٍ مَـنْ يَصطفِيهـا ... أتشـري الفـوزَ وَيْحـكَ بـالتَّبـارِ
فتُبْ واخلَعْ عِذارَكَ في هوى مَنْ ... لــهُ دارُ النَّعيــمِ ودارُ نــارِ
جمــالُ اللهِ أكمــلُ كــلِّ حُسْــنٍ ... فللَّــهِ الكمــالُ ولا مُمــارِي
وحــبُّ اللهِ أشــرفُ كــلِّ انــسٍ ... فــلا تنـسَ التَّخلُّـقَ بـالـوقـارِ
وذكـرُ اللهِ مَـرْهَـمُ كـلِّ جُـرحٍ ... وأنفــعُ مِــنْ زُلالٍ لـــلأُوارِ
ولا مــوجــودَ إلاَّ اللهُ حقَّــاً ... فـدَعْ عَنْـكَ التَّعلُّـقَ بـالشَّنـارِ

وله من قصيدة أخرى في ذم الدنيا كذلك:

يا صاحِ من رزقَ التُّقى وقلَى الدُّنا ... نالَ الكرامةَ والسَّعادةَ والغِنى
فاصرِفْ هوى دُنياكَ واصرِمْ حبلَها دارَ البـلايـا والـرَّزايـا والعَنَـا
ووِدادُهـا رأسُ الخطـايـا كلِّهـا ... ملعونةٌ طُوبى لِمَنْ عنها انثَنَى
لا تَغتـرِرْ بغُـرُورِهـا فمتـاعُهـا ... عَـرَضٌ مُعَـدٌّ للـزَّوالِ وللفَنَـا
لَعِـبٌ، ولَهْـوٌ، زينَـةٌ، وتفـاخُـرٌ ... لا تخدعَنْكَ جنانها مُرُّ الجَنَا
خــدَّاعــةٌ، غــدَّارةٌ، نكَّــارةٌ ... مـا بلَّغَـتْ لخليلِهـا قـطُّ المُنَـى
اليومَ عندَكَ جاهُهَا وحُطامُهَا ... وغـداً تـراهُ بكـفِّ غيـركَ مُقتَنـى
فاقبَلْ نصيحةَ مُخلصٍ واعمَلْ بها ... تُدنيكَ من رِضوانِ ربِّكَ ذي الغنى
يـدخِلْـكَ جنَّـاتِ النَّعيـمِ بفضلِـهِ ... دارَ المُقَـامَـةِ والمسـرَّةِ والهَنَـا

وله أيضاً من أخرى في ترتيب الوظيفة سماها الحسام:

حُسامي ومنهاجي القويمُ وشِرْعتي ... ومنجاي في الدَّارينِ مِنْ كلِّ فتنةِ

محبَّــةُ ربِّ العــالميــنَ وذكــرُهُ ... على كلِّ أحياني بقلبي ولهجتي

وأجـلُ أعمـالِ الفتـى ذكـرُ ربِّـهِ ... فكُنْ ذاكراً يذكُرْكَ باري البريَّةِ

وما مِنْ حُسامٍ للمريدينَ غيرُهُ ... وكَمْ حسموا ظهراً لزارٍ وباهتِ

وكم بدَّدوا شملاً لدى جُرأةٍ وكَمْ ... أبـادوا عــدوّاً مسَّهُــمْ بمضــرَّةِ

وكَمْ دافعَ اللهُ الكريمُ بذكرِهم ... عَنْ الخلقِ من مكروهةٍ ومُبيرةِ

وأفضلُ ذِكْرٍ دعوةُ الحيِّ فلتَكُنْ ... بها لَهِجَاً في كلِّ وقتٍ وحالةِ

فكثـرةُ ذِكْـرِ الشَّــيءِ آيـةُ حبِّـهِ ... وحسبُ الفتى تشريفُهُ بالمحبَّةِ

وله أيضاً من أخرى رحمه الله في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام:

وخيرةُ الخَلْقِ مَنْ مِنْ أجلهِ خُلقوا ... محمدٌ خيرُ محمودٍ ومَنْ حَمِدَا

مَنْ خصَّه بلواءِ الحمدِ حامِدُه ... وبالمقامِ القياميِّ الذي حُمدا

ويومَ حَشْرِ الورى للفضلِ يُرشِدُهُ ... إلى محامدَ لم يُرشد لها أحدا

وكثـرةُ الحمـدِ مِـنْ أوصـافِ أمَّتِـهِ ... في اليُسرِ والعُسرِ في الكُتْبِ العُلا وجِدَا

صلَّى الحميدُ على المحمودِ أحمدَ ما ... بالحمدِ أفصحَ حمَّادٌ وما سَجَدا

للهِ عبـدٌ شكـورٌ حـامـدٌ وعلـى ... قُرباه والصَّحبِ أعلا الأمَّةِ الحَمْدَا

وله أيضاً من أخرى في الحب والهوى:

أبَتْ مُهجتي إلاَّ الولوعَ بمَنْ تَهوى ... فدَعْ عنكَ لومي والنفوس وما تَقوى

هوانُ الهوى عزٌّ، وعذبٌ أُجاجُهُ ... وعلقَمُه أحلا من المَنِّ والسَّلوى

وتعــذيبُهُ للصَّـــبِّ عينُ نعيـــمِهِ ... وسعيُ اللواحي في السَّليِّ مِنَ العدوى

ومَنْ لم يَجُدْ بالنَّفسِ في حُبِّ حِبِّهِ ... فلـوعَتُـهُ إفْـكٌ وصَبْـوتُـهُ دَعْـوى

وليـسَ بحـرٌّ مَـنْ تعبَّـدَهُ الهـوى ... للهو الدُّنا، فاخترْ لنفسِكَ ما تهْوى

فما الحُبُّ إلاّ حُبُّ ذي الطَّوْلِ والغِنى　　وأملاكه والأنبيا وأولي التَّقوى

وخِيرَةِ رُسْلِ اللهِ أفضلِ خَلْقِهِ　　مُحمدٍ الهادي إلى جَنَّةِ المَأْوَى

وله أيضاً من أخرى:

روحي وراحةُ رُوحي ثم رَيحاني　　وجنَّتي مِنْ سرور الإنسِ والجانِ

ومَأْمَني وأماني مِنْ سعيرِ لَظَىً　　ذكرُ المهَيْمِنِ في سرٍّ وإعلانِ

ومَدْحُ أحمدَ أحمى العالمينَ حِمَىً　　وذُو المقامِ الذي ما قامَهُ ثاني

إلى أن قال:

هذا السِّراجُ هو المُنجي لِمُعتصمٍ　　هذا المَعاذُ ومَلْجَا الخائِفِ الجاني

يا رحمةَ اللهِ إنِّي خائِفٌ وجِلٌ　　يا نعمةَ اللهِ إنِّي مُفلِسٌ عاني

وله قصيدة في نصح المسلمين حذر فيها من أشياء ورغب في أشياء سماها بالنصح التام للخاص والعام أولها:

إن شئت عيشاً هنيئاً واتباع هدى　　فاسمع مقالي وكن بالله معتضدا

وتسمى بالدالية وقد علق عليها شرحاً صاحب البستان.

وله قصيدة أخرى أخرجها في الشوق إلى بيت الله الحرام أولها:

ما حال من فارق ذاك الجمال　　وذاق طعم الهجر بعد الوصال

وله قصيدة أيضاً تقرأ مع وظيفته التي جمعها في الأذكار تقرأ في كل وقت من ليل أو نهار أولها:

مرادي من المولى وغاية أمالي　　دوام الرضى والعفو عن سوء أعمالي

وتسمى باللامية، كما تسمى بالمرادية وشرحها محمد الصباغ القلعي في القرن العاشر الهجري (16 م) وسمى شرحه عليها: «شفاء الغليل والفؤادي في شرح النظم الشهر بالمرادي». كما شرحها أيضاً ابن مريم صاحب كتاب البستان بعد ذلك ومنها جزء من أولها:

قصيدة المرادية للشيخ إبراهيم التازي

مـرادي فـي المـولـى وغـايـة آمالي ... دوام الرضى والعفو عن سوى أحوالي

وتنــويــر قلبـي بـانســلال سخيـة ... به أخلدتني عن ذوي الخلق العالي

وإسقاط تدبيري وحولي وقوتي ... وصدقي في الأحوال والفعل والقال

وفي حبه وحب صفوته الرضى ... مــلائكــة وأنبيــاء وأرســال

وحب النبي الهاشمي محمد ... وأصحابه الغر الأفاضل والآل

وحب رجال خالفوا النفس والهوى ... وخافوا مقام الواحد الصمد العالي

رجـال كـرام في النفوس تنـافسـوا ... شروا عارض اللذات بالغابر الغالي

فليس لهم في غير حب إلههم ... غرام ولا في كسب جاه ولا مال

رجال كرام قوتهم ذكر ربهم ... قياماً قعوداً في صدور وإقبال

وشيمتهم ترك المطامع في الورى ... فليس لمخلوق عليهم من أفضال

على الصبر والإيثار راضوا نفوسهم ... فكلهـم نـدب وحـالـم أثقـال

صدورهم من كل ضغن سليمة ... كرام السجايا أهل سمح وإجمال

هم القوم لا يشقى جليسهم بهم ... يحـق لمـن ولاّهـم جـرّ أذيـال

فمذهبهم قتل النفوس ومحوها ... فمن مات قبل الموت ليس بمقتل

وكـل جبـار قـلّ أن يبلـغ المنى ... وما عملوا في فوزهم مثل بطال

وكل بشهبل فهو وعنهم بمعزل ... فما يعبأ الرب الكريم ببخال

وغنـم مـريـد بـانقيـاد لكـامـل ... له خبرة بالوقت والعلم والحال

هو السر والإكسير والكيميا لمن ... أراد وصـولاً أو بقـا قيـد آمـال

وقد عدم الناس الشيوخ بقطرنا ... وآخرهم شيخي ومعظم إجلالي

وقد قال لي لم يبق شيخ بغربنا ... وذا منـذ أعـوام خلـون وأحـوال

يشيـر إلـى أهـل الكمـال كمثلـه ... عليه من الله الرضى ما تلا تال

ونص على حب التشبه شهمهم ... أبو مدين الغوث المعاصر والتالي

وقـد قـال حـب الأوليـاء ولايـة ... ولـي الإلـه الشـاذلـي ابـن بطـال

سليل شفيع الخلق يوم انبعاثهم ... ومنقذهم من موبقات وأهوال

وقصيدة أخرى في مدح النبي ﷺ أولها:

بإحسان ذي الطول أهل الكرم ... له الحمد جداً يوافي النعم

وقصيدة أخرى في الحجيج بلغنا الله ذلك المقام الشريف أولها:

ألفت هواك على قدم ... يسير إليك على القدم

وهي على حروف الهجاء من الألف إلى الياء وقصيدة أخرى أولها:

رويدكم فما سمعي بقابل ... لغي لاغ ولا يصغي لعاقل

وله قصيدة مشهورة بالزيارة أولها:

زيارة أرباب التقى مرهم يبري ... ومفتاح أبواب الهداية والخير

وزاد كاتب هذه النسخة تمام القصيدة وهي(1):

وتحدث في القلب الخلي إرادة ... وتشرح صدراً ضاق من سعة الوزر

وتنصر مظلوماً وترفع خاملاً ... وتكسب معدوماً وتجبر ذا كسر

وتبسط مقبوضاً وتضحك باكياً ... وترفع بالبر الجزيل وبالأجر

عليك بها فالقوم باحوا بسرها ... وأوصوا بها يا صاح في السر والجهر

فكم خلصت من لجة الإثم فانيا ... فألقته في بحر الإنابة والسر

وكم من بعيد قربته بجذبة ... تفاجأه الفتح المبين من البر

وكم من مريد طفرته بمرشد ... حكيم خبير بالبلاء وما يبرى

فألقت عليه حلة يمنية ... مطرزة باليمن والفتح والنصر

فزر وتأدب بعد تصحيح توبة ... تأدب مملوك مع الملك الحر

ولا فرق في أحكامها بين سالك ... مرب ومجذوب وحي وذي قبر

وذي الزهد والعباد فالكل منهم ... عليه ولكن ليست الشمس كالبدر

وزورة رسل الله خير زيارة ... لهم درجات في المكانة والقدر

وأحمد خير العالمين وخير من ... يأمه عارفون في العسر واليسر

وأمته أصحابه الغر خيرهم ... وأفضل أصحاب النبي أبو بكر

ويتلوه فاروق أبو حفص الرضى ... على رأي أهل السنة الشهب الزهر

(1) لا توجد هذه الزيادة إلا في نسخة السيد واليام مارصي والتعليق لصاحب البستان.

وبالوقف قالوا في الهزير أخى العلا علي وعثمان الشهير أبي عمرو

وقالوا كترتيب الخلافة فضلهم وقد تم نظمي في المزور وفي الزور

علـى أنبيـاء الله منـي ورسلـه أحيهـم أزكـى بـلام عـد الـدر

وقرباه والصحب الكريم وتابع لهم في التقى والبر والبصر والشكر

وذكر لي بعضهم أن له مولديات وإنشادات لا تحصى ولم أقف عليها انتهى من المواهب القدسية في المناقب السنوسية للملالي انتهى[1].

(1) من ضمن من ترجم للشيخ التازي: ابن مريم في البستان، أحمد بن سحنون الراشدي في الثغر الجماني، وابن صعد في روضة النسرين، والنجم الثاقب. والحفناوي في تعريف الخلف، وديديي في وهران. والمزاري في طلوع سعد السعود، وآخرون.

تراجم بعض علماء معسكر ومنطقتها

أعلام الفكر والثقافة في سهل غريس
ومدينة معسكر

تعتبر مدينة معسكر إحدى قلاع العلم والثقافة، والجهاد في الجزائر، وشيدت في المنطقة التي تدعى بالوطن الراشدي على الحافة الشمالية الغربية لسهل غريس الكبير الذي يحد شرقاً بجبل المناور، وغرباً بجبل كرسوط وشمالاً بقلعة بني راشد، التي كانت تعرف سابقاً بقلعة هوارة، وجنوباً بواد البنيان.

وقد اختلف الرواة في تأريخ تأسيسها: فصاحب روضات الأزهار قال: إنها أسست في القرن الثاني الهجري (8 م) على أيدي راشد بن المرشد القرشي الذي جاء مع إدريس الأكبر، وأخيه سليمان، عندما فروا من المشرق ورحل معهما إلى المغرب الأقصى. وشارح منظومة: بغية الطالب في ذكر الكواكب قال: إنها أسست خلال القرن السابع الهجري (13 م)، على عهد بني زيان أمراء تلمسان. وذلك عندما اتخذ ياغمراسن قبائل الحشم جنوداً له في جيشه وسماهم: الحشم واتخذهم قوة عسكرية فاصلة بينه وبين بني توجين أمراء تيهرت، واختط لهم مدينة لتكون قاعدة عسكرية لهم، وسموها معسكر، وهي أقرب الروايتين إلى الحقيقة.

وبمرور الزمن نمت هذه المدينة وكبرت حتى أصبحت عاصمة لبايليك

الغرب الوهراني في مطلع القرنين 12 هـ و18 م. واتخذها البايات مقراً لحكمهم وأنشأوا بها القلع، والحصون، وشيدوا المدارس العلمية، والمساجد الجامعة، والحمامات، والفنادق، والتكايا، وزاد في أهميتها سهل غريس الخصب، والواسع، الذي يشتمل على أكثر من مائة قرية، وما لا يحصى من الحقول والمزارع والآبار، والأشجار المثمرة، والخضروات، والحبوب، ومن الأبقار الحلوبة، والخيول، والأغنام. ويسكنه ويعمره منذ القديم بنو زروال، وبنو توجين، والمغراويون، وهوارة، وغيرها من القبائل البربرية، والعربية، ذات الحسب والنسب، والشرف، المحبة للعلم، والثقافة، والمتفانية في النضال والجهاد.

وبسبب استقرار البايات الأتراك بهذه المدينة، واتخاذها مقراً لحكم بايليك الغرب الوهراني ابتداء من عهد الباي مصطفى بن يوسف بو شلاغم عام 1701 م. استقطبت هذه المدينة والوطن الراشدي على العموم، عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء. وقادة الجهاد، وكبار المقاومين ضدّ الاحتلال الإسباني لوهران، وبرز بها كتاب، وشعراء، وأئمة في التشريع، ومحدثون، وأدباء، سخروا كل إمكاناتهم الفكرية للحث على الجهاد، من أجل تخليص مدينة وهران، والمرسى الكبير، من الاحتلال الإسباني، وردع المغيرين المعتدين، ولم يتوقفوا حتى تحقق لهم حلمهم الأكبر بعدما يقرب من ثلاثة قرون، وهي فترة طويلة جداً، وصعبة وقاسية حصلت خلالها أحداث جسام، وعانى السكان ما لا يحصى من المشاكل والصعوبات والعراقيل، وألف المثقفون ما عرف بجيش الطلبة الذي كان له الدور الحاسم في تحرير المدينة عام 1792 م.

الزوايا والمعاهد بمنطقة معسكر

أنجبت مدينة معسكر، وسهل غريس، والوطن الراشدي علماء أجلاء وفقهاء ومحدثين، ومقرئين، ومؤرخين، وكتاب السير، والشعراء والرحالة وبرزت عائلات بحالها توارثت العلم، والوظائف العلمية كالقضاء، والإفتاء، والإمامة، والخطابة، والتدريس، ومن ضمنها: عائلة الخروبي، وعائلة

المشارف، وعائلة بن بروكش، وعائلة أبي رأس الناصر، وعائلة ابن التهامي، وعائلة الشيخ مصطفى وابنه محيي الدين المختاري، وعائلة الشرفاء البشيريين بالوادي المبطوح قرب سيق.

واهتمت هذه العائلات بتأسيس الزوايا، ومعاهد العلم والمدارس، للتعليم، والتدريس، والإقراء، والإفتاء، وذكر الشيخ الطيب بن المختار الغريسي في كتابه: «القول الأعم، في بيان أنساب قبائل الحشم». بأن الأشراف والأعيان، بغريس، كان لهم اعتناء كبير بالدين، وتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم العلوم الأخرى اللغوية والفقهية، والأدبية، والعقلية الصوفية، وكذلك الرياضيات والفلك، ولهذا كان كل واحد منهم يؤسس لنفسه زاوية لطلبة العلم، ويوظف بها أجلة العلماء، والمدرسين، ليقصدها الطلبة من كل الآفاق.

وعلى هذا كان في الوطن الراشدي من العلماء، والصلحاء، ما لا يعلمه إلا الله حتى قيل إن كل دومة في غريس بولي صالح، وكثرت الرحلة إليه (غريس) وإلى معسكر، لطلب العلم والمعرفة خلال القرون الهجرية الثلاثة: 11 و12 و13 (17 و18 و19 م) وبرزت عدة زوايا، ومدارس، ومعاهد علمية، ودينية منها:

1) زاوية الشيخ محمد السليماني.
2) زاوية الشيخ عبدالله بن عبد الرزاق الإدريسي.
3) زاوية الشيخ محمد المشرفي الإدريسي شيخ الرماسي.
4) زاوية الشيخ عبد القادر بن المختار الإدريسي.
5) زاوية الشيخ الخضير الصنهاجي الإدريسي.
6) زاوية الشيخ محمد بن الأعرج السليماني.
7) زاوية الشيخ محي الدين بن مصطفى الإدريسي.
8) زاوية الشيخ عبد الرحمن المحمودي الإدريسي المدعو دحّو.
9) زاوية الشيخ سحنون بن أحمد الحسني مدرس المدونة.
10) زاوية حفيده الشيخ الهاشمي بن بوشنتوف.

بعض النماذج من علماء معسكر، والبرج، والقلعة

كان لعلماء ومثقفي معسكر، وسهل غريس، والبرج، وقلعة بني راشد دور رائد في النهضة الفكرية والثقافية، وحركة التأليف، والتدريس، والقضاء، والإفتاء، والوعظ والإرشاد الديني، والثقافي، والاجتماعي، وفي حركة الجهاد ضد النصارى الإسبان في وهران والمرسى الكبير، وضد الفرنسيين بعد ذلك.

ومما يلفت النظر، ويثلج الصدر، ويدعو إلى الفخر والاعتزاز، إن موضوع الجهاد ضد النصارى الإسبان كان يمثل القضية رقم واحد من اهتمامات هؤلاء العلماء والمثقفين، فشاركوا بأنفسهم في حركة الجهاد أفراداً وجماعات وخاضوا المعارك وألفوا الكتب، ونظموا الأشعار، لإلهاب حماس الناس، وحفزهم للمقاومة فكانوا من أكبر المحرضين لهم وللبايات والقواد، والأغوات، والخلفاء، وكونوا رباطاً لهم قرب وهران دعي برباط الطلبة يقيمون به ويشنون الحروب على المحتلين الإسبان. ومن هؤلاء:

أولاً: الشيخ أبو مهدي عيسى بن موسى التوجيني، من بني توجين إحدى بطون زناتة الكبيرة، القاطنين بجبال الونشريس، وهم شعبة من راشد سكان جبال الأطلس التيطراوي. وكانت لهم إمارة بتيهرت على عهد بني زيان. ومن أمرائهم محمد بن عطية التوجيني الذي ساعد السلطان المريني أبا سالم على غزو تلمسان واحتلالها. وقد تفقه أبو مهدي عيسى على العالم الكبير، وشيخ الجماعة بفاس أحمد بن غازي، وعلى تلميذه عبدالله بن عبد الرزاق الغريسي، وعدد آخر من علماء الراشدية، ونظم رجزاً في علماء عصر سماه: «بغية الطالب في ذكر الكواكب». وقد توفي أبو مهدي عيسى بغريس عام 962 هـ (1554 ـ 1555 م) وقام بعده العلامة محمد بن الأعرج الأغريسي صاحب كتاب: «اللسان المعرب عن تهافت المعمرين حول المغرب» قام بشرح منظومة بغية الطالب، وسمي شرحه عليها «تسهيل المطالب لبغية الطالب» ونشره الشيخ المفتي بلهاشمي بن بكار ضمن كتابه: النسب والحسب. وتوفي الشيخ ابن

الأعرج بفاس عام 1340 هـ (1921 ـ 1922 م) وكلا الرجلين لهما دور مؤثر في الحياة الفكرية والثقافية بهذه المنطقة.

ثانياً: علماء أسرة المشارف التي تنتسب إلى مشرف (بكسر الراء وفتحها) ابن عبد الرحمن بن مسعود الذي قدم من بوصمغون، وتولى القضاء بغريس لبعض أمراء بني زيان، ويتصل نسبهم بالشرفاء العرصيين في فيقيف بقصر وادي ريغ وجدهم الأعلى هو مشرف ابن غريب الذي ينتهي نسبه إلى إدريس الأكبر كما في شرح عقد الجمان النفيس. ولعبت هذه الأسرة دوراً هاماً في حياة المنطقة ثقافة وجهاداً. وقال صاحب القول الأعم عنها: «ولم تتعد الرئاسة فيما علمناه دار الشيخ المشرفي وأولاده. فإنهم الذين كانوا معتبرين عند الملوك الأتراك وكانت لهم ولاية في خطة الشريعة (خطة القضاء) أيام الأتراك، وأيام ابن عمنا الأمير».

ومن أشهر علماء هذه الأسرة:

أ ـ الشيخ عبد القادر بن عبدالله المشرفي الذي كان يدعى: شيخ الجماعة وإمام الراشدية، ولد ونشأ في قرية الكرط قرب معسكر، وتثقف في المنطقة على علماء عصره ثم عين مدرساً بمعهد الشيخ محي الدين في زاوية القيطنة بوادي الحمام مدة من الزمن. وبعد ذلك أسس لنفسه زاوية ومعهداً علمياً في مسقط رأسه الكرط. وشارك في مقاومة النصارى الإسبان بوهران. وألف رسالة شهر فيها وندد بالقبائل التي تعاونت معهم سماها: «بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين من الأعراب كبني عامر» وعدد من تلك القبائل الثمانية وهي: كريشتل وشافع، وحميان، وغمرة، وقيزة، وأولاد عبدالله، وأولاد علي، والونازرة، وأنهى هذه الرسالة عام 1178 هـ (1764 ـ 1765 م) واشترك بنفسه في الهجوم على وهران وتحريرها التحرير الأول عام 1119 هـ (1708 م) بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم.

وتوفي بمسقط رأسه الكرط يوم الخميس 10 رمضان 1122 هـ (2 أكتوبر 1178 م) ولخص مارسيل بودان هذه الرسالة ونشرها في المجلة الإفريقية عام

1924 م وعرف بهذا التلخيص الضابط بيليكا: Pelecat في مجلة جمعية الجغرافية والآثار لمدينة وهران في نفس العام. وحققها ونشرها الأستاذ محمد بن عبد الكريم في دار الحياة بلبنان ـ بيروت عام 1972 م.

ب ـ ابنه القاضي الطاهر المشرفي الذي تولى القضاء للأتراك وله عدة مؤلفات ولا نعرف عنه حالياً غير هذا. وكان ابنه أحمد بن الطاهر المشرفي عضواً في مجلس الشورى العالي الأميري للأمير عبد القادر.

جـ ـ حفيده محمد بن عبدالله مصطفى سقاط المشرفي الذي كان إماماً في الفقه والحديث، وتولى وظيفة القضاء للأتراك، ووقع على وثيقة مبايعة الأمير عبد القادر أميراً للجهاد، وولاه الأمير خطة القضاء، وعينه عضواً كذلك في مجلس الشورى العالي الأميري، وأرسله في مهمة ديبلوماسية إلى سلطان المغرب الأقصى عبد الرحمن بن هشام، وحمله سؤالاً إلى مفتي فاس الشيخ التسولي حول موقف الشرع الإسلامي من المتعاونين مع الكفار الأعداء. فسافر يوم 19 ذو الحجة ١٢٥٢ هـ (27 مارس 1837 م) وعاد بالجواب في ربيع الأول 1253 هـ (جوان جويلية 1837 م) واجتمع بالأمير في حصن تازة بين بوغار وثنية الحد جنوب شرف مليانة، حسب رواية الأمير محمد في كتابه تحفة الجزائر جـ 2 ص 206 ـ 208. وأبلغه رغبة السلطان المغربي في إلغاء معاهدة تافنة والعودة إلى الجهاد والمقاومة. أما الشيخ المهدي البوعبدللي فقد ذكر في تعليق له بدليل الحيران بأن عبدالله سقاط مات مسموماً بمكناس ودفن بها، ولعله اختلط عليه الأمر بالبوحميدي الولهاصي الذي قتل مسموماً من طرف السلطان المغربي الذي ذهب إليه مرسولاً من طرف الأمير.

د ـ الحاج عبد القادر بن مصطفى المشرفي ابن عم الأخيرين وقد توفي بمصر عام 1269 هـ (1852 ـ 1853 م) حسب رواية إسماعيل بن عودة المزاري في كتابه طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود. ولا نعرف عنه حالياً غير هذا.

هـ ـ أبو حامد العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي ولد بغريس وتثقف

على علماء عصره حتى أصبح كاتباً، وشاعراً، ثم هاجر إلى فاس بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، ووثق صلاته بسلاطين المغرب الأقصى خاصة الحسن الأول الذي كان يصحبه معه في جولاته التفقدية والتأديبية ولذلك خصه بديوان شعر في مدحه. وقد ألّف عدة كتب ودواوين شعرية، ونقد بأسلوب جارح علماء فاس مما يدل على اعتداده بنفسه. وزار الجزائر مرتين: الأولى عام 1848 ـ 1849 م والثانية عام 1877 خلال ذهابه إلى الحج. فكتب عن الجزائر وعلمائها، والمحتلين الفرنسيين، وأحصى له الأستاذ سعدالله ما يقرب من 28 مخطوطة بين طويلة وقصيرة في الشعر والنثر منها: كتاب: ذخيرة الأواخر والأوائل فيما ينتظم من أخبار الدول، ويبدو أنه كان معارضاً ومعادياً للأمير عبد القادر ولذلك ألّف عنه كتاباً أسماه: طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار في عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار. توفي الشيخ العربي المشرفي عام 1311 هـ (1893 م) وقيل عام 1313 هـ (1895 م).

ثالثاً: الشيخ محمد المصطفى بن عبدالله بن زرفة الدحاوي من شرفاء غريس، وكان كاتباً للباي محمد بن عثمان، ومساعداً لرئيس رباط إيفري للطلبة قرب وهران وشارك بنفسه في الهجوم الشامل، وتحرير مدينة وهران التحرير الثاني والنهائي عام 1792 م، فكلفه الباي بجمع الحوادث عن هذا الفتح وتسجيلها أول بأول فجمعها في كتاب سماه: «الرحلة القمرية في السيرة المحمدية» وأنهاه عام الفتح نفسه 1206 هـ (1792 م) وكان من ضمن تلاميذ الشيخ العلامة الحافظ أبي راس الناصر المعسكري، وقد لخص هوداس هذه الرحلة القمرية وقدمها في بحث لمؤتمر المستشرقين بالجزائر عام 1905 ونشر هذا البحث في وقائع المستشرقين. ولابن زرفة كتاب آخر سماه: «الاكتفاء في حكم جوائز الأمراء، والخلفاء» لخصه إرسنت ميرسيي، ونشره في مجلة رُكوُّيْ القسنطينية عام 1889 م، وموضوعه صحة منح الأمراء والخلفاء أراضي للناس من أجل تعميرها، بعد تحرير وهران، عين ابن زرفة قاضياً بها حتى توفي بوباء الطاعون عام 1215 هـ (1800 ـ 1801 م).

رابعاً: الشيخ أبو راس الناصر المعسكري

وإنتاجه الفكري والأدبي[1]

الشيخ محمد بن أحمد بن عبد القادر الراشدي المعروف بأبي راس الناصر، ولد عام 1150 هـ (1737 م) بقلعة بني راشد قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري، وتنقل في صغره بين مسقط رأسه، ومتيجة، وتنس، والمغرب الأقصى. وحفظ القرآن الكريم واستوعب العلوم العربية الإسلامية على علماء وفقهاء عصره، وعلى رأسهم الشيخ عبد القادر المشرفي. ثم تصدى للتدريس والإفتاء في مدينة معسكر زهاء ست وثلاثين عاماً. وتولى مناصب القضاء، والإفتاء، وحج مرتين واشتهر بالحافظ لغزارة علمه، وكتب وألّف في مختلف الأغراض والفنون شعراً ونثراً، وخلف وراءه مائة وستة وثلاثين مخطوطة بين قصيرة وطويلة، بعضها موجود، والبعض مفقود ولم يطبع إلا واحدة أو اثنتان منها، وتوفي يوم 15 شعبان 1238 هـ (17 أبريل 1823 م).

وترجم له عديدون مثل:

ـ د. أبو القاسم سعدالله: «مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي أبو راس الناصري». مجلة تاريخ وحضارة المغرب. عدد 12 (الجزائر ـ 1974). ص 22 وما بعدها. وكذلك في كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، وكتابه تاريخ الجزائر الثقافي جـ 2.

ـ الشيخ عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، جـ 4، (الجزائر ـ 1982).

ـ محمد سي يوسف: دراسة مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار

---

(1) نشرنا هذه الترجمة لأبي راس الناصر مع إنتاجه الفكري في المجلة التاريخية المغربية عدد 54 ـ 55 (تونس ـ جويلية 1989) ص 245 ـ 253.

لأبي راس الناصر، مجلة الدراسات التاريخية عدد 2، (الجزائر 1986). ص 134 ـ 155 وآخرون.

وقد وقعت بين أيدينا المخطوطة التي سجل فيها قائمة إنتاجه الفكري وتحمل عنوان: «شمس معارف التكاليف في أسماء ما أنعم الله به علينا من التآليف»، وأتمها قبل وفاته بثلاثة أسابيع فقط، ومن خلال استعراضها يتضح أن أبا راس الناصر كتب وألف في ثمانية عشر علماً وفناً ومادة بعضها بغزارة والبعض بقلة وذلك على الشكل التالي:

في علم التاريخ 34 مخطوطة.
في فن الشعر وشروحه 33 مخطوطة.
في علوم القرآن 12 مخطوطة.
في الفقه 11 مخطوطة.
في التوحيد والتصوف 10 مخطوطة.
في الحديث 8 مخطوطات.
في المذاهب 7 مخطوطات.
في النحو 5 مخطوطات.
في اللغة 3 مخطوطات.
في علم الفلك 3 مخطوطات.
في الأدب 2 مخطوطات.
في الأصول 2 مخطوطات.
في الجغرافية 01 مخطوطة.
في المنطق 01 مخطوطة.
في البيان 01 مخطوطة.
في المعاني 01 مخطوطة.
في البديع 01 مخطوطة.
في العروض 01 مخطوطة.

ولأهمية هذه المخطوطة التي تحوي هذه القائمة نقدمها للقارىء الكريم ليكتشف ويطلع بنفسه على عمق ثقافة هذا الرجل، والتصاقها بمشاكل البلد والعالم الإسلامي والعربي بصفة عامة بحيث لم يترك شاردة ولا واردة لم يكتب فيها، ولم يسجل رأيه، وكان من كبار الداعين والمتحمسين لطرد الإسبان من وهران والمرسى الكبير، ووضع أكثر من خمسة كتب في الموضوع ضمن القائمة. ويبقى بعد ذلك التعرف على مدى أهمية محتوى هذا الإنتاج الغزير ولا يمكن إلا بعد الإطلاع على المخطوطات وفحصها ودراستها.

قائمة بأسماء مؤلفات الشيخ محمد أبي راس

الناصر المعسكري كما سجلها بنفسه

«بسم الله الرحمن الرحيم»[1] وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

الحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يعلم. وأفاض عليه سره إلى أن أنطقه بأنواع الحكم. وألهمه لجمع التأليف في أنواع كل علم. وأن ذلك لمن التحدث بالنعم. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد سيد العرب والعجم المبعوث لسائر الأمم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وعترته وشيعته وأمته أفضل الأمم.

أما بعد فيقول المقل القاصر محمد أبو راس الناصر. أن التشبث بمن سلف سنة لا بدعة. وأن الملاذ بهم أصل الشيء، وفرعه. وكان من سلف كالسيوطي وغيره عدد ما أنعم الله به عليه من التآليف، والتعاليق والتصانيف فاقتديت بهم في وضع ذلك، وسلكت ما لهم من تلك المسالك، فوضعت هذا المختصر الجليل، والتأليف الفاضل الجميل في ذكر أسماء ما ألفنا، من الكتب وصنفنا وسميته: «شمس معارف التكاليف، في أسماء ما أنعم الله به علينا من التآليف». وها أنا أسرد أسماءها بحسب ما رزقت من نصيب، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب:

القرآن:

1 أولهم مجمع البحرين ومطلع البدرين بالتفريد في تفسير القرآن المجيد في أربعة أسفار، في كل سفر خمسة عشر حزباً باشتهار.

2 ثم الإبريز والإكسير في التفسير. في ثلاثة أسفار.

(1) تسلمنا هذه القائمة من طرف الأستاذ طالب عبد الرحمن في وهران بعد ملتقى الفكر الإسلامي الواحد والعشرين أواخر أوت 1987 م، مع عدد من الوثائق حول الشيخ التيجاني بعين ماضي. فله منا كل الشكر والتقدير.

3 ثم الجمع بين الإطناب والإيجاز في شرح الخراز.
4 ثم إغاثة اللهفان في شرح مورد الظمآن، والتكلم مع صاحب عمدة البيان.
5 ثم السيوف القوامع في شرح الدرر اللوامع.
6 ثم إزالة الألغاز على كلام الطراز على الخراز.
7 ثم توضيح المعاني في شرح حرز الأماني، في ثلاثة أسفار.
8 ثم إعانة القدير في شرح النشر والتيسير. في ثلاثة أسفار.
9 ثم تكميل التبيان في ضبط الجواهر الحسان، في سفرين.
10 ثم تذييل الإتقان في أحكام القرآن.
11 ثم فتح المنان في ترتيب نزول القرآن.
12 ثم سرّ الرحمن في جمع القرآن. وسبب جمعه على هذا المنوال.

الحديث:

13 الآيات البينات في شرح دلائل الخيرات.
14 مفاتح الجنة وأسناها في الأحاديث التي اختلف في معناها.
15 ثم السيف المنتضى فيما رويته بأسانيد الشيخ مرتضى.
16 ثم النور الساري في شرح صحيح البخاري، في ستة أسفار.
17 ثم السيل الفسيح الجاري في شرح صحيح البخاري، في أربعة أسفار.
18 ثم مختصر المعلم في شرح مسلم. في ثلاثة أسفار.
19 ثم مناعم الشفا. في ثلاثة أسفار.
20 ثم نزهة الفضائل في شرح الشمائل.

الفقه:

21 درة عقد الحواشي على جيد شرحي الزرقاني والخراشي. في أربعة أسفار.
22 ثم الأحكام الجوازل في نبذ من النوازل.
23 ثم العقود الجوهرية في النوازل المعسكرية.
24 ثم النظم العجيب في الفروع التي قل فيها النص مع كثرة الوقوع.
25 ثم الأقوال الحليمة في نظم شروط الوليمة.
26 ثم الكوكب الدري في الرد بالجدري.

27 ثم سند ما رواه الواعون في أخبار الطاعون.
28 ثم النبذة المنيفة في ترتيب فقه الإمام أبي حنيفة.
29 ثم ذيل المدارك في ترتيب فقه الإمام مالك.
30 ثم عقد الجوهر النفيس في ترتيب فقه الإمام محمد بن إدريس.
31 ثم القول الأكمل في ترتيب فقه الإمام أحمد بن حنبل.

النحو:

32 الدرة اليتيمة التي لا يبلغ لها قيمة إلا وفيه على الماكودي على الألفية. حاشية كبرى.
33 ثم النكت الأوفية في شرح المكودي على الألفية، حاشية صغرى.
34 ثم بغية المرتاد في كلا شيء وجئت بلا زاد.
35 ثم عمدة الزاد في إعراب كلا شيء وجئت بلا زاد.
36 ثم نفي الخصاصة في إحصاء تراجم الخلاصة.

المذاهب:

37 رحمة الأمة في اختلاف الأئمة.
38 ثم تنشيف الأسماع في مسائل الإجماع.
39 ثم جزيل المواهب في اختلاف الأربعة مذاهب.
40 ثم قاضي الأوهاد في مقدمة الاجتهاد.
41 ثم الأنوار المسطعة في جمع المذاهب الأربعة.
42 ثم اللؤلؤ المنتشر في المذاهب الثماني عشر[1].

---

(1) وهم:
1 مذهب ابن عباس.
2 ومذهب ابن عمر.
3 ومذهب عائشة.
4 ومذهب عطاء.
5 ومذهب مجاهد.
6 ومذهب الشعبي.
7 ومذهب عمر بن عبد العزيز.

43 ثم فتح الوهاب في الفرق بين مقدمة العلم ومقدمة الكتاب.

التوحيد والتصوف:

44 الزهر الأكم في شرح الحكم.

45 ثم فتح الإله في التوصل إلى حكم ابن عطاء الله.

46 ثم الكتاب الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوى.

47 ثم كفاية المعتقد ونكاية المنتقد. على شرح الكبرى.

48 ثم إيضاح الغميس لشرح العقد النفيس في ذكر الأعيان من أهل غريس.

49 ثم أساس البنيان لشرح الجمان للشيخ عبد الرحمان.

50 ثم كشف النقاب ورفع الحجاب على ترتيب حروف الهجاء للسان الدولة.

51 ثم التشوف إلى مذهب التصوف.

52 ثم القول الأنفع في مناقب الأئمة الأربع.

53 ثم الفتح القدوسي في شرح كبرى السنوسي.

اللغة:

54 ضياء القابوس على كتاب القاموس.

55 ثم الضابط المختصر من الأزهري على قواعد القاموس والجوهري.

56 ثم رفع الأثمان في لغة الولائم الثمان.

---

8 ومذهب الشورى.
9 ومذهب ابن عيينة.
10 ومذهب الليث.
11 ومذهب ابن راهوية.
12 ومذهب داود الظاهري.
13 ومذهب الأوزاعي.
14 ومذهب ابن جرير.
15 ومذهب أبي حنيفة.
16 ومذهب مالك.
17 ومذهب أحمد بن حنبل.
18 ومذهب الشافعي. (تعليق من المؤلف نفسه في الحاشية).

البيان:

57 كتاب نيل الأماني على مختصر سعد الدين التفتزاني.

المعاني:

58 كتاب الجوهر اليماني في توضيح ما صعب من علم المعاني.

البديع:

59 عقد الدرر السطيع في تبيين أنواع العلم البديع.

المنطق:

60 القول المسلّم في شرح السلم.

الأصول:

61 السيف المحلي على شرح المحلي.

62 ثم القول الجامع في شرح جمع الجوامع.

العروض:

63 مشكوة الأنوار التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار. على الخزرجية.

التاريخ:

64 زهرة الشماريخ في علم التاريخ.

65 ثم المنا والسول من أول الخليقة إلى بعثة الرسول.

66 ثم نصرة الرحمان في أخبار الجان. كتحف أدر ومرجان.

67 ثم تحفة الأخوان في بيان أرهاط وقبائل الجان.

58 ثم درء السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة.

69 ثم درء الشقاوة في حروب الترك مع درقاوة.

70 ثم المعالم الدالة على الفرق الضالة.

71 ثم الوسائل إلى معرفة القبائل.

72 ثم الحلل السندسية فيما جرى بوهران والعدوة الأندلسية. إن شئت قلت نفيس الجمان فيما جرى بالأندلس ووهران.

73 ثم القصص المغرب والخبر المعرب عن الحال المغرب بما وقع في الأندلس وثغور المغرب.

74 ثم غريب الأخبار عما كان بوهران والأندلس للمسلمين مع الكفار.

75 ثم عجائب الأخبار في لطائف الأسفار عما جرى بوهران والأندلس للمسلمين مع الكفار.

76 ثم عجائب الأسفار ولطائف الأخبار فيما جرى بالأندلس ووهران بين المسلمين والكفار.

77 ثم روضة السلوان المؤلفة بمرسى تيطوان في أخبار الأندلس ووهران.

78 ثم نباهة القمر من أنباء العمر بأنباء ملوك ورؤساء ومن أحسن منهم ومن أساء.

79 ثم ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس.

80 ثم الزهرة الوردية في الملوك السعدية.

81 ثم مروج الذهب في نبذة من النسب ومن إلى الشرف انتمى وذهب[1].

82 ثم الخبر المعلوم من كل من اخترع نوعاً من أنواع العلوم.

83 ثم المسلك المروم في أخبار الترك والروم.

84 ثم تحفة النفسا في ملوك إفرانسا.

85 ثم أقوال التأسيس عما وقع أو سيقع من الفرانسيس.

86 ثم نور الاقتباس في ذكر ملوك كل جنس من الأجناس.

87 ثم فتح الرحمن في شرف بني زيان وذكر فروعهم إلى هذا الزمان.

88 ثم العز المتين في ذكر ملوك بني مرين.

89 ثم فتح الجواد في الفرق بين آل زيان وآل عبد الواد وذكر ملوكهم الأطواد.

90 ثم لقطة العجلان في شرف الشيخ عبد القادر بن زيان وأنه من بني زيان ملوك تلمسان.

91 ثم الزهرة السماوية في أخبار الملوك العلاوية.

---

(1) وهذا الكتاب هو الذي ضيعوه (كذا) أولاد سيدي دحّ (كذا) على ما قيل هـ. ط.

92 ثم النور الأثقب في طبقات العرب.

93 ثم القصص العماتة في ذكر البربر وزناتة.

94 ثم القول الأسرب في أخبار أصول وفروع العرب.

95 ثم الكلام الفشاش في أخبار سائر المدن والقرى والأعراش.

96 ثم إزالة الصمم في الفرق بين العرب والعجم.

97 ثم النقل الواضح المشهور من بدىء الخليقة إلى النفخ في الصور.

النجم (علم النجوم):

98 إزالة الحلك في إبطال صوم من يأخذ برأي أهل الفلك.

99 ثم القول السعيد في شرح مقنع ابن سعيد.

100 ثم قبس الأنوار في شرح روضة الأزهار.

الجغرافية:

101 الجوهر والعرض في وصف السماء والأرض.

الأدب:

102 النزهة الأميرية في شرح المقامات الحريرية. شرح صغير.

103 ثم الحلل الحريرية في شرح المقامات الحريرية. شرح كبير.

القصائد:

104 البشائر والأسعاد في شرح بانت سعاد. لأمية كعب بن زهير الصحابي.

105 ثم نيل الأرب في شرح لامية العرب للشنفري الفاتك.

106 ثم إزالة الوجم عن قصيدة لامية العجم.

107 ثم الوصيد في شرح لامية سلوانية الصيد.

108 ثم الدرة الأنيقة في شرح العقيقة. شرح أول.

109 ثم طراز شرح المرداسي لقصيدة المنداسي. شرح ثاني.

110 ثم فتح الإله في شرح عقيقة ابن عبدالله. شرح ثالث.

111 ثم السعي الرابح السعيد في شرح عقيقة الشيخ سعيد. شرح رابع.

112 ثم الحلة السعيدة في شرح القصيدة السعيدية. شرح خامس.

113 ثم الجمان في شرح قصيدة أبي عثمان. شرح سادس.
114 ثم نزهة الحبيب على نظم الأديب الحسيب الجامع بين المدح والتشبيب والتنسيب. شرح سابع.
115 ثم الأنوار الجليلية في شرح القصيدة الخليلية.
116 ثم الكلام المحكي في شرح لامية امرؤ القيس قفا نبك.
117 ثم قنص الصيد في شرح مقصورة ابن دريد.
118 ثم الرياض المرضية في شرح الغوثية.
119 ثم العناصر الأمليسية في شرح البدور الغريسية.
120 ثم القول الماطي في شرح لامية الذمياطي (كذا).
121 ثم النور الحراق في شرح رجز الأوفاق.
122 ثم جمع الموارد في شرح ما مدحت به من القصائد.
123 ثم الجواهر الأصفية في معرفة العوالم العلوية والسفلية. على لامية رافع راس الأندلس.
124 ثم درء كل عسير إلى معرفة السيميا والكيميا والإكسير، على لامية ابن راشد.
125 ثم منحة الوهاب في ذهابي وما وقع لي بمكة مع الوهابي.
126 ثم القول المكفى في شرف ومناقب شيخنا المشرفي.
127 ثم منح الباري فيما وقع لي في أسفاري.
128 ثم تعجيل الأوبة وملء الغيبة في رحلتي لمكة وطيبة. وهذا الاسم قد سبقت به.
129 ثم حلتي ونحلتي في تعدد رحلتي.
130 ثم الفوائد المخبتة في الأجوبة المسكتة.
131 ثم لبّ فياضي في عدة أشياخي.
132 ثم فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربّي ونعمته.
133 ثم نزول الرحمة الكاملة في التحديث بالنعمة الشاملة، وقد سبقت بهذا الاسم.

134 ثم انصباب رحمة الله في انعقاد ديوان أهل الله.

135 ثم نبذة الزهر وأكمامه في بدء أمري واختتامه.

136 ثم شمس معارف التكاليف في أسماء ما أنعم الله به علينا من التآليف.

وهو آخر تآليفنا. ولو أطال الله عمرنا لزدنا.

وكان تمامه يوم الاثنين ثاني عشرين رجب الفرد الأصم الحرام من عام ثمانية وثلاثين ومائتين وألف من هجرة من له كل نعت جميل ووصف[1] بمنه آمين. ولا أرضى بواحدة حتى أقول ألف ألف.

انتهى بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه الجميل. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

تلك هي قائمة مخطوطات الشيخ أبي راس الناصر المعسكري كما سجلها بنفسه، ولا ندري هل النسخة التي وصلت إلينا أصلية أم منقولة، ولو أننا نميل إلى الرأي الثاني لأن أرقام المخطوطات فيها عربية وليست هندية، والشائع في القرن الثامن عشر لدى المثقفين هو استعمال الأرقام الهندية. وهناك كلام حول مخطوطة رقم 85: أقوال التأسيس عمّا وقع أو سيقع من الفرانسيس بأنها ليست من تأليف الشيخ أبي راس، الذي توفي قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر بثماني سنوات. وهو رأي الشيخ المهدي البوعبدللي. وسنعود للموضوع في مناسبة أخرى إن شاء الله.

وهران حي الصادقية	د. يحيى بو عزيز
25 ذو القعدة 1408 هـ	جامعة وهران
السبت 9 جويلية 1988 م	(الجزائر)

خامساً: الشيخ مصطفى بن المختار الغريسي، جد الأمير عبد القادر الذي درس وتفقه في غريس، وأخذ الطريقة القادرية على الشيخ عبد القادر بن عبدالله المشرفي، ثم حج وزار بغداد، وجدد أخذ الطريقة، ولبس الخرقة هناك على مقدم الشيخ عبد القادر، الجيلالي، وتبرع من ماله الخاص لتوسيع ضريح الشيخ الذي أصبح يعرف بزيادة الشيخ مصطفى المغربي، وعندما عاد أسس قرية القيطنة،

(1) الموافق 4 أبريل 1823.

وزاويته ومعهده بوادي الحمام عام 1206 هـ (1791 ـ 1792 م) وتصدى للتعليم والتدريس، وإعطاء وِرْدِ الطريقة، ووظف في زاويته علماء أجلاء أمثال شيخه عبد القادر المشرفي، وكان من بين تلاميذه ومريدي طريقته باي وهران المصلح والمجاهد محمد بن عثمان الكبير الذي لم يكن يرد له طلباً. وكان يجمع بين الشريعة والحقيقة، وتبحر في العلوم العربية والفقهية، وفي علم التصوف والحكمة حتى قال فيه صاحب القول الأعم: «فهو فيها البحر الذي لا يعرف له ساحل، ولا يبلغ إلى أدناه متطاول». ونظم حتى الأشعار والمدائح مثل مدحه للشيخ الهاشمي بن علي بن شنتوف. وخلال عودته من حجته الرابعة أدركته الوفاة في برقة الليبية عام 1212 هـ (1797 ـ 1798 م) فدفن بعين غزالة قرب درنة وما يزال قبره معروفاً حتى اليوم، وخلفه من بعده ابنه محي الدين.

سادسا: الشيخ محي الدين بن مصطفى والد الأمير عبد القادر، ولد بوادي الحمام عام 1190 هـ (1776 ـ 1777 م) ودرس على أبيه، وورث عنه مشيخة الزاوية، وكثر عليه طلاب العلم والمعرفة ومريدوا الطريقة، والتصوف، واشتهر بالصلاح. وسداد الرأي، وغزارة العلم والمعرفة، وبمقاومته لسياسة الظلم والقسوة ولذلك وشى به بعض خصومه إلى الباي حسن بن موسى بوهران، وأشاروا عليه بنقله إلى هناك ليكون تحت رقابته الفعلية، فرحله مع ابنه عبد القادر عام 1236 هـ (1821 م) وبقي هناك حتى عام 1241 هـ (1825 م)، وسلاه تلميذه الشيخ السنوسي بن عبد القادر الحسني الراشدي بقصيدة شعرية قال فيها:

عول على الصبر لا تفزعك أشجان ... ولا ترعك بما فاجتك وهران

أما هي الدار لا تؤمن غوائلها ... بلى هي الدار أغيار وأحزان

شبت على الغدر لم تعطف على أحد ... إلا ومن غدرها صد وهجران

ما أنت أول من أدهت وآخرهم ... ولا بأوسط من خانته هجران

أنظر إلى يوسف الصديق كم لبثت ... في السجن ذاته ما وافته خلان

وانظر إلى ابن رسول الله ثم إلى ... هلم جرّاً وما لاقاه عثمان

تلك العوائد أجراها على قدر ... مدبر الأمر مهما شاء ديان

لم يثقفوك أمحي الدين عن زلل رأوا ولكــن أغوى القوم شيطان
فعن قريب أكيد الصبر يخذل من من أجله قد عدا عليك سلطان
ويكظم الغيظ من خصم ومن حكم ويكشف الغيب عن أفعال من خانوا
بل لا عليك وإن ساءت ظنونهم سيهزم الجمع أو ينفض ديوان
أن العـواقـب فـي القـرآن ثـابتـة للمتقيـن وصـدق القـول قـرآن
وأنت ما زلت تهدينا إلى سنن تهدي إلى الحق لم يثنيك طغيان
تقري الضيوف وتسعى في حوائجهم وتحمـل الكـل لا غـش ولا ران
من يستجر بك يا من إن عداه عدت تحمي الذمار ويرجى منك إحسان
جفيت ليلك لم تألف مضاجعه ويومك الدهر جوعان وعطشان
تبيت جنح الدجا تتلو المفصل عن قلب وتصبح مثل البدر تزدان
تـدرس العلـم أحيـانـاً وآونـة تلقـن الـذكـر فـالظمـآن ريـان
والله أســـأل أن أراك منطلقـــاً تسعـى ومـا لـك حـراس وأعـوان
ومنـه أرغـب أن ألقـاك معتـد لا كالحال قبل وقد أمتك ركبان
ثـم الصـلاة علـى النبـي وآلـه والصحـب طـرًّا مـا نمـا إيمـان

وعندما تأكد الباي حسن من بطلان الوشاية، رفع الرقابة عليه فشد الرحال إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، صحبة ابنه عبد القادر براً إلى تونس وبحراً إلى مصر والحجاز. واستغرقت رحلته عامين اثنين حج فيها مرتين وزار معظم عواصم المشرق الإسلامي: مكة والمدينة، وبغداد، ودمشق، وبيت المقدس، وجدّد في بغداد أخذ الطريقة القادرية ولبس الخرقة، مع مقدم الضريح، ثم قفل راجعاً إلى البلاد براً عبر مصر، وبرقة أين زار قبر جده الشيخ مصطفى في عين غزالة، ثم واصل رحلة العودة عبر طرابلس وتونس، والكاف، والجزائر ووصل إلى القيطنة أوائل عام 1243 هـ (1828 م). وعندما احتل الفرنسيون الجزائر ووهران، يوم 4 جانفي 1831 م، تزعم حركة المقاومة، ورشح ابنه عبد القادر أميراً للجهاد، وبويع أواخر عام 1832، وتوفي هو عام 1249 هـ (1833 م) فخلفه ابنه محمد السعيد في رئاسة الزاوية بالقيطنة، وابنه عبد القادر في حركة الجهاد والمقاومة.

سابعاً: الشيخ أحمد بن التهامي الذي تزوج عمة الأمير عبد القادر، وكان عالماً وفقيهاً، وذا جاه عريض، ولقبه صاحب القول الأعم بشيخ الجماعة. وعينه الأمير عبد القادر رئيساً لمجلس الشورى العالي الأميري، مما يدل على سعة علمه وثقافته، وعلى فهمه للقضايا السياسية لأن المنصب الذي أسند إليه بمثابة رئيس الوزراء. وحسب رواية ابنه مصطفى فإنه توفي بمصر خلال ذهابه إلى الحج أثناء ثورة الأمير عبد القادر.

ثامناً: الشيخ مصطفى بن أحمد التهامي الذي كان مثل أبيه عالماً وأديباً، وعارفاً بعلم السير والأنساب، عينه الأمير كاتباً له، ورئيساً لديوان الإنشاء ثم خليفة له على مدينة وولاية معسكر. وتولى قيادة الجيش الأمير في عدة جهات من الوطن بالمدية، والجلفة، وبوسعادة، والمسيلة، ومجانة، وسطيف، وعين تاغروط، وبسكرة وخاض معارك كثيرة في التل والصحراء، والهضاب العليا، وعاش كل أحداث الأمير عبد القادر إلى أن استسلم ونفي معه إلى فرنسا، وكلفه الأمير في قصر امبواز بتأليف كتاب عن نشأته، وجهاده، استجابة لمن طلب منه ذلك فألفه، وهاجر معه بعد ذلك إلى تركيا، وبلاد الشلام، ونظم هناك غوثية في التوسل بدأها بقوله:

لمـا جـرى القـدر بـالخـلاف　　　ووقـع الخلـف بـالائتـلاف
ووجـب الـوحـش بقعـر اليـم　　　والحـق النقـص ببـدر التـم

إلى أن قال:

قلـت منـاديـاً نـداء القـرب　　　مقتـربـاً إن جـاز وعـد الـرب

وتقع في 522 بيتاً قدمناها للطبع مع كتابه: سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، ولا ندري متى وأين توفي كما لم نعرف متى ولد.

تاسعاً: علماء أسرة ابن الخروبي بقلعة بني راشد الذين توارثوا وظيفة القضاء على عهد الأتراك، والأمير عبد القادر. فالشيخ محمد الخروبي تولى القضاء للباي عثمان بن محمد الكبير (1800 ـ 1801 م) ووظيفة الأنيس له كذلك. ووقف إلى جانبه الشيخ الطيب بن الفريح حينما وشى به بعض

خصومه. وتولى الشيخ محمد الجيلالي الخروبي القضاء للأمير عبد القادر، وهاجر معه إلى الشام وتوفي هناك.

عاشراً: الشيخ محمد بن علي أقوجيل، الكاتب والشاعر، ينحدر من أسرة علمية بنواحي البرج شرق معسكر، توارث القضاء على عهد الأتراك، والفرنسيين وألف ابن أقوجيل هذا كتاباً أسماه: عقد الجمان اللامع من قعر البحر الجامع». ونظم شعراً حث فيه الباشا حسين خوجة الشريف (1705 ـ 1707 م) على محاربة الإسبان بوهران، والاعتناء بالعلماء ومشاورتهم في الأمور والقضايا فقال في الجهاد:

ولتلتفت نحو الجهاد بقوة ... والكفر أقطع أصله بذكور
جهز جيوشك كالأسود وسرحن ... تلك الجواري في عباب بحور
اضرم علي الكفار نار الحرب لا ... تقلع ولا تمهلهم بفتور
وبقربنا وهران ضرس مؤلم ... سهل اقتلاع في اعتناء يسير
كم قد أذت من مسلمين وكم سبت ... منهم بقهر أسيرة وأسير

وقال عن العلماء:

شاور ذوي علم ودين ناصح ... ودع الغواة وكل ذي تنوير
فالعلم ميراث النبوة ناله ... قوم لهم حظ من التنوير
إني نصحتك والنصيحة ديننا ... فاقبل ولم ينصحك دون خبير

حادي عشر: الشيخ أحمد بن محمد بن علي بن سحنون اراشدي، الذي كان ملازماً للباي مصطفى بن يوسف بوشلاغم، وحضر معه الهجوم الكاسح على وهران وتحريرها التحرير الأول عام 1119 هـ (1708 م) واشترك معه في كل خطوات الفتح وسجل الأحداث نظماً، ثم شرح ذلك النظم نثراً في كتابه: «الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني». حكى فيه بالتفصيل قصة الفتح، وسجل حياة الباي وتاريخ أسلافه، وعمران مدينة معسكر، ومآثرها، ودور العلماء في الجهاد ورباطهم بإيفري بوهران، وأورد في هذا الكتاب معلومات كثيرة، سياسية، واقتصادية واجتماعية، وأدبية، وعسكرية، وتاريخية، وثقافية،

وحقق الشيخ المهدي البوعبدللي هذا الكتاب ونشرته وزارة الشؤون الدينية عام 1973 م.

ثاني عشر: الشيخ ابن المختار، الغريسي. ودرس على عميه: الشيخ محي الدين، والشيخ على ابن أبي طالب، بزاوية القيطنة، ثم انتقل إلى تلمسان ليتوسع أكثر وبعد ذلك عاد إلى القيطنة للدتريس، والتعليم، والإقراء، ولا نعلم عنه أكثر من هذا.

ثالث عشر: ابنه الشيخ الطيب بن المختار الغريسي، ابن عم الأمير عبد القادر، وكان عالماً فاضلاً، وألف كتاب: «القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم». وقال شعراً في مدح الأمير عبد القادر بدأه بقوله:

أكـل خليـل لا يـدوم لـه عهـد	أم انفردت في حل ما عقدت هند
أراها استحالت حالها وتنكرت	معـارفهـا والطـرف عنـي مـرتـد

فأجابه الأمير شعراً كذلك وقال:

أمـا والـذي تعنـو لهيبتـه الـورى	وجـلّ اعتـزاز أن يكـون لـه نـدّ
لأنتم وإن شط المزار بشخصكم	أود من القربى وأدنى إذا عدّو
فكم من بعيد الدار نال مراده	وكم من قريب الدار ما ناله ودّ
ألا فلتطـب نفسـاً بطيـب ودادنـا	فـإن ربـاط الـودّ تـالله مشتـدّ

وقد توفي الشيخ الطيب حوالي عام 1320 هـ (1903 م).

رابع عشر: الشيخ أحمد العشماوي ثم المكي الذي ألّف كتاب: «السلسلة الوافية والياقوتة الصافية». فـي الأنساب المطهرة من الرسول عليه الصلاة والسلام إلى عهده. وتفضل الشيخ بلهاشمي بن بكار، فنشره مع كتاب القول الأعم ضمن كتابه: النسب والحسب، عام 1961 م. ولا ندري حالياً عن الشيخ العشماوي أكثر من هذا.

خامس عشر: الشيخ محمد بن يوسف الزياني الذي ينحدر من أسرة علمية ومخزنية بمدينة برج عياش التي عرفت فيما بعد ببرج المخفي وأخيراً البرج شرق مدينة معسكر، وكان عمه أحمد بن يوسف الزياني مستشاراً، ونصوحاً للباي

إبراهيم الملياني بتلمسان، ومعسكر عام 1170 هـ (1756 ـ 1757 م). وقد تولى محمد بن يوسف خطة القضاء للفرنسيين في مدينة البرج عام 1861 ثم نقل إلى وادي تليلات قرب وهران عام 1883 م، وأخيراً إلى مدينة سيف، وكان ما يزال حياً عام 1230 هـ (1902 ـ 1903 م) حسبما ذكر ذلك الشيخ المهدي البوعبدللي استناداً إلى مراسلة بينه وبين مفتي وهران علي بن عبد الرحمن بنفس التاريخ، وقد ألّف الزياني كتاباً عن تاريخ وهران سماه: «دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران» تحدث فيه عن تاريخ المدينة عبر مراحلها، والدول التي حكمتها، وعلمائها، وأوليائها وتوقف عند الاحتلال الفرنسي، وحققه المرحوم الشيخ المهدي البوعبدللي ونشرته المكتبة الوطنية بالجزائر عام 1978 م.

سادس عشر: الشيخ بن عبدالله بن عبد القادر بن أحمد بن علي صاحب الشهرة الواسعة بسهل غريس، تنقل بين بلاده وسيراط قرب وهران، وعمي موسى، ووادي الشلف، وحصل على تفوق علمي كبير، وأخذ علم التصوف على الشيخ عدة بن غلام الله في تيارت، ثم أسس لنفسه زاوية بمعسكر للتعليم، والتدريس والذكر، نالت سمعة في المنطقة، ونظم قصائد في التصوف، وتوفي ليلة الاثنين 10 ربيع الأول 1313 هـ (أوت 1895 م) وخلفه ابنه عبد القادر حتى توفي عام 1923 فخلفه ابن أخيه عدة، ثم أخوه الحاج المختار، ثم الشيخ بو شنتوف.

سابع عشر: الشيخ الحاج عبد القادر بن مصطفى بن فريحة الذي أسس معهد للتعليم في منزله، وتصدى للتعليم بنفسه، وسخر ماله للإنفاق على الطلبة الوافدين مدة ثلاثين عاماً، ثم نقل معهده إلى مدينة تغنيف شرق مدينة معسكر وتصى للتعليم والتدريس فيه وفي الجامع الأعظم بالمدينة عشرين سنة أخرى حتى توفي في منتصف القرن الرابع عشر الهجري (1931 ـ 1932 م) ودفن بالجامع الأعظم نفسه حيث معهده، وقيل إنه تخرج على أيديه أربعمائة فقيه في الشريعة وأصول الدين. وخلفه ابنه الحاج محي الدين، وكان من ضمن تلاميذه الشيخ بخالد بن كابو صاحب المعهد العلمي بمدينة سيدي بلعباس.

ثامن عشر: وأخيراً نختم هذه القائمة بالشيخ بلهاشمي بن بكار مفتي مدينة معسكر، الذي تعلم وتفقه في نفس المدينة، وأخذ الطريقة الشاذلية الوزانية على الشيخ عبد السلام الوزاني بطنجة وعلى أخيه الشيخ الطيب بن العربي، والحاج التهامي، وتصدى للتعليم والتدريس في مسجد سيدي علي الشريف بمعسكر عشر سنين، وفي زاوية سيدي بن عبدالله عامين، وفي الجامع الأعظم عشر سنين، وهو الذي أدخل عليه إصلاحات وتوسيعات كثيرة. فزاد في مساحة قاعة الصلاة ما يقرب من الثلث، وتوى منصب شيخ الجماعة الدينية الإسلامية بمعسكر ودائرتها خمسة عشر عاماً والإشراف على شؤون المساجد بها عشرين عاماً هذا إلى جانب منصب المفتي.

وألف مجموعة من الكتب منها:

أ) رفع الإشكال والمرا في حكم غرس العنب وبيعه لمن يعصر خمراً.

ب) بلوغ الأمل في أدلة ما جرى به العمل.

ج) عبرة الناضر في تاريخ الجزائر.

د) كتاب حاشية رياض النزهة على منظومة نسمات رياح الجنة. في فضائل أهل البيت وأولياء الله وأذكار الكتاب والسنة.

هـ) كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب.

وقد جمع في هذا الأخير: كتاب حاشية رياض النزعة له، وكتاب السلسلة الوافية للعشماوي، وكتاب القول الأعم للطيب بن المختار، وكتاب شرح منظومة بغية الطالب لابن الأعرج ونشرها جميعاً عام 1381 هـ (1961 م).

وتوفي الشيخ ابن بكار أواخر عقد الستينات وكان قد زارنا إلى منزلنا بوهران في حدود عام 1964 مبعوثاً من طرف الأخ مسعودي محمد مدير مؤسسة المطبوعات الوطنية الذي أحال علينا كتابه التاريخي للتقييم ولم نشعره بذلك. وكان مسناً كثيراً رحمه الله تعلى وغفر لنا وله، وأكرم مثواه.

إن هذه القائمة الصغيرة من العلماء والفقهاء والأدباء والرحالة، والكتاب، والمؤرخين، تؤكد أن مدينة معسكر، وسهل غريس، وقلعة بني راشد، وبرج

عياش، شاركتا مشاركة فعالة في المسيرة الثقافية الواسعة، والمستمرة، لهذه البلاد المجاهدة، وأرسى علماؤها ومثقفوها تقاليد أصيلة للثقافة العربية الإسلامية المتفتحة وقدمت جهوداً وعطاءات فكرية عاملة ومتنوعة وثرية ورفيعة المستوى، كانت في مستوى طموحات الأجيال وتاريخ البلاد العريق، وواقع البلاد العربية الإسلامية، وتمثل اليوم رصيداً هائلاً للانطلاقة الفكرية والثقافية من جديد التي يخوضها شعبنا الجزائري المؤمن والمسلم والمجاهد الطموح.

بعض المراجع ذات الصلة بالموضوع

1) ابهلول (أبو علي بن الحسن بن علي المجاجي): العقد النفيس في بيان علماء وشرفاء غريس (مخطوط في بداية القرن 11 هـ وأواخر القرن 16 م).

2) الأفراني أو اليفريني (محمد الصغير):

أ ـ صفوة من انتشر في أخبار القرن الحادي عشر م. خ. ع. الرباط د 671.

ب ـ نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، ترجمه هوداس إلى الفرنسية عام 1888 م (منشورات أرنست لوروكس).

3) الأصفهاني (عماد الدين): خريدة القصر وجريدة العصر. تحقيق محدم المرزوقي، ومحمد العروسي المطوي، والجيلاني بن الحاج يحيى. 3 أجزاء (تونس 1971، 1972، 1973 م).

4) ابن أبي أصبيعة (أحمد الخزرجي): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا (بيروت، دار الحياة 1965 م).

5) بدوي (عبد الرحمن): مؤلفات ابن خلدون، (القاهرة 1962 م).

6) ابن بشكوال (أبو القاسم خلف): كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائها. 2 أجـ (مدريد 1882 ـ 1883 م) (القاهرة ـ 1962 م).

7) بروكلمان (كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة فارس (نبيه أمية)، والبعلبكي (منير) ط 2 (بيروت 1974 م).

8) بوعزيز (يحيى):

أ ـ ازدهار الحضارة والفكر الإسلاميين في المغرب الإسلامي ودورهما في نهضة أوروبا ويقظتها. مجلة الأصالة، أعداد: 75، 76، 77، 78، (الجزائر نوفمبر، ديسمبر 1979، جانفي، فيفري 1980) ص 113 ـ 144.

ب ـ جهود الجزائر الفكرية في موكب الحضارة العربية، الأصالة، عدد 19 (الجزائر 7 مارس، أبريل 1974 م) ص 287 ـ 301.
ج ـ أعلام الفكر والثقافة بمدينة تلمسان، (مخطوط).
د ـ مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية (الجزائر د.م.ج 1991 م).
هـ ـ مركز بجاية الحضاري، ودوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية وفي نهضة إيطاليا وجنوب غرب أوروبا. مجلة الحضارة الإسلامية العدد الأول. (وهران 1414 هـ/ 1993 م) ص 1 ـ 19.

9) التميمي (محمد بن أحمد): كتاب طبقات علماء إفريقيا (الجزائر 1332 هـ/ 1914 م).

10) التنبكتي، (أحمد بابا): نيل الابتهاج، بتطريز الديباج، طبع على هامش الديباج المذهب لابن فرحون (القاهرة/ 1351/ 1932 م).

11) التنسي (محمد بن عبد الجليل): نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان (مخطوط).

12) التيجاني (أبو زيد عبد الرحمن): عقد الجمان، النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس (مخطوط) وهو رجز شرحه تلميذه محمد الجوزي بعنوان: فتح الرحمن في شرح عقد الجمان.

13) الجيلالي (عبد الرحمن): تاريخ الجزائر العام (الجزائر 1988) ط 2 4 أجـ.

14) ابن حجر العسقلاني، (أحمد بن علي): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. ط 1 (حيدر أباد 1448 هـ) ط 2 تحقيق محمد عبد الحق القاهرة ـ 1966 م).

15) حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (اصطنبول 1951 ـ 1943 م) 2 أجـ. (طهران 1967 م/ 1387 هـ).

16) ابن حواء (الشيخ محمد): سبيكة العقيان فيمن حل بمستغانم وأحوازها من الأعيان (مخطوط).

17) الحميري (أبو عبدالله محمد): الروض المعطار، (القاهرة ـ 1938 م).

18) ابن خلكان (شمس الدين): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق محي الدين عبد الحميد (القاهرة ـ 1938م) 6 أجـ، ط2 تحقيق إحسان عباس (بيروت 1971).

19) الخشني (أبو عبدالله محمد): قضاة قرطبة وعلماء إفريقيا (القاهرة 1372 ـ الجزائر 1914 م).

20) ابن خلدون (عبد الرحمان):
أ ـ كتاب العبر، جـ 7 (بيروت 1971 م).
ب ـ التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً تحقيق وتعليق ابن تاويت (محمد الطنجي) (القاهرة 1951 م).
21) ابن خلدون (يحيى): بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد نشر ألفريد بل. 2 أجـ، (الجزائر، ج 1، 19041 جـ 2 ١٩١٣ م) ط 2 ج 1 تعريب وتحقيق عبد الحميد حاجيات (الجزائر 1980 م).
22) ابن أبي دينار (محمد القيراوني): المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس تحقيق محمد شماخ (تونس 1967 م).
23) الزركشي (محمد بن إبراهيم): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ط 2 تحقيق محمد ماخور (تونس 1966 م).
24) الزركلي (خير الدين): الأعلام (القاهرة 1954 ـ 1955 م) 10 أجزاء.
25) ابن الزيات (يوسف التادلي): التشوف إلى معرفة رجال التصوف نشر أدولف فور (الرباط 1958 م).
26) الزياني (محمد بن يوسف): دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران. تقديم وتعليق المهدي البوعبدللي (الجزائر 1978 م).
27) السخاوي ؛محمد): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (القاهرة 1354 ـ 1355 هـ) 12 أجـ. ط 2 (بيروت بدون تاريخ) 12 جـ.
28) سعد الله (د. أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، 2 أجـ (الجزائر 1982 م).
29) ابن صعد (التلمساني) روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين (مخطوط) عندنا حققناه وقدمناه للطبع، بدار الغرب الإسلامي.
30) أبو العرب (محمد القيرواني): طبقات علماء إفريقيا وتونس، تحقيق علي الشابي، وزميله (تونس 1968 م).
31) عثمان (محمد عبدالله): ابن خلدون حياته وتراثه الفكري (القاهرة ـ 1938 م).
32) الغبريني (أبو العباس أحمد): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية (الجزائر 1971 م).
33) ابن عسكر (محمد): دوحة الناشر بمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر (الرباط، 1397 هـ ـ 1977 م).

34) ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس (القاهرة ـ 1954 م) 2 أجـ. ط 2 (1966 م).
35) فيشل (والتر): لقاء ابن خلدون لتيمورلنك، ترجمة توفيق (محمد) (بيروت بدون تاريخ).
36) القادر (محمد بن الطيب):
أ ـ نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني. (فاس 1310 هـ 1892 م).
ب ـ مستودع المواعظ والعبر في أخبار أعيان أهل المائة الحادية والثانية عشر (مخطوط).
37) ابن القاضي (أحمد الفاسي): جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس (فاس 1309 هـ).
38) ابن قنفذ (أحمد الخطيب القسنطيني):
أ ـ الوفيات: تحقيق هنري بيريز ـ الجزائر بدون تاريخ) ط 2، تحقيق عادل نويهض (بيروت 1971 م).
ب ـ أنس الفقير وعز الحقير. تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور. (الرباط ـ 1965 م).
39) محمد (الأمير): تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (الإسكندرية 1903 م) 2 أجـ.
40) المحبي (محمد) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر القاهرة ـ (1284 هـ/ 1867 م).
41) ابن مريم (محمد المليتي): البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان تحقيق ابن أبي شنب (الجزائر 1908 م).
42) ابن مرزوق (محمد الخطيب): المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق فيغيرا (د. ماريا خيسوس) (الجزائر 1981 م).
43) المزاري (بن عودة إسماعيل): طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنهاالأسود. تحقيق بوعزيز (د. يحيى) 2 أجـ. (بيروت 1990 م).
44) ابن محرز الوهراني (محمد): منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. تحقيق إبراهيم شعلان، ومحمد نغش (القاهرة 1968 م).
45) المقري (أحمد): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان

الدين بن الخطيب تحقيق وتعليق إحسان عباس (بيروت 1968 م) 8 أجـ.
46) المغيلي (محمد بن عبد الكريم): أسئلة الأسقياء وأجوبة المغيلي، تحقيق وتقديم د. عبد القادر زيادية (الجزائر 1974 م).
47) الهواري (محمد بن عمر): السهو والتنبيه للفقراء أهل الفضل النبيه، (مخطوط).
48) الورتلاني (الحسين): نزهة لأنظار في فضل التاريخ والأخبار، المعروفة بالرحلة الورتلانية، تحيق محمد بن أبي شنب (الجزائر 1920 م).

المجلات:

مجلة الأصالة: (1971 ـ 1981 م).
مجلة الثقافة (1971 ـ 1989 م).
المجلة التاريخية المغربية (1974 ـ 1991 م).
مجلة المقتبس (1906 ـ 1908 م).

دوائر المعارف:

دائرة المعارف الإسلامية: الترجمة الفرنسية 3 مجلدات.
دائرة معارف القرن العشرين، 10 أجزاء.

دور المحفوظات:

الأرشيف الوطني التونسي، الوزارة الأولى (ملفات المشبوه فيهم).

أ ـ فهرس الأعلام

ب ـ فهرس الأماكن

— هـ —

— و —

— ي —

فهرس محتوى الكتاب



بيروت - لبنان
لصاحبها : الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء ، بناية الأسود
تلفون البناية : 340131 تلفون مباشر : 350331 ص.ب. 5787-113 بيروت ، لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN

الرقم 1995/10/1000/281

التنفيذ: كومبيوتايب في الصف التصويري الالكتروني

الطباعة : دار صادر، ص. ب. 10 - بيروت

Bouazīz Yahia

AʿLĀM AL-FIKR

(Personnalités de la pensée et de la culture algériennes)

Volume II



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
1995

Bouazīz Yaḥia

ʾAʿLĀM AL-FIKR

(Personnalités de la pensée et de la culture algériennes)

Volume II



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI